محمد جواد مغنية

عقليات إسلامية

بحث عقلاني في الألوهية والنبوة والآخرة
الامامة، المهدي المنتظر ومسائل أخرى

الجزء الثاني

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الشيخ محمد جواد مغنية

عقليات إسلامية

بحث عقلاني في الألوهية والنبوة والآخرة
الإمامة، المهدي المنتظر ومسائل أخرى

الجزء الثاني

عز الدين
للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحسين والقرآن

مُقَـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد وآله الطيبين .

هذه الأوراق :

وبعد :

فان أوراقي هذه ليست سيرة لحياة الأمام الحسين (ع) . او تحليلاً لشخصيته ، أو عرضاً لما تركت مواقفه وتضحياته من آثار ، أو لما ورد فيه من أحاديث عن جده رسول الله (ص) ، وإنما مجرد محاولة أو إشارة إلى أن الحسين ترجم القرآن بروحه وعمله ، ولحمه ودمه ، لأنه أعطى للإنسانية ما لم يعطه أحد من العالمين . . فأي هاد أو مصلح ضحى بدمه ومهجته ، ودماء أهله وأطفاله وأخوته وصحبه لا لشيء الا لتكون هذه الدماء الطاهرة الثائرة صاعقة على كل ظالم ، وقوة لكل مظلوم ، وحجة تدمغ كل من سكت وتعامى عن الظلم والعدوان في كل زمان ومكان .

وهكذا القرآن صواعق وطوفان على الطغاة والبغاة . . فمن أخص خصائصه الدعوة إلى القتل والقتال لخلاص المحرومين من المستغلين ، قال سبحانه :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ ﴾

٧٥ النساء .

وقال :

﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمنينَ أنْفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾

التوبة ١١١ .

ونحن نعرف الكثير من الذين قاتلوا وقتلوا في سبيل الله والمستضعفين ولكن لا نعرف أحداً - غير الحسين - آثر أن يقتل قذفاً بالحجارة ، ورمياً بالسهام ، وطعناً بالرماح ، وضرباً بالسيوف وان يُذبح أهله وأطفاله وصحبه وأخوته ، وان تحرق خيامه ، وتسبى نساؤه ، آثر ذلك على أن يساوم على الحق وأبى الا أن يمضي على « دين النبي » مخضباً بدمه ومحامياً عنه بكل ما يملك من نفس ونفيس .

الشيعة وذكرى الحسين :

كتب المفكرون والمؤرخون عن الحسين ، وكيف عصفت مواقفه بالبغي ودولته ، وانها علّمت الأجيال كيف يستهينون بالموت من أجل الحرية والكرامة . . ومع هذا ما قدر الحسين حق قدره الا الشيعة حيث أحيوا ذكراه على مدى الليالي والأيام ، واعتبروا ذلك من أفضل الطاعات ، وأقوى البواعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذهب بعض علمائهم إلى ان زيارة المشهد الحسيني واجبة على القادر للنص [1] ووفاء لحق الإمام الحسين ، وبعثاً لروح الجهاد .

وربما يقول قائل : ان فقهاء الشيعة ذكروا شروطاً للأمر بالمعروف ، منها الأمن من الضرر على النفس والمال العرض . . واذن كيف تكون شهادة الحسين أمراً بالمعروف أو باعثاً عليه ؟ .

الجواب :

قد يواجه الانسان موقفاً يحتم عليه أن يختار بين التضحية بنفسه لانقاذ الدين أو الوطن من الضياع والهلاك ، وبين أن يتمسك بالحياة ويذهب الدين والوطن .. وليس من شك أن عليه – وهذي هي الحال – أن يختار الاستشهاد عملاً بقاعدة تقديم الأهم على المهم ، ودفع الضرر الأشد بالضرر الأخف . . قال العقاد في كتاب ابو الشهداء : « وصل الأمر في عهد يزيد إلى حد لا يعالج بغير الاستشهاد » .

---

(١) أنظر كتاب الوسائل آخر باب الحج ، ولكن أكثر علماء الشيعة قالوا برجحان الزيارة واستحبابها . أما في كتب السنة فقد روى المحب الطبري في ذخائر العقبى ص ١٥١ طبعة سنة ١٣٥٦ : « ان من زار قبر الحسين عارفاً بحقه كتب الله له في عليين » .

ولو كان الأمن من الضرر واجباً اطلاقاً وفي سائر الاحوال — لما وجب الجهاد ، وكانت الشهادة في سبيل الله معصية له ! . . وكلام الفقهاء بعيد عن هذا الغرض ، ويختص فيما إذا تولد من النهي عن المنكر فساد أشد وأعظم .

كل القلوب مع الحسين :

كل الناس يحبون حسيناً ، المؤمن منهم والملحد ، والغني والفقير ، والطيب والخبيث . . حتى الذين قاتلوه وقتلوه كانت عليه سيوفهم ، ومعه قلوبهم ، لأنه فوق الشبهات ، لا مهمز لقائل فيه ولا مغمز . . ولقد بحثت وتتبعت أقوال يزيد وأعوانه لعلي أجد فيها ذنباً واحداً ينسبه هؤلاء إلى سبيل الشهداء ولو كذباً وبهتاناً ، كما فعل المشركون مع جده رسول الله (ص) ، والناكثون والفاسقون مع أبيه أمير المؤمنين (ع) ، تتبعت ونظرت فما وجدت شيئاً من ذلك . . مع ان الامام الحسين نعتهم بكل خزية ودنية ، وذكّرهم بمنزلته وعظمته عند الله ورسوله ، فما كان جوابهم الا ان قالوا : « لقد علمنا ذلك ، ونحن غير تاركيك حتى تموت عطشاً ، أو تنزل على حكم يزيد وابن زياد » .

واذن فذنب الامام أنه رفض الخضوع لطغاة الفساد والبغي ، وقال : يأبى لله ورسوله والمؤمنون أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام هذا هو الخط الحسيني الذي سار عليه الإمام قولاً وعملاً : أن يموت الانسان حراً كريماً ، ولا يطيع فاجراً لئيماً . . وهنا يكمن السر في ان الناس ، كل الناس يحبون حسيناً حباً جماً .

وبهذا الخط الحسيني وأمثاله افترق شيعة علي والحسين عن غيرهم من الطوائف الذين أوجبوا على كل مسلم أن يسمع ويطيع للحاكم وان افسد

وجار . . فقد روى البخاري في أول كتاب الفتن عن رسول الله (ص) أنه قال : من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر عليه . وروى مسلم في باب طاعة الأمراء وان منعوا الحقوق : أن رجلاً سأل رسول الله (ص) وقال : أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقوقهم ، ويمنعونا حقنا ، فما تأمرنا . فقال له الرسول : اسمعوا واطيعوا ! . . ولو صحت هذه الرواية لصدق قول ماركس : « الدين افيون الشعوب » . . تعالى دين الله عن ذلك علواً كبيراً .

تقدير العظماء :

بعد كتابة ما تقدم، وكان العزم الإكتفاء به كمقدمة ، قرأت مقالاً في بعض الصحف عن « بيكاسو » وهو رسام اسباني ، توفي في العام الماضي ١٩٧٣ وكنت قرأت وعرفت عنه الكثير ، لأنه ذائع الصيت ، ولكني كنت أجهل أن أرباب الأقلام كتبوا عنه مئات الكتب ، وهو حي يرسم اللوحات حتى قرأت هذا المقال ، فمر بخاطري نابليون بونابرت ، وان ما كتب عنه وعن عشيقاته ومغامراته تجاوز المئة الف كتاب ، وربما أكثر من مليون مقال . . مع انه لم يكن مرضي السيرة في أفعاله الخاصة ، وان سياسته وطموحه ساق الرزايا والويلات إلى وطنه فرنسا . . وقيمته الأولى أنه بطل المغامرات ، وعظيم الغرور بالذات .

وإذا كانت هذه عناية الغربيين برسام ومغامر فما ظنك لو كان عندهم عظيماً كالحسين بروحه ومواقفه ومبادئه وتضحياته ؟ . وماذا كانوا يفعلون أكثر مما تفعله الشيعة من أجل الحسين ، ولكن على طريقتهم ومنهجهم ، ومن زاوية حياتهم وتفكيرهم .

وبعد ، فان ذكر الحسين ومناقب الحسين تماماً كالقرآن لا تبلى جدته ، ولا يمل تكراره . . ومن لا يؤمن بالقرآن والاسلام فانه يؤمن بالانسانية ، أو « بالقومية العربية أو الشخصية الشرقية » مثلاً ، وسيرة الحسين مظهر ومصداق لهذه الشعارات ، ولكل خير وفضيلة ، واذن فالوفاء له واجب إنساني وقومي بل وعلمي بقدر ما هو واجب ديني وقرآني .

وهو سبحانه المسئول أن يوفقنا جميعاً لطاعته ، والصلاة على محمد وعترته .

أساس الاختلاف بين الشيعة والسنة

ما حكم أهل البيت ؟

اتفق كافة المسلمين اتفاقاً يقينياً على وجوب العمل بالكتاب واتباع الرسول (ص) واختلفوا في اتباع آله من بعده هل هو أيضاً واجب بحيث يكون قولهم قوله ، وفعلهم فعله ، وتقريرهم تقريره ، كما يقول الشيعة ، أو ان آل الرسول من هذه الجهة غير متميزين عن سائر المسلمين ، كما يقول السنة ؟ .

ومن المؤكد أن دعوى الشيعة هذه كبيرة وخطيرة حيث لا معصوم بعد رسول الله الا إذا اثبت ذلك عنه بالدليل الجلي فأين هو ؟

الجواب :

للشيعة العديد من الأدلة ، وكلها اوجلها من كتاب الله وسنة نبيه الثابتة برواية أهل السنة انفسهم ، وقد أفرد علماء الشيعة لهذه الأدلة كتباً خاصة ، ومنها على سبيل المثال الشافي للمرتضى ، ونهج الحق وغيره للعلامة الحلي من القديم ، ومن الجديد دلائل الصدق للمظفر ، والوشيعة للسيد محسن الأمين ، والمراجعات لشرف الدين ، وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز آبادي ، والغدير للأميني . . ونذكر من هذه الأدلة دليلاً واحداً ، وهو حديث الثقلين كنموذج ومثال .

حديث الثقلين :

روى هذا الحديث الكثير من الصحابة وغيرهم من الثقات بشهادة أهل السنة ، وسجله علماؤهم في كتب الحديث والسيرة والمناقب ، وتتبع الشيخ قوام الدين الوشنوي هذه الكتب ، وأحصى منها اكثر من اربعين اشار إليها في رسالته المسماة « حديث الثقلين » ونشرتها دار التقريب في القاهرة ، ومن هذه الكتب على سبيل المثال صحيح مسلم ، وسنن الترمذي والدارمي ومسند أحمد وخصائص النسائي ، وعلى رغم الجهد الجهيد الذي بذله هذا الشيخ الباحث المنقب ، والعدد الضخم الذي أرشدنا إليه — فقد غاب عنه أكثر من مصدر ، كتعليق الشيخ عبده على الخطبة ٨٥ من خطب النهج ، وما ذكره الشيخ العبيدي مفتي الموصل في كتاب النواة بعنوان الاسلام والمسلمون ، وما جاء في مقدمة التفسير الكبير المسمى البحر المحيط لمحمد بن يوسف الاندلسي من علماء القرن السادس الهجري . . وعلى أية حال فكل الروايات تلتقي في مضمونها عند هذا النص : « اني تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي : كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » .

ويتلخص معنى الحديث بأن القرآن والآل ينوبان عن النبي من بعده في إرشاد الخلق إلى الحق ، وان كل واحد منهما هو حجة الله على عباده . . . وقول النبي (ص) : « لا يفترقان » إشارة صريحة إلى أن أهل البيت هم ترجمان القرآن ، ولسانه الناطق ، وان قولهم قوله ، وفعلهم تعبير وتفسير عن حلاله وحرامه ، وتعاليمه وأحكامه . وفي ذلك يقول الإمام زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية :

﴿ اللّهُمَّ إنّكَ أنزَلْتَ القُرْآنَ
عَلى نَبيِّكَ مُجْمَلاً ، وَأَلْهَمْتَهُ
عِلْمَ عَجائِبِهِ مُكَمَّلاً ،
وَوَرَّثْتَنا عِلْمَهُ مُفَسَّراً ﴾

وفي أصول الكافي عن أهل البيت أنهم المعنيون بالذين أوتوا العلم في هذه الآية :

﴿ بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في
صُدُورِ الّذِينَ أوتُوا العِلْمَ ﴾
٤٩ العنكبوت .

وأنهم المصطفون في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أوْرَثْنَا الكِتابَ الّذِينَ
اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنَا ﴾
٣٢ فاطر .

وحديث الثقلين تفسير وبيان لهاتين الآيتين .

حديث كتاب الله وسنتي :

جاء في بعض الأحاديث أن النبي (ص) قال : « تركت فيكم الثقلين كتاب الله وسنّتي » بدلاً من عترتي . فأي الحديثين أوثق ؟ وان كانا في الصدق سواء فما هو وجه الجمع ؟

الجواب :

إن اتباع الرسول والعمل بسنته من ضرورات الدين بالاتفاق . كما سبقت الإشارة . ومن أنكر ذلك فقد أنكر الإسلام ، وعاند القرآن الذي قال :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر ٧ .

وقال :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ٦٥ النساء .

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ ٨٠ النساء .

وإذن فلا مبرر إطلاقاً للبحث عن سند حديث « سنّي » ، والمقارنة بينه وبين سند حديث « عترتي » ثم الحكم بأن الأول أصح وأوثق كما فعل بعض شيوخ السنة ! . إذ المفروض أن مضمونه ثابت كالشمس حتى ولو سكتت السنة عنه . وهل يسوغ لعاقل أن يقول : في رأيي أن الشمس موجودة ، أو في رأيي من روى أن لها ضياء وسناء فهو صادق في روايته .

أما وجه الجمع فهو أن حديث « عترتي » تفسير وبيان لحديث سنّي بأن لسنته صلى الله عليه وآله فردين : ما يصدر عنه ، وما يصدر عن عترته وكأنه يقول : ان وجود عترتي من بعدي امتداد لوجودي بالذات من حيث

بيان الحق ، والحجة على الخلق تماماً كالقرآن الكريم ... ويؤيد ذلك قوله (ص): « أهل بيتي أمان لأمتي » . قرأت هذا الحديث في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة نقلاً عن مستدرك الصحيحين ج٣ ص ٤٥٨ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ . وأيضاً قرأته في ذخائر العقبى للمحب الطبري ص ١٧ طبعة ١٣٥٦ هـ . . بالإضافة إلى حديث أنا مدينة العلم وعلي بابها ، وحديث علي مع الحق . . . والقرآن مع علي [1] .

وفي أصول الكافي أن رجلاً سأل الإمام جعفر الصادق (ع) عن رأيه حكم من الأحكام فقال له : مه ، نحن نقول عن رسول الله (ص) لا عن رأي واجتهاد . . . وفي رواية ثانية عن أهل البيت : « إذا حدثناكم فعن رسول الله نتحدث ، أي أن حديثهم هو حديث جدهم وإن لم يسندوه إليه.

العصمة لمن ؟

ورب قائل : ان هذا الدليل يبدو سليماً من الوجهة النظرية والبرهان الجدلي ، ولكنه صعب التطبيق ، لأنه يثبت العصمة لغير الرسول ، ولا تقوى النفوس على احتماله .

الجواب :

١ — إن العبرة بالدليل لا بما تهوى الأنفس ، والمفروض أن النبي (ص) ساوى العترة بالقرآن المعصوم في حديث الثقلين ، ومعنى ذلك أنهم

---

(١) الحديث الأول موجود في مستدرك الصحيحين ، وتاريخ بغداد وكنز العمال ، والرياض النظرة ، وكنوز الحقائق ، والصواعق المحرقة ، والحديث الثاني موجود في سنن الترمذي وغيره ، والحديث الثالث موجود في المستدرك والصواعق . انظر الجزء الثاني من كتاب فضائل الخمسة للفيروز آبادي .

معصومون عن الخطأ تماماً كالقرآن ، ومن نص المعصوم على عصمته فهو كذلك . لأن العصمة لا تتجزأ ، وأيضاً نص القرآن على طهارة أهل البيت من الذنب والدنس في الآية ٣٣ من الأحزاب ، وتأتي إليها الإشارة .

٢ — إن عبد الرحمن بن عوف أبى أن يبايع علياً إلا بشرط الإقتداء بالشيخين : أبي بكر وعمر ، ولم يكتف بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فرفض علي هذا الشرط ، وقبله عثمان وصار خليفة المسلمين ، وأقر أهل السنة ذلك ورضوا به ، ولم ينكروا على عبد الرحمن ولا على عثمان ، ومعنى وجوب الإقتداء بالشيخين إثبات العصمة لهما ، وبالتالي لغير الرسول (ص) فكيف خفت على النفوس عصمة علي الذي يدور معه الحق كيفما دار ؟

٣ — قال الغزالي في المستصفى الباب الثاني في أركان الإجماع : « إذا اتفقت كلمة الأمة ولو لحظة انعقد الإجماع ، ووجبت العصمة عن الخطأ». وهذا اعتراف صريح بإثبات العصمة لغير الرسول .

٤ — نقل صاحب المنار عند تفسير الآية ١٦٥ من البقرة :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً ﴾

ان الكرخي . وهو من أئمة الأحناف . قال : « الأصل وجوب العمل بقول أبي حنيفة ، فإن وافقه نص الكتاب والسنة فذاك . وإلا وجب تأويل الكتاب والسنة على وفق قول أبي حنيفة » . ومعنى هذا أن عصمة أبي حنيفة فوق عصمة القرآن والرسول .

٥ — ذكر الدواليبي في المدخل إلى أصول الفقه نقلاً عن كتاب ابن

حنبل للشيخ أبي زهرة : ان أئمة المذاهب الأربعة وجماهير فقهاء السنة أجمعوا على الأخذ بأقوال الصحابة والاحتجاج بفتاويهم . وقال الغزالي في المستصفى ج١ ص٢٦٠ طبعة ١٣٢٢ هـ . : « ذهب قوم إلى أن مذهب الصحابي حجة مطلقاً » .

ومعلوم أن الاحتجاج بالرواية يشكل اعترافاً بعدالة الراوي أو الثقة بنقله ، أما الاحتجاج بفتوى المفتي ، أو بقول صاحب المذهب ورأيه فإنه يشكل اعترافاً لعصمته ، لأن كل من يحتج بقول آخر ويجعله دليلاً على الحق فقد أثبت له العصمة من حيث يريد أو لا يريد .

وفي أعلام الموقعين ج٤ ص١١٨ وما بعدها طبعة ١٣٧٤ هـ : « أن فتاوى الصحابة أولى أن يؤخذ بها . . . وان اختلفوا فإن كان الخلفاء الأربعة في شق فلا شك أنه الصواب ، وإن كان أكثرهم في شق فالصواب الشق الأغلب ، وان كانوا اثنين واثنين فشق أبي بكر وعمر أقرب إلى الصواب فإن اختلف أبو بكر وعمر فالصواب مع أبي بكر » . . . وأيضاً قال صاحب أعلام الموقعين : « كلما كان العهد بالرسول أقرب كان الصواب أغلب ».

وبعد ، فإن الرأي عذر لصاحبه ، ولا حجة فيه على غيره ، والرواية عن المعصوم حجة لمن وثق بها واطمأن إليها ، ما في ذلك ريب ، ولكن السنة أو بعضهم يرون أن آراء الصحابة مجتمعين ومنفردين — حجة بالغة على الناس بخاصة رأي أبي بكر ، وبصورة أخص إذا وافقه عمر . . . وأيضاً يرى السنة أن رواية الصحابي عادلة دون أن يعتمدوا في هذا وذاك على أساس وثيق سوى مجرد الصحبة . ومع ذلك نقول لهم : أنتم وما ترون . . . ولكن لماذا تستكثرون وتنكرون على الشيعة إذا احتجوا بقول أهل البيت؟

ألم تتفق المذاهب الأربعة على الأخذ بأقوال الصحابة . والاحتجاج بتفاوتهم فهل الصحبة والصحابة أقوى وأولى من الأهل والقرابة ؟ وفوق ذلك ثبت أن أهل البيت مطهرون من الرجس ، وأنهم والقرآن بمنزلة سواء في وجوب العمل والتمسك .

من هم أهل البيت ؟

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ
عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾
٣٣ الأحزاب .

قال مسلم في صحيحه باب فضائل أهل البيت : نزلت هذه الآية في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ... ومثله في مسند ابن حنبل ومستدرك الصحيحين ، والدر المنثور للسيوطي ، وكنز العمال ، وسنن الترمذي ، وتفسير الطبري ، وخصائص النسائي ، وتاريخ بغداد ، والاستيعاب والرياض النضرة . ومسند أبي داود ، وأسد الغابة ، وغير ذلك (أنظر الجزء الأول من كتاب فضائل الخمسة للفيروز آبادي الباب ١٩ و٢١ و٢٢ من المقصد الثاني) .

وقال صاحب تفسير المنار عند تفسير الآية ٨٤ من الانعام : « لقد ثبت عن رسول الله أنه قال : كل ولد آدم فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم » . ويدل هذا الحديث على سبيل القطع أن أبناء فاطمة من أهل بيت رسول الله في الصميم . وأوضح منه في الدلالة الحديث المشهور : إبناي هذان — مشيراً إلى الحسن والحسين — إماءان قاما أو قعدا (أنظر البخاري كتاب الأحكام ومسلم كتاب الإمارة وغيرهما) .

وتسأل : أجل ، ان علياً والحسن والحسين من أهل البيت ، ولكن الشيعة الاثني عشرية يعطفون عليهم تسعة آخرين ، فأين الدليل ؟ .

الجواب :

بعد التسليم بعصمة الخمسة يجب أن نسلم بعصمة من نصوا على عصمته مجتمعين أو منفردين ، لأن من نص عليه المعصوم فهو كذلك ، كما سبقت الإشارة ، ومن هنا آمن جميع المسلمين بالأنبياء السابقين لخبر المعصوم وكفى وقد ثبت عند الشيعة أن كل معصوم ، نص على من يليه . . . هذا ، إلى ما رواه البخاري في ج ٩ كتاب الأحكام عن النبي أنه قال : يكون إثنا عشر أميراً كلهم من قريش ، وما رواه مسلم في ج٢ ص ١٩١ طبعة ١٣٤٨ هـ : إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي ١٢ خليفة كلهم من قريش . ومثله في الترمذي ومستدرك الصحيحين ، ومسند أحمد ، وكنز العمال (أنظر كتاب فضائل الخمسة ج٢ ص ٢٣ وما بعدها طبعة ١٣٨٤ هـ) .

ومن مجموع ما تقدم تتضح معنا صلة الحسين بالقرآن ، وأنه فرقان يفرق به بين حلال الله وحرامه ، ويهتدي به من ظلمة الجهالة والضلالة . وكذلك سائر المعصومين ومن نصوا عليه . وأيضاً يتضح أن الفرق الأساس بين السنة والشيعة الإثني عشرية هو أن هؤلاء يقولون : ان قول أهل بيت النبي هو قول جدهم وفعله فعلهم ، وتقريره تقريرهم ، لحديث الثقلين وغيره ، ويقول السنة : لا فرق من هذه الجهة بين آل الرسول وغيرهم من المسلمين ، وما عدا ذلك من الفروق فهو تماماً كالفرق أو كالخلاف بين المذاهب الأربعة .

شهادة ايمان وايقان

الشيعة وزيارة الحسين :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ١٠٥ التوبة .

وعمل الحسين لله وللإنسان . وجاهد أعداء الحق والعدل . واستشهد في هذا السبيل ورأى عمله وفداءه الله ورسوله والمؤمنون الطيبون الذين يزورون حرمه المقدس ويخاطبونه بهذه التحية أو الشهادة :

﴿ نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ أَقَمْتَ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ ، وَأَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، حَتَّى أَتَاكَ الْيَقِينُ ﴾

وهذه الشهادة على إيجازها تحدد حقيقة الحسين (ع) تحديداً واضحاً وكاملاً على أساس عمله . وبكلام آخر على أساس القرآن ومبدئه الذي يحكم على الإنسان بما يتمثل في سلوكه من قيم .

لكل إنسان همومه ومتاعبه في هذه الحياة . ولا مفر منها لمخلوق . . . ولكنه يحاول أحياناً تخديرها والسلو عنها بقراءة صحيفة أو رواية ، أو بشرب الشاي وما أشبه ، أو بالحديث إلى صديق يتقن فن الإصغاء « يواسيه أو يسليه أو يتوجع » . أما أهل الله وأولياؤه . وهم قُلٌّ ، فإنهم يفرون من الدنيا وهمومها إلى الصلاة حيث يشعرون معها أنهم في كنف الله ورحابه منقطعين إليه وحده لا يشغلهم عنه مال ولا بنون ، ولا جاه وشؤون .

وفي الحديث : « ان النبي (ص) كان إذا حزبه أمر صلى » أي إذا اشتد به أمر . وفي ثان : « قرة عيني الصلاة » أي رأت عينه ما كانت مشوقة إليه ، واشتهر عنه : « أرحنا بها يابلال » . . . وصلاة الأولياء بنشوتها وحلاوتها هي التي عناها سبحانه في الآية ٤٥ من العنكبوت :

﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ﴾

والتي شبهها رسول الله (ص) بالنهر يغتسل منه الرجل في اليوم والليلة خمس مرات ، فلا يبقى عليه من الدرن شيء ... أما صلاتنا نحن التي نحرك بها ألسنتنا ، وتنصرف عنها قلوبنا إلى المتاع والحطام — فإنها لا تنهى عن فحش ، ولا تطهر من دنس . . . وفي الحديث : « من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وصلاة الإمام الحسين تماماً كالحسين طيبة زاكية ، لا شيء فيها إلا التجريد والتوحيد ، وإلا الشوق والإقبال ، ومشهد واحد من مشاهد الإمام الحسين ندرك منه مكان الصلاة وعظمتها في نفسه . . ويوم كربلاء حان أوانها ، وهو في

قلب المعركة تحيط به السيوف والرماح والسهام من جميع جوانبه ، والعطش يلح عليه ، وبكاء النساء وعويل الأطفال يصم أذنيه ... ورغم هذا ذهل عن كل شيء وشمر للصلاة بشغف ووقار ، كأنه في بيت الله الحرام يؤم الحجيج.. وهكذا يفر إلى الله والتعبد له من كل هم وغم – من توكل على الله ، ووثق به ، وفي حديث قدسي : « أنا عند ظن عبدي بي . »

الزكاة

كان الإمام الحسين (ع) ينظر إلى الدنيا نظرة من يعطي لا من يأخذ ومن يضحي ويؤثر لا من يمسك ويحتكر . . . وكان ينشد ويردد قول من قال :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها
على الناس طرا قبل أن تتفلت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت
ولا البخل يبقيها إذا ما تولت

هذا هو مبدأ العطاء والسخاء .

ومن شاء أن يقرأ عن سخاء الحسين وكرمه – أحيله على الجزء الرابع من أعيان الشيعة وغيره من كتب السير والفضائل . . . وأكتفي هنا بحادثة جمعت العديد من أخلاق القرآن ، كالعفو عن حلم ، والصبر عن إيمان ، والتأديب بالنظرة واللمحة ، والفضل على المعادي والموالي . . . وقد غابت هذه الحادثة عن كثير من الباحثين والجامعين ، واكتشفها الشيخ عباس القمي ، وسجلها في سفينة البحار مادة « خ . ل . ق . » . وهذا نصها بالحرف :

« قال عصام بن المصطلق : دخلت المدينة فرأيت الحسين بن علي ، فأعجبني سمته ورواؤه ، وأثار من حسدي ما كنت أخفيه في صدري لأبيه من بغض ، فقلت له : أنت ابن أبي تراب ؟ فقال : نعم . فبالغت في شتمه وشتم أبيه ، فنظر إلي نظرة عاطف رؤوف ، ثم قال :

﴿ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.
﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾
الاعراف ١٩٩ — ٢٠٣ .

« ثم قال لي : خفض عليك استغفر الله لي ولك ، انك لو استعنتنا لأعناك ولو استرفدتنا لأرفدناك ، ولو استرشدتنا لأرشدناك . . . قال عصام : فتوسم مني الندم لما فرط فقال :

﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يوسف ٩٢ .

أمن أهل الشام أنت ؟ قلت : نعم . فقال : شنشنة أعرفها من أخزم ، حيانا الله وإياك ، أبسط إلينا في حوائجك ، وما يعرض لك تجدني عند أفضل ظنك إن شاء الله . قال عصام : فضاقت علي الأرض بما رحبت وودت لو ساخت بي ، ثم سللت منه لوذاً ، وما على الأرض أحب لي منه ومن أبيه » .

لكل إنسان حريته وآراؤه يعلنها متى شاء ، ولا تقع تحت طائل العقوبة في دار الدنيا سياسية كانت أو دينية ما دامت في إطار المبادىء الأساسية ، وفي حدود الأدب ، والنقاش المهذب ولا خير فيها على الآخرين . . . ومع علمي بأن الشامي قد تجاوز الحد ، ونطق بما يهتز له العرش — فإني ألتمس له بعض العذر ، لأن الإثم على من جرأه وضلله ، وبدد شمل المسلمين ، وفرقهم شيعاً . وسن شتم آل الرسول (ص) في الصلاة وعلى المنابر بدل الصلاة عليهم ، وجعل ذلك نظاماً وأساساً لحكمه وسلطانه وديناً لرعيته . ونهجاً لمن حكم بعده .

ومن أجل هذا وغير هذا رأينا الإمام صاحب الخلق القرآني الكريم — يقدم للشامي غصن الزيتون ، ويفهمه باللمحة —مع الصفاء والرحلة — إنه قد شتم القرآن الناطق ، وانه جاهل مخدوع . . . ثم عرض عليه رفده ومعونته . . . فاتضحت الرؤية أمام الشامي ، وأفاق من كبوته ، ووجد نفسه في مأزق لا مناص منه إلا بالفرار فلاذ به وبالولاء لعلي وأبناء علي (ع) .

وأحسب أن القارىء اللبيب قد تنبه وأدرك ان الإمام (ع) سلك مع هذا الشامي سبيل القرآن ، والتزم بآدابه وآياته ، منها :

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾
١٢٠ آل عمران .

ومنها :

﴿ وَأَنْ تَعفُو أقْرَبُ لِلتقْوَى ﴾
٢٣٧ البقرة .

ومنها :

﴿ إدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ فَإذَا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ٣٤ فصلت .

إلى غير هذه من الآيات ، ومنها التي تلاها واستشهد بها الإمام عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات .

الأمر بالمعروف :

ليس الأمر بالمعروف حرفة أو هواية ، ولا كلام وكفى ،وإنما هو غرس وزرع من شأنه أن يزهر ويثمر في العاجل أو الآجل، والزراعة علم له أصول وقواعد،وكذلك الأمر بالمعروف له ظروف وشروط تتعلق بالآمر والمأمور، وأهمها أن يعرف الآمر هوية من يأمره ويرشده ، ولون حياته وميوله ونزعاته ثم يدخل إلى نفسه من هذا الباب ، ولكن ماذا يصنع الحكيم الناصح مع الفاجر الغريق في اللهو والفساد « كيزيد بن معاوية الذي كان ينكح الأمهات

والبنات والأخوات ، ويشرب الخمر ويدع الصلاة » كما شهد بذلك الصحابي الأنصاري عبدالله بن حنظلة [1] . أبداً لا دواء لهذا إلا السيف .

نهض الحسين للأمر بالمعروف ، وجو العالم الإسلامي يسوده اليأس من التغيير والإصلاح . . . ومع هذا ابتدأ الإمام من الكلمة كمرحلة أولى وتعبيراً عن النوايا ، وإتماماً للحجة . . . عسى ولعل . . . وانتهى بتصعيد الضغط على السلطة الجائرة الطاغية حتى حصرها بين فرضين لا ثالث لهما أما السير بالأمة على طريق العدل : لا ظالم ولا مظلوم ، وأما التضحية بحياته، وحياة أهله وأطفاله ، وصحبه وعشيرته ، كما أشار في قوله :

﴿ لا أرَى المَوْتَ إلاَّ سَعَادَةً ،
والحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إلاَّ بَرَماً ﴾

قال هذا لأنه يعلم أن القوة بينه وبين عدوه غير متوازنة ، وأيضاً يعلم أن دمه لن يذهب هدراً، وان من أولى ثماره ونتائجه تقويض دولة البغي ، وتحطيم أركانها وأعوانها .

خير الحسين (ع) يزيد بين الهداية والضلالة ، وبديهي أن يرفض يزيد الهدى والخير ، ويختار الشر والضلال ، وهو يظن أنه في مأمن من العواقب والنوائب... ولكن الدنيا لفظت يزيداً وكل أموي بعد ثورة الإمام ومصرعه... والدرس الذي ننتفع به من هذه العبرة هو أن كل من طاقت همته إلى شيء وصل إليه بشرط الحسين وتضحياته . وقديماً قيل: « لو تعلقت همة بني آدم بالقمر لنالته ». ومع الأيام ومواصلة الجهود تحققت بالفعل هذه النبوءة .

---

(١) استشهد أبوه حنظلة بأحد، وقال النبي (ص) : غسلته الملائكة . واستشهد عبد الله بن حنظلة بوقعة الحرة وهو وبنوه الثمانية سنة ٦٣ هـ. وكان يقول : والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء .

وكان يخيل إلي من قبل أن الإمام الحسين (ع) معجزة وفريد في الإيثار والتضحية ، وأن يزيد لا نظير له إطلاقاً في الإنحطاط والخسة . . . حتى قرأت وسمعت ، وعاصرت حروباً وثورات فآمنت وأيقنت أن في كل عصر ألف يزيد ويزيد ؛ [1] وان الإمام الحسين إن هو إلا شاهد ودليل على أن المرء متى صدقت عزيمته ، ورسخت عقيدته — لا يقف في طريقه أي حاجز ؛ وأنه يضحي بنفسه وبكل قريب وحبيب في سبيل إيمانه والذود عنه . . . أبداً كل الشهداء من أجل الوطن والحرية هم شهداء المبدأ والعقيدة .

طاعة الله والرسول :

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ ٦٥ النساء .

وتكون إطاعة الله ورسوله بالعبادة ركوعاً وسجوداً ، وبالصدق والإخلاص قولاً وعملاً وبإغاثة ملهوف ومحروم ، وبالصلاح والإصلاح... وغير ذلك .

(١) في سنة ١٩٧٠ نشرت الصحف العالمية أن القوات الأمركية طوقت في فيتنام قرية «سونجي» وقتلت جميع سكانها رمياً بالرصاص ولم تبق طفلا ولا امرأة ولا شيخاً أو عاجزاً ، ولم يكن فيها أي مقاتل ، وفي ٧٣ نشرت الصحف أن القوات البرتغالية كانت تبقر بطون الحبالى في «موزنبيق كيلا يلدن مخربين جداً ، ويجمعون النساء والأطفال والشيوخ ويحرقونهم أحياء باسم الدفاع عن الحضارة الأوربية ! . . وأي فرق بين هذه الفظائع وفظائع وقعة الحرة ؟ .

وأقصى درجات الإطاعة لله ورسول الله الإستشهاد لتحرير المستضعفين من الاستغلال والعبودية ، والحسين أمام الصدقين . ومنار الصالحين ، وسيد الشهداء بلا استثناء ، فلقد استشهد لإعلاء كلمة العدل والحرية ضد البغي والعبودية ، ومن أجل المساكين والفقراء ضد الطغاة الأقوياء . وبكلمة ثار واستشهد كيلا تنتصر الرذيلة على الفضيلة ، والظلم على العدل . وإذا لم يكن الحسين من البنين فهو ريحانة خاتم النبوة ، وامتداد له في شمائله وفضائله ، كما يومىء حديث : « حسين مني ، وأنا من حسين » . وحديث : « الحسن والحسين ريحانتاي في الدنيا » .

وبعد ، فما من موقف من مواقف الإمام الحسين ، أو شيء من سيرته وسلوكه إلا ونجد له في القرآن الكريم شاهداً أو أكثر ، وهذا يؤيد ويؤكد قوة الصلة والعلاقة بين كتاب الله وأهل بيت نبيه ، وأنهما التوأمان الخليفتان عن رسول الله لا يفترق أحدهما عن الآخر حتى يردا عليه الحوض ، كما في حديث الثقلين .

طاعة الله الدافع والأساس للمقاومة والمسألة عند أهل البيت

﴿ فعل أخي بأمر الله ، وأنا أفعل بأمر الله ﴾

الإمام الحسين (ع)

الخُلق العظيم :

قال سبحانه مخاطباً نبيه ونجيه (ص) :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
٤ القلم .

والخلق العظيم هو خلق القرآن ، وفي حديث الرسول (ص) : ادبني ربي تأديبي . ونفهم من هذا أن الانسان – في الغالب – مسير بعادات قومه . وتقاليد مجتمعه . واخلاق آبائه وأجداده التي لا يُشترط فيها أن تتفق مع الوحي او العقل . اما عادات الرسول الأعظم وتصرفاته فانها تلتحم وتنسجم كل الانسجام مع القرآن وآدابه ومن هنا خاطبه سبحانه بقوله :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾
١١٢ هود .

ثم شهد له وقال :

﴿ إنّكَ عَلى صِراطٍ مُستَقيمٍ ﴾
٤٤ الزخرف .

وأوضح مثال للانسجام مع الوحي والتخلق باخلاق القرآن — الحادثة التالية :

كانت جارية للامام زين العابدين (ع) تسكب الماء ليتهيأ للوضوء فسقط الابريق على وجهه وسال الدم ، ولما رفع رأسه إليها قالت : ان الله يقول : والكاظمين الغيظ . قال : كظمت غيظي . قالت : أيضاً يقول : والعافين عن الناس . قال : عفا الله عنك . قالت : والله يحب المحسنين . قال : انت حرة لوجه الله . . وهذه الخلال الثلاث جمعتها الآية ١٣٤ من آل عمران .

لا يُدرك الخير إلاّ بالجد :

أبداً . . لا جبر ولا اكراه في دين الله ، ولكن فيه حرج ومشقة ، بل وقتل وقتال كبير في سبيل ما هو أغلى من الروح وأثمن ، ولا وزن للروح بلا حرية وكرامة . . اجل ، ان الله سبحانه لا يكلف أحداً ما لا يملك ، ولكن من الذي لا يملك نفسه وبيعها للرحمن او الشيطان ؟ . . ومن هنا عرض سبحانه على من آمن به أن يشتري منهم الأنفس بالجنة خالدين فيها ، كما في الآية ١١١ من التوبة :

﴿ إنَّ اللهَ اشتَرَى مِنَ المؤمِنينَ
أنفُسَهُمْ وَأموَالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ
الجنّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ

فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ
حَقّاً في التَوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ
وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾

اما الآيات التي تومىء إلى اليسر والرحمة ، ونفي العسر والحرج في دين الله وشريعته – فان مكانها واطارها العبادات والمعاملات ، وما إلى ذلك مما يعود إلى نظام الحياة الاجتماعية . ولا صلة لها إطلاقاً بما يلقاه المناضلون ضد البغي وأهله ، والشر وفاعله . قال سبحانه :

﴿ وقَاتِلُوهُمْ حَتَى لا تَكُونَ
فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّين كُلّه لله فَإِنْ
انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴾ ٣٩ الانفال .

﴿ وجَاهِدُوا في الله حَقَّ
جِهَادِهِ ﴾ ٧٨ الحج .

وهل بعد هذا يسوغ لساكت عن الحق ان يبرر تجاهله او تحايله بآية لا حرج ، ورواية لا ضرر ؟ .

والخلاصة أن الآيات القرآنية منها ما نزلت لتحديد الواجبات الخاصة كالصوم والصلاة ، او لتحديد المحرمات كأكل الميتة وشرب النجس . . وهذه تقوم ، ولا شك ، على أساس اليسر الذي لا يشوبه عسر . ومنها تأمر وتحث على الجهاد في سبيل المثل الأعلى ، وهذه لا ترحم وترفق على الاطلاق ، وتوصي بتحمل الاذى والصبر على الآلام :

﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾
٢٥ النساء .

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾
١٢ ابراهيم .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾
١٨ لقمان .

وهناك آيات أوضح كقوله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ٩ الحشر .

وكلما كان البذل وتحمل الجهد أكثر تضاعف الثواب :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ
ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللهِ... وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً
يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ
عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ
عَمَلٌ صَالِحٌ . إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنْفِقُونَ
نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ

لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٢٠ التوبة .

نزلت هذه الآية في الصحابة الذين طلبوا مرافقة الانبياء، ودفعوا انفسهم لها ثمناً . وفيما يلي نذكر أمثلة من مواقفهم التي أثنى الله عليها ورسوله .

الإيمان أولاً :

للإيمان رسول وتعاريف ، منها انه معرفة بالجنان ، واقرار باللسان ، وعمل بالأركان . وقال الامام جعفر الصادق (ع) : الإيمان عمله كله ، ولا ايمان بلا عمل ، وليس من شك ان الإيمان مكانه القلب ، وانه ملكة من ملكات النفس ، ولكنه لا يتم ويستقيم الا مع قوة الإصرار على العمل بموجبه حتى ولو كان العمل قطع الرؤوس ، وبقر البطون .

قال عبد الله بن جحش في وقعة أحد : اللهم اني اقسم عليك أن ألقى الأعداء غداً فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي واذني ، ثم تسألني فيمَ تمَ ذلك ؟ . فأقول : فيك .

وليس هذا مجرد أمنية . . كلا ، انه صرخة الإيمان ، ولهفة الولهان إلى رضوان الله ومغفرته .

وكان عمرو بن الجموح أعرج ، وله اربعة بنين يحاربون مع رسول الله (ص) واراد أن يجاهد بين يدي الرسول ، فمنعه بنوه وقالوا : ان الله سبحانه قد وضع عنك الجهاد . . ولكنه أصر ، وأصروا بدورهم . . فشكاهم إلى رسول الله فقال له : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . فقال عمرو : والله اني لأرجو الشهادة ، وان أطأ بعرجتي هذه الجنة فلا تحرمني منها يا رسول

الله . . ابداً لا بد أن أدخلها . ولما رأى النبي (ص) حرقته ولهفته أغاثه ، وقال لبنيه : ما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة . فانتشى عمرو بفرحة البشرى ، وجاهد حتى استشهد .

قال سبحانه :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ النور ٦١ .

رفقاً بعباده الضعفاء ، ورفض عمرو أن يستريح إلى عرجته، وأن يكون له عذراً وحجة ، وأبى الا القتل عن اصرار وعمد ، وأقره النبي (ص) على ذلك [١] وبارك شهادته . . وكل ما بين هذا الأعرج الجموح ، وبين الذين ينتسبون إلى الله ويتوقون إلى جنته ، كما يتوهمون ، ثم يتملصون من كل واجب ديني وانساني متعالين بالأعذار الكاذبة الخاوية .

وفي السيرة العطرة العديد من هذه المواقف ، وكل واحد منها يدمغ الانهزاميين ، ويفضح المضللين .

الشهادة بأكمل صورها :

كل من قاتل وقُتل بين يدي رسول الله (ص) وبأمر منه فهو في عداد المدافعين عن الاسلام والمستشهدين من أجله . ما في ذلك ريب وخلاف . . ولكن هل كان خروج الامام الحسين ومن قتل معه أيضاً دفاعاً عن الاسلام ؟ وقبل أن نبحث عن جواب هذا السؤال نتساءل : هل كان خروج الامام بأمر

(١) يدل هذا على أن نفي الحرج رخصة لا عزيمة .

من الله ورسوله ؟ ؟ فان كان الجواب «نعم » كان قتلى كربلاء بكاملهم شهداء الاسلام ودين القرآن . . والا كان شأنهم شأن من ألقى بنفسه إلى التهلكة .

ونجيب هذا السؤال بما يلي :

١ — وعلى وجه العموم قد تعددت الآيات القرآنية ، وتواترت الأحاديث النبوية حتى ثبت بضرورة الدين واجماع المسلمين أن الجهاد ضد البغي والفساد في الأرض حتم لا مفر منه ، لأنه الرافد الأول الذي يحيا به الاسلام ، وينمو الإيمان ، ويستتب الأمن والنظام ، ويصان الحق والعدل ، والحرية والكرامة . . وكل هذه المبادىء هي الهدف الأول من نهضة الحسين . . والتاريخ يتكلم ، وهو خير الشاهدين . ومعنى هذا أن الامام الحسين خرج واستشهد بأمر من الله ورسوله .

٢ — ذكر الفيروز آبادي في الجزء الثالث من فضائل الخمسة : أن ابن الأثير في أسد الغابة ، وابن حجر في الاصابة ، والمتقي في كنز العمال ، والمحب الطبري في الذخائر ، كل هؤلاء قالوا : ان انس بن الحرث روى عن أبيه الصحابي أن رسول الله (ص) قال : « ان ابني الحسين يقتل بارض العراق فمن ادركه فلينصره » . ومن أجل هذا الحديث الشريف جاهد انس بن الحارث مع الحسين حتى استشهد . وبديهي أن الأمر بنصرة الحسين هو أمر بكل ما صنع ، وان من تخلف عن نصرته فقد حادّ الله ورسوله :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ
يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ﴾ ٦٣ التوبة .

٣ — في الجزء الرابع من اعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ص ٢٢٨ طبعة ١٣٦٧ هـ : ان الحسين حين التقى بالحر واصحابه قال : « ان رسول الله قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، ويعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير بقول أو بفعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله » أي ان يعامله معاملة الجائر الآثم.. فهل يروي الامام الحسين هذا عن جده ولا يعمل به ؟ .

٤ — تدلنا أقوال الحسين ومواقفه دلالة قاطعة أنه كان يرى ويعتقد أن الله سبحانه قد كتب عليه الخروج بنفسه وعياله وأطفاله ، وأوجب عليه القتال أياً كانت النتائج وتكون ، وانه لو سكت وأهمل عصى الرحمن وخالف القرآن . . ومن هذه الدلائل والمواقف ما ذكره الشيخ المفيد في الارشاد ص ٢٠٦ طبعة ١٣٧٧ : « ان شيخاً من بني عكرمة يقال له عمرو بن لوذان قال للامام : انشدك الله لما انصرفت ، فوالله ما تقدم الا على الأسنة وحد السيوف . . فقال له الامام : ليس يخفي عليّ الرأي ، وان الله يغلب على أمره فوالله لايدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي » .

ومعنى قول الامام : « لا يخفى عليّ الرأي » أنه على علم اليقين بأنه مقتول لا محالة ، وهذا صريح وواضح من قوله : فوالله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي » . ولكن ماذا يصنع وأمر الله لا يغلبه عليه غالب ؟ . . وسواء أكان الامر هنا للتشريع أم للتكوين فهو حتم بالنسبة إلى الامام فكيف يعانده ويخالفه .

هذا ، إلى ان الأخبار تواترت على الامام — وهو في طريقه إلى العراق — بأن سيوف الناس عليه ، وان كانت قلوبهم معه ، وان السلطة قتلت رسوله الأول ابن عمه مسلم ، والثاني عبد الله بن بقطر ، والثالث قيس بن مسهر

الصيداوي ، وبدلاً من ان يتراجع مضى إلى العراق ؛ وقال لمن معه بعد اليأس : « قد خذلنا شيعتنا فمن أحب الانصراف فلينصرف . » فتفرقوا الا الصفوة . . كل هذا وغير هذا يدل بالقطع على أن الامام كان يؤمن ويوقن بأنه يسير بأمر من الله ورسوله . ومحال أن يحيد أهل البيت عن سبيل مرضاته تعالى ، وكم أعلن الحسين وكرر في كربلاء رضا الله رضانا أهل البيت ، أما قوله :

« ان كنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم » فهو لالقاء الحجة وكفى ، ومثله الاحتجاج عليهم بقوله : « ما اتيتكم حتى اتتني كتبكم » ويؤيد ذلك أن الذين رغبوه في المهادنة أكثر ممن طلب منه الخروج وإعلان الثورة .

خلاف لا جدوى منه :

اختلف ثلة من شيوخ ايران المعاصرين في ان الامام الحسين : هل كان يعلم بانه سيقتل لا محالة ، او غاب ذلك عن علمه ؟ . ولا جدوى أو أثر ديني او دنيوي لهذا الخلاف ، لأن المفروض أن الامام — كما أشرنا — ما نهض وجاهد الا بعد علمه ويقينه بأن الله قد فرض عليه ذلك ، ومعنى هذا أنه لا مفر له من الجهاد حتى ولو علم بكل ما جرى وحدث . . وهل من عالم بحقيقة الحسين يظن أو يتصور ان الحسين يحجم عن التضحية بنفسه وأهله مع علمه ويقينه بان هذه التضحية فريضة واجبة ، وجنة واقية من غضب الله ومعصيته؟.

وقد مرّ معنا في فقرة الايمان أولاً أن الله سبحانه وضع الجهاد عن عمرو ابن الجموح لعرجته ، فأبى الا الاستشهاد مقبلاً عليه . بشوق وشغف.. فهل عصى ابن الجموح ربه فغوى ؟ كيف وقد بارك رسول الله (ص) شهادته وأريحيته ؟ . وهل ابن الجموح لربه اسمع وأطوع من الحسين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ وأنّى تصرفون ؟ .

والخلاصة ان السبب الأول لنهضة الحسين هو علمه ويقينه بأنه مأمور بذلك من رب العالمين فاستمع وصدع ، وقال : رضا الله رضانا اهل البيت . كما سبقت الاشارة . وما عدا ذلك مما قيل في فلسفة النهضة الحسينية فهو شرح وبيان لعظمتها . وان بها وبامثالها من الثورات والانتفاضات يُطاع الله والحق ، ويعم الخير ، ويحسم الشر . . وفيما يلي تلخيص كامل لما قيل قديماً وحديثاً الثورة الحسينية .

فلسفة الثورة الحسينية :

فرض يزيد على الناس ، وانتصر الباطل في أفظع صورة ، واستشرى الظلم والفساد حتى فقدت البشرية احساسها ، وخُيل إليها أن الخير والقيم أوهام . . وتجاوزت المسألة الصراع بين سلطة ظالمة ، وفئة مظلومة إلى الصراع بين الحق والباطل ، وبين الفضيلة والرذيلة ؛ لأن وباء السلطة كان ينخر في صميم الكيان البشري حتى أوشك أن يؤدي بها إلى الفناء .

وهنا عزم الحسين على الثورة بدافع لا يملك معه التراجع حتى ولو أراد .. فمضى وليس معه الا العيال والصفوة من الأصحاب ، وهو يعلم ان جيش العدو سيعترض سبيله وتكون النهاية ، ولكن ماذا يصنع ! وطبيعة الأوضاع تحتم عليه أن يقدم فدية ضخمة يهتز لها ضمير العالم كله . . وما من أحد على وجه الأرض يملك هذه الفدية الكبرى الا الحسين ، فوهبها عن رضًى لله وللانسانية ، وهو يقول بلسان المقال أو الحال :

إنْ كَانَ دِينُ مُحَمَّدٍ لَمْ يَسْتَقِمْ
إلاَّ بِقَتْلِي يَا سُيُوفُ خُذِينِي

وكلمة « لم يستقم » تشير إلى أن مصرع الحسين أحيا نفوس أمة محمد بعد أن أماتها الأمويون بالإرهاب والرشوة ، وأنها انتقمت منهم لحريتها وكرامتها وصاحت : يا لثارات الحسين . . وهي تعني بكلمة الحسين دين محمد والانسانية . . وكانت هذه الأصوات قبل مصرع الحسين تردد ألف مرة قبل ان تتفوه بحرف واحد ضد السلطة الباغية . . ثم أصبحت ثورة الحسين مع الايام النهج الواضح لخلاص المحرومين والمعذبين ، والرافد لصمود كل مناضل ومجاهد .

وبهذا يتبين معنا أن ثورة الامام الحسين تختلف عن سائر الثورات ، لأن كل ثورة لا تتغلب على القوي المعاند الا إذا استكملت العدة والعدد ، ما عدا ثورة الحسين فقد كانت نفسه هي القوة والعدد والعدة ، وبها وحدها تغلب على الطغاة المعتدين .. أجل ، تسوغ المقارنة بين ثورة الحسين ، والفداء عند المسيحيين حيث قالوا : ان السيد المسيح قدم نفسه للصلب وتحمل الآلام ليخلص العالم من الخطيئة مع الفارق بان الحسين ضحى بنفسه ليخلص الإنسانية من ظلم وعدوان المعتدين .

كربلاء وثارات بدر وأحُد :

أما الكاتب المصري الشهير الاستاذ عبدالكريم الخطيب — فيرى أن الدافع الأول على قتل الامام الحسين وأهله هو أن قريشاً أرادت أن تثأر لقتلاها في بدر واحد من عترة النبي (ص) قال في كتاب علي بن أبي طالب ص١٤٥ وما بعدها طبعة ١٩٦٧ ما نصه بالحرف الواحد :

« لو أن بطولة علي كانت موضع شك ، أو كان انفراده بها موضع منازعة لما سار الحديث بها مسير المثل ، فكان مما قيل فيه وفي سيفه : لا سيف

الا ذو الفقار ولافارس الا علي . . ان علياً كان أكثر المسلمين شدة على مشركي قريش ، واكثرهم تنكيلاً بهم ؛ وافجاعاً لهم في الأبناء والآباء والاعمام والأخوال » .

والذي نريده من هذا هو أن نذكر تلك الترات . وهذه الإحن التي وقعت في القلوب وغمزت النفوس في المعارك التي وقعت بين المسلمين ومشركي قريش ، وما وقع فيها من صرعى . . وأن نذكر أن تلك الإحن وهذه النزوات قد صادفت من قريش قلباً خالياً من الإيمان بالله فتمكن الحزن منها ، واستمرت الحسرة فيها على حين أن ما أصاب المسلمين في أنفسهم وفي أهليهم لم يكن ليجد له مقاماً في نفوس آمنت بالله ، وآثرت الموت على الحياة ؛ وطلبت الشهادة وتعجيلها في سبيل الله .

هذه الإحن وتلك الترات التي وقعت في نفوس قريش المشركة قد ظلت حية فيها بعد أن دخلت في الاسلام هذا الدخول العام الذي كان عن قهر أكثر منه عن نظر واقتناع .

وسنرى آثار ذلك وشواهده حين يمتحن المسلمون بتلك الفتن التي أطلت برؤوسها بعد وفاة النبي ، وحين تقف قريش في وجه بني هاشم وحين تذودهم عن الخلافة ، ثم تنالهم بسيوفها ، فتقتل شيبها وشبانها وصبيانها ، وتشرد بعقلائها واحرارها ، وكأنها إنما تثأر بهذا لقتلاها في بدر واحد ؛ وحسبنا أن نذكر هنا مصرع الحسين وآل بيته في كربلاء ، ثم مصرع آل البيت في موقعة الطف ؛ وما تلا ذلك من وقائع ! . » .

ولو قال هذا كاتب شيعي لقامت الدنيا ولم تقعد مع ان له أصلاً أصيلاً في كتاب الله وسنة نبيه . قال سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ١٤٤ آل عمران .

وقال البخاري في صحيحه ج ٩ كتاب الفتن : « ان رسول الله يقول يوم القيامة : أي ربي اصحابي . فيقول له : لا تدري ما أحدثوا بعدك . فيقول النبي (ص) : سحقا سحقاً لمن بدل بعدي » . . ومن الأحداث التي عادت على الاسلام والمسلمين بالنكبات والكوارث – تولية معاوية على الشام التي تمخضت عن أفدح السيئات ، ومنها خلافة يزيد .

حرم الامام الحسين
هدى وذكرى للعالمين

العادة والتفكير :

قيل : ان العادة كالعاطفة تعمي العقل عن الواقع ، وتصده عن التفكير . . ولكن قد تكون العادة نفس التفكير والبحث الدائب ، والدراسة من غير توقف . ذلك هو ديني وديدني ، ولولاه ما كتبت وانتجت . . وامس تصفحت — على عادتي في كل يوم — الجرائد والمجلات فرأيت مقالاً مطولاً في مجلة الطليعة المصرية عدد حزيران ١٩٧٤ لأديب — أظنه مصرياً — قضى أياماً في العراق مع الأدباء وأهل الفن . وزار العتبات المقدسة ، وتحدث في مقاله الطويل عما رأى وسمع .

والفصل الذي انا الآن بصدده هو وعنوانه من وحي ما كتب هذا الأديب . ومن فقرة « طابور الشهداء » انقل للقارىء ما احسه الكاتب من نفسه . وتصوره في خياله ، وهو يشاهد قباب الوحي ومنائره .

جمهور الشيعة :

لحياة الإمام الحسين (ع) صور وجهات تماماً كالحقيقة تحتوي العديد

من المباديء والآراء والمعتقدات . . ولكن جمهور الشيعة ينظرون إلى الإمام الحسين نظرة جزئية ، ومن زاوية خاصة هي أنه سبط الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة ، وأن أمية أوغلت في البغي ، وتسابقت إلى الفتك به وبأهله تماماً كالوحوش المفترسة الضارية تتسابق إلى فريستها . . ومن هنا قرأنا لشعراء الشيعة القصائد النائحة الباكية على الحسين ، ونعته علماؤهم بقتيل العبرات ، وأسير الكربات ، ووضع بعضهم فيه وفي سائر أهل البيت كتاباً ضخماً سماه الدمعة الساكبة .

والكثرة الكاثرة من خطباء المنبر الحسيني يهتمون ببلوى اهل البيت ومحنهم ولا يهتمون وربما لا يفطنون إلى أسبابها والعبرة فيها والعظة او يفطنون ، ولكن العجز يقطع عتب العاتب .

وقد يكون هذا من تقليد الخلف للسلف ، والتقليد – كما هو معلوم – الداء العياء . . . وعلى أية حال فقد كان للشيعة الأوائل عذرهم في الوقوف عند النياحة واشاعة كل ما حل بأهل البيت وكفى حيث كان من قصدهم الدعاية ضد الأمويين ، بل والعباسيين أيضاً وتهديدهم – ولو بالاشارة والايماء – بأن عاقبتهم لن تكون خيراً من عاقبة الذين من قبلهم .

واليوم لا أمية ولا عباسية . بل نضال ضد التخلف والجمود ، وضد العنصرية والصهيونية والاستعمار والاستغلال ولا شيء اكثر خصباً واشراقاً في هذا الميدان من حياة الحسين . فهل من باس لو جمع الخطيب الحسيني بين محنة الطف ودوافع البطل الثوري واهدافه الواعية النافعة ؟ .

لو لم يستشهد الحسين مات قهراً :

وأيضاً غير الشيعة من أرباب الأقلام نظروا إلى الامام الحسين من جانب واحد ، ونظرة جزئية ولكنها عظيمة ومهمة ، وهي جرأته وجوده بنفسه وأهله وصحبه لخدمة الانسان وضد اعداء العدل والحرية . قال الاستاذ أحمد عباس صالح في كتاب اليمين واليسار في الاسلام — ما لفظه أو معناه : كان الحسين يملك مزاجاً ثورياً عجيباً يدفعه إلى الثورة ضد الفساد في الأرض ولا يبالي بالخطر الماحق . . ولو لم يطلب الناس منه الخروج لمحاربة يزيد لكان قد خرج أيضاً أو مات قهراً . . ثم تساءل الكاتب وقال : لا أدري لماذا يؤثر البطل الثوري القتل وحجرات التعذيب على التراجع والسلامة في اللحظات الحاسمة ؟ .

ونجد الجواب عن هذا التساؤل في قول الامام الحسين : « لا أرى الموت الا سعادة ، والحياة مع الظالمين الابرما » . ومن قبل قال ابوه أمير المؤمنين لأصحابه : « الموت في حياتكم مقهورين ، والحياة في موتكم قاهرين . . ان أكرم الموت القتل ، والذي نفس ابن أبي طالب في يده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش في غير طاعة الله » .

طابور الشهداء :

سبقت الاشارة إلى أن هذا الفصل من وحي المقال المنشور في مجلة الطليعة حزيران ١٩٧٤ . . وكاتبه الاستاذ فاروق عبد القادر ، وعنوانه « أصوات وألوان » ويهمنا منه الجزء التالي :

« ملأتُ عيني بزيارة العتبات . . رأيت الكاظمية والكوفة والنجف

وسامراء : قباب ومآذن الذهب ، ملايين المرايا الصغيرة ، والنقوش الزاهية ، والزخارف الرائعة تجسد شوق الانسان إلى البطولة والفداء . . وفي باحة الكاظمية لافتات تمنع دخول السافرات وتلعنهن . . ورأيت رجلاً يلبس السواد يروي مشاهد من استشهاد الحسين ، والنساء من حوله كومة سواد ، تنشج وتُعوِل حزناً على الشهيد » .

« وفي مسجد الكوفة ضريح لمسلم بن عقيل ، وآخر لا يقل عنه روعة وفخامة لهاني بن عروة . . ومس قلبي أن نجد الشخصيات الثانوية – أي بالنسبة إلى الحسين – مكانها اللائق . . وفي هذا المسجد تدهمك صورة التاريخ . . كأنك ترى حيدرة اسد الله الغالب يهوي صريعاً إلى جانب منبره ، وكأن الكلمة التي فاه بها « فزت ورب الكعبة » قد جسّدتها الريح ، وكأنك ترى مسلماً يدور لائباً في أزقة الكوفة جريحاً مطارداً ، وأغلقت البيوت دونه ابوابها ، والآذان صم فلا تسمعه ، والإرهاب الأموي يحيط بكل شيء ، وكأنك ترى والي الكوفة يقبض عليه ويضرب عنقه ، ولا يكتفي ، بل يلقي الجثة من فوق القصر تخويفاً ونذيراً » .

« وفي كربلاء بالقرب من ضريح الحسين ضريح لايقل عنه روعة وفخامة لأخيه العباس الفارس الجميل ، قطعت يداه وساقاه ، ورشقت عيناه بالسهام ، وهو لا يفلت الراية ، الصاحب ابن البدوية قمر بني هاشم ابن أبي طالب . . تتخيل ، وانت في كربلاء طابور الشهداء منذ تاريخهم الأول إلى يومهم هذا . تتخيله غارقاً بالدم والتعذيب كي يقيم الحجة على الكسالى والخاملين ، ويلعن المساومين ، وباعة الدم المسفوك » .

« قبر الحسين محجة ومزار ، وقبر معاوية في الصمت البارد لا أحد يعرفه

الا إذا دلّ عليه ، وتحت اقدام علي تستلقي ثروات العالم . . تاج الشاه المرصع بالدر والجوهر ، وثروات الاغنياء . . وعلى من وقف عند منعطف الطريق ان يختار أين يكون » .

هذا الكاتب :

وهذا الكاتب ليس شيعياً ، ولا نشأ وترعرع في بيئة التشيع ، ولا حضر في صباه مجالس التعزية . واستمع إلى خطباء المنبر الحسيني ، وبالتالي لا يصدق عليه قول القائل :

لا عَذَّبَ اللهُ أمّي إنّهَا شَرِبَتْ   حُبَّ الوَصِيِّ وَغَذَّتْنيه بِاللَّبَنِ

ولكنه انسان يعي ويدرك ، ويحس ويشعر ، وقد شهد لأول مرة كربلاء ارض التضحية والفداء ، والصراع الدامي بين جبروت البغي ، وثورة العدل حتّى الاستشهاد الذي تفجرت منه ثورات قضت على الشروعنانه ، شهد هذا الكاتب الأرض الثائرة الظافرة فحلقت به إلى عالم الشهادة والشهداء ، وما أعطوه لله والانسانية من أرواح ودماء ، وكيف أثمرت هذه الدماء ثمارها اليانعة الخالدة .

على ان الذي أثار دهشة الكاتب أكثر من كل شيء – الصورة التي تخيلها ليزيد وابن زياد وشمر وابن سعد ، وشيعتهم من المساومين وباعة الدم المسفوح وقد رسم هذه الصورة بكلمتين : « الانسانية الكليبة التي تقتل أفضل وأنبل ابنائها » . فيزيد وأمثاله على هيئة انسان بلا شك . . ولكنهم في واقع الأمر أخزى من الوحش المفترس . . فالوحش لا يقل ابناءه ، ويزيد وشيعته يقتلون افضل وانبل ابناء الانسانية . . ولكن دماء الشهداء تقتص منهم لنفسها ،

وأدنى هذا القصاص أن تفضحهم وتظهرهم للملأ على حقيقتهم لكي يمطرها بلعنة الله ولعنة اللاعنين إلى يوم الدين .

وإلى جانب هذه الصورة الشاعرة الواعية – رسم الكاتب صورة دامية تُعبر عن حزنه وألمه بأهل البيت من كوارث ومجازر . . كذلك لم ينس الكاتب ان يقارن بين حرم علي أمير المؤمنين الشامخ الناطق ، وقبر معاوية الصامت البارد . . وهكذا ، ينبغي لخطيب المنبر الحسيني أن يفعل . . يمجد ويقدس كل من ناضل وقاتل لنصرة الحق والعدل . ويفضح على الملأ كل خائن ومبطل ثم يختم بالإشارة إلى مشهد من استشهاد صاحب الذكرى وامام الهدى .

والأهم التركيز على ان الحق لا بد أن ينتصر في النهاية مهما استشرت وتمادت القوة الغشوم التي تواجه . . والدليل القاطع هذا الذكر الخالد العاطر لسيد الشهداء « فقد فاز بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الانسان لا استثنى منهم عربياً ولا اعجمياً وقديماً ولا حديثاً »[1] .

وبعد ، فان البلد الأمين مهد الاسلام وقبلة المسلمين تُذكرهم انهم امة واحدة ، وان تعددت الاقطار ، واختلف الالسن والألوان ، والمدينة المنورة تُذكر بالرسول العظيم ، وان رسالته رحمة للعالمين : اما كربلاء المقدسة فهي حجة بالغة تدمغ وتفضح من سكت وهادن الباطل والظالم ، وتحايل على الدين ونصوصه .

(١) ما بين القوسين من كتاب « أبو الشهداء » للمرحوم العقاد .

البطل التاريخي
دوماً مع الضعفاء والبائسين

الإمعة والذكي والبطل :

كل الناس من تراب ، ما في ذلك ريب ، وكلهم يسمع بأذن ، وينظر بعين ، ويمشي على رجلين . ويقال له في العرف العام: « انسان » .. وايضاً لا فرق في شريعة العدل بين الأسود والأبيض ، والعربي والاعجمي .. ورغم ذلك فان بني آدم اشكال وألوان: منهم الإمعة التابع لكل ناعق يتأثر به تأثيراً آلياً . ان آمن بالخرافة آمن بها ، وان أكل لحم البشر اكل معه . . وإلى هذا النوع من الناس أشار سبحانه بقوله :

﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا
عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ
لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾
١٠٤ المائدة .

ومنهم الذكي الفطن الذي يعاكس بعض الأوضاع وينهى عنها . ولكن لا يعمل لتغييرها لسبب أو لآخر ، كمؤمن آل فرعون الذي أشارت إليه الآية ٢٨ من غافر :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ
آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ...
أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللهُ ﴾

ومنهم البطل التاريخي الذي يجاهد ويناضل من اجل تغيير الوضع الفاسد. والسلطان الجائر كي يتحرر المظلوم من جور الظالم . والفقير من جشع المحتكر . والجاهل من كل قيد يعوقه عن الوعي والتقدم . . وهذا الخط هو الأساس لرسالة الانبياء والمرسلين . قال سبحانه حكاية عن بعض أنبيائه يرشد قومه ويقول :

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ٨٥ الاعراف .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ ١٩٠ البقرة .

إلى عشرات الآيات .

الحسين والمقهورون :

وقد يتحلى المرء بفضيلة او اكثر ، كالصدق وإقامة الصلاة ، والزهد والتواضع ، ولكن هذه وحدها لا تجعل من صاحبها بطلاً مع الخالدين. لأن التاريخ لا شأن له إلاّ بمن يترك أثراً نافعاً في حياة الناس ، ويمتد ويستمر جيلاً بعد جيل . . فلولا لمبة الكهرباء ــ مثلاً ــ التي اصبحت جزء من حياتنا ،

ما عرفنا اديسون حتى ولو كان زاهداً عابداً ، ولولا المذياع الذي نستمع إليه صباح مساء ما سمعنا بماركوني ، ان كان وفياً بوعده متواضعاً في سلوكه :

﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ١٧ الرعد .

وللإمام الحسين (ع) « فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجها آذان السامعين » على نحو ما قال نهج البلاغة في وصف أهل البيت (ع) . . ولكن السبب الأول لخلود الحسين إلى يوم الدين — أنه الصورة الحية في خيال كل مظلوم وبائس لا يجد الناصر والمعين . . لقد حمل الحسين هموم الضعفاء الذين لا عم لهم ولاخال ، وشعر بآلامهم ، وتفانى في نصرتهم ، واستشهد وعلى شفتيه « هل من ناصر » . . وما أراد الناصر لنفسه وذويه . ولا لإنتخابه رئيساً أو نائباً ، وانما أراده لدين الله ، للحق والعدل ، للجائع والمظلوم ، للارملة واليتيم ، للمشردين المطرودين من ارضهم وديارهم [1] . ومن هنا امتدت جذور الثورة الحسينية إلى كل قلب وجيل ، وستستمر في طريقها ، ويبقى نورها ببقاء الله وكتابه . لأنها من الله وقرآنه ، وروح محمد وايمانه . ولا انطفاء لهذا النور الساطع . . وقال الشاعر الشيخ عبد الحسين الاعسم في رثاء الحسين مشيراً إلى هذا المعنى :

إنْ يَبْقَ مُلْقىً بِلا دَفْنٍ فَإِنَّ لَهُ ... قَبْراً بِأَحْشَاءِ مَنْ وَالاهُ مَحْفُوراً

(١) في عصرنا هذا ، عصر الحضارة والاشعاع وضعت المواثيق الدولية ضماناً لحقوق الإنسان ، وتكونت هيئة الأمم ومجلس الأمن لنفس الغاية . . . ورغم ذلك بقي الضعيف بلا ناصر ؛ تصاعد الفتك والقهر ، واستشرت الصهيونية والاستعمار والعنصرية ، واحتكر الكبار حق الفيتو ، وأحالوا كل العهود والمواثيق ، وكل الحقوق والواجبات إلى مهزلة و«بهدلة» .

والمراد هنا بمن وإلى الحسين كل مظلوم ومحروم سواء أكان شيعياً أم لا دينياً ، سمع باسم الحسين أم لم يسمع ، لأنه حارب القهر والحرمان كمبدأ ودافع عن الانسان كانسان مؤمناً كان أم غير مؤمن . . والانسان بطبعه وواقعه يوالي كل من دافع عنه واحسن إليه ، وان جهل اسمه وهويته . . اما القبر بالاحشاء فالمراد به أن اسم الحسين قوة فعالة تهز قلوب الضعفاء والمقهورين من أعماقها .

وكم رأيت هؤلاء في مجالس الذكرى والتعزية الحسينية يسفحون الدمع بغزارة حين يسمعون اسم الحسين والعباس ، وكأنهم يبكون أنفسهم وحياتهم المعذبة البائسة ، أو يبكون حظهم حيث يعيشون في ظل ألف يزيد ويزيد ولا حسين وشبه حسين الذي رفع أصواتهم وترجم مأساتهم بنحره ودمه . . ومن هنا التقى المعذبون في الأرض مع الحسين ، وكان مثلهم الأعلى . ولا غضاضة ما دامت شريعة الله لخير الإنسان وسعادته دنيا وآخرة .

والذي زاد رؤيتي هذه قوة ووضوحاً أن قراء التعزية قد دأبوا منذ القديم على أن يختموا المجلس الحسيني بهذا الدعاء :

﴿ اللَّهُمَّ لا تَدَعْ هَمّاً إلاَّ
فَرَّجْتَهُ ، وَلا جَائِعاً إلاَّ أشْبَعْتَهُ ،
وَلا عَارِياً إلاَّ كَسَوْتَهُ ، وَلا مَرِيضاً
إلاَّ عَافَيْتَهُ ، وَلا دَيْناً إلاَّ قَضَيْتَهُ
وَلاحَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا
وَالآخِرَةِ إلاَّ سَهَّلْتَهَا وَيَسَّرْتَهَا ﴾

ابداً ليس هذا من باب الصدقة والاتفاق .. انه يتصل ويرتبط كل الاتصال بثورة الامام الحسين من أجل الجياع والعراة والمقهورين على حريتهم وكرامتهم ..

لقد ثار الحسين من أجل هؤلاء لا بتأثير من مزاجه الثوري ضد البغي وكفى ، كما قيل ، بل « تلبية لأمر الرحمن ودعوة القرآن :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾

٧٥ النساء .

علي والمساكين :

وقصة علي والحسين واحدة . . وايضاً حيثيات الحب والولاء للامامين واحدة ، وهي مشكلة البؤساء والمساكين . قال صاحب البحار في المجلد الثالث باب زهد عليّ وتقواه : « ان رسول الله قال : يا عليّ ان الله سبحانه قد زينك بزينة لم يزين العباد بشيء أحبّ إليه منها ، زينك بالزهد في الدنيا ، وجعلك لا ترزأ منها شيئاً ، ولا ترزأ منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعاً ، ويرضون بك اماماً » .

ومعنى « ترزأ » تصيب . . وكلنا يعلم ان الامام امير المؤمنين « قد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعمه بقرصيه » . وانه كان يوزع المال بالسوية على الأبيض والأسود ويقول :

﴿ إنَّ آدَمَ لَمْ يَلِدْ عَبْداً وَلا أمَةً ، إنَّ النَّاسَ كُلُّهُمْ أحْرَارٌ ﴾[1].

(١) روضة الكافي ج ١ ص ١٢٤ سنة ١٣٨٢ هـ.

وقرأت مقالاً مطولاً بعنوان « شرخ في خلافة المسلمين » للأديب المصري سامي محمود ، نشرته صحيفة اخبار اليوم ٢١ / ١٠ / ١٩٧٢ قال فيه من جملة ما قال: « اما عليّ وأبناؤه أحفاد رسول الله فكان طريقهم معروفاً واضحاً مستقيماً لم يترددوا فيه ، ولم يفكروا لحظة واحدة في دنيا يصيبونها ، وامرأة يتزوجونها . وانما كانت هجرتهم إلى الله ورسوله » .

وليس من شك ان من كانت هذه هجرته وغايته فيما يقول ويفعل – انقادت إليه تلقائياً قلوب الأبرياء والمنصفين ، وبالخصوص قلوب المساكين الذين يتوقون إلى الراحة والخلاص من الكبت والقهر ، من ظالم الانسان لأخيه الانسان .. واذن فلا غرابة إذا رضي المساكين بعلي اماماً ، ورضي بهم أتباعاً ما دامت مواقفه كلها لله ، ولأنين المنكوبين من عيال الله .

أمّا معاوية فقد كتب عنه سامي محمود في نفس الصحيفة وقال : « اما معاوية فقد تكالب على الملك ، وجعله في ذريته ، وخالف أحكاماً كثيرة من تعاليم الاسلام . ولم يبال معاوية وبنوه من بعده بحفيد رسول الله واستباحة مكة والكعبة ، واحلال المدينة المنورة لجنودهم ثلاثة أيام .. ودفع العالم الإسلامي لذلك ثمناً فادحاً » .

وتسأل : لقد جعل النبي (ص) من حب المساكين رفعة وفضيلة عند الله لمن أحبوه ، فما هو وجه المناسبة ؟ .

الجواب :

ان عالم الانسان تماماً كعالم الحيوان ، فيه القوي الآكل ، والضعيف المأكول الذي لا يملك قوة الردع والدفاع عن النفس ، وإلى جانب هذا الجامع القاسم توجد أوجه كثيرة للفرق بين العالمين ، وأبرزها أو من أهمها أن المجتمع

البشري فيه حكومات ومشكلات ، وامتلاك ومشاريع ، وحقوق وواجبات تنشأ وتنبعث من التعاون والتكامل في شتى ميادين الحياة الاجتماعية وشئونها .. ومن هنا احتاج المجتمع البشري إلى نظام وشريعة وآداب للسلوك ومبادىء للاخلاق ، تحمي الضعيف من القويّ ، وتضمن لكل ما له من حق ، وتُلزمه بما عليه من واجب .

فشريعة الحق والعدل – اذن – هي بالدرجة الأولى الحصن والمأمن الذي يلجأ إليه الضعيف كلما أحس بحيف واجحاف يأتيه من قوي مفترس ومستبد جائر . . « بديهي انه لا حق ولاعدل بلا قوة وناصر » كما ان القوة بلا حق وعدل وظلم واستبداد . . وتاريخ عليّ وبنيه كله صراع وكفاح ضد الطغاة لنصرة الحق والعدل وليعيش الناس أحراراً سعداء لا آكل بينهم ومأكول . وبهذا كانوا غياثاً ورحمة لكل مسلوب ومنهوب ، وكفى بذلك زينة وفضيلة .

وبعد فان الفقراء والمساكين بطبيعتهم ووضعهم – يناصرون كل رسالة حقة وعادلة حيث لا مال يُطغي ولا سلطان يُغري . قال الامام امير المؤمنين (ع) : « من العصمة تعذر المعاصي » . وقال سبحانه حكاية عن عتاة البغي والباطل :

﴿ أنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ ١١١ الشعراء .

أي الاقلون جاهاً ومالاً . وكل رذيلة في منطق أهل البغي وعتاته هي زينة وفضيلة في الواقع وعند الله سبحانه .

وربماقال قائل : على هذا يكون حب المساكين لعليّ وسيلة لا غاية ، طريقاً لنيل المراد ، وليس حباً لعليّ بالذات .

الجواب :

ان المصلحة الخاصة من حيث هي ليست محرمة ، ولا من المحتّم أن لا تلتقي مع الصالح العام في أية حال من الأحوال .. بل قد لا تلتقي معه كالعيش والكسب على حساب الآخرين ، وقد تلتقي كالسفر للحج والسياحة والتجارة السائغة . قال سبحانه :

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ ﴾ ٢٨ الحج .

وكلنا يعلم انه لا أمنية للبؤساء والمساكين إلا الخلاص من وطأة البؤس وذل المسكنة .. وهذه الأمنية أو هذا الأمل يلتقي مع العمل لله والصالح العام ، بل هو أفضل انواعه . قال نبي الرحمة :

﴿ أحَبُّ خَلْقِ اللهِ إلى اللهِ مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللهِ ... خَيْرُ النَّاس أنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ ﴾

وكان أنين البائسين وجوع الجائعين يؤرق علياً ، ويقض مضجعه . ويعمل جاهداً لسعادتهم وخلاصهم من كل ألم مهما كلفه ذلك من عسر ومشقة .. ومن أقواله : « هيهات أن يغلبني هواي ، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل من بالحجاز أواليمامة من لا طمع له في القرص، ولاعهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى واكباد حرّى ! . » .

وعلى هذا الصعيد ألتقى عليّ والمساكين ، وعاش حيّاً في قلب كل عارٍ وجائع ، ومنكوب ومحروم .

من كتاب الصلة بين التصوف والتشيع

التصوف في ظني :

قرأت الكتاب الضخم : « الصلة بين التصوف والتشيع » للدكتور كامل مصطفى الشيبي . والكتاب بوجه عام جدير بالقراءة ، على ما فيه من اخطاء . وأينا المعصوم فيما يقول ويفعل ، ويفهم ويحكم ؟ .

والتصوف ، كما هو في ظني ، لا يتصل بدين من الأديان ، ولا بعلم من العلوم ، وانما هو عامل فردي نفسي وسلوكي ، كجهاد النفس الأمارة ، والثبات أمام المغريات ، وقوة الإرادة والاصرار على التحقق العملي بما يمليه المعتقد والمثل الأعلى أياً كان نوعه ، ومهما كانت الظروف والنتائج ، أو هواي التصوف عبارة عن إلغاء عقل الفرد بافتعال منطق العقل .

وعلى أية حال فليس من همي تحديد معنى التصوف وتمييزه عن سائر المفاهيم . . وما انا به من الواثقين ولا المتخصصين ، وقصدي الأول ان أعرض من هذا الكتاب بعض ما له صلة وعلاقة بأهل البيت (ع) .

ظهور التشيع في عهد النبي :

قال المؤلف في ص ١٧ وما بعدها : أثبت احمد أمين في ضحى الاسلام أن التشيع ظهر في حياة النبي ، وكان أبو ذر وسلمان وعمار والمقداد يتصرفون

كشيعة عليّ على مرأى من رسول الله ومسمعه . وروى ابن حجر في صواعقه عن النبي أنه قال : يا علي انت وأصحابك في الجنة .

وأخرج ابن عساكر قول النبي : والذي نفسي بيده ان علياً وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة . وقال اليعقوبي : تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من الانصار ومالوا مع عليّ . . اما سبب تشيع من تشيع لعليّ فهو وصايا النبي الكثيرة بعليّ وانه امتداد لرسول الله يمثل التيار الاسلامي الأصيل . وان عتاة قريش الذين حاربوا الله ورسوله تكره علياً لعظمته وايمانه وجهاده في سبيل الله والاسلام .

ثم ذكر المؤلف جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي غير الأقطاب الاربعة ، منهم حذيفة بن اليمان ، وخباب بن الأرث ، والاخوان الأمويان خالد وعمرو ابنا سعيد بن العاص . . وانه كان مع عليّ في صفين ٨٧ صحابياً من المهاجرين والانصار . . وايضاً قال المؤلف : وهكذا يتبين معنا ان حركة التشيع انما هي حركة المحافظة على الاسلام ، ومراقبة تطبيق مبادئه على الوجه الصحيح ، وقد رأينا أن أكثر الذين تمسكوا بعقيدة التشيع هم أصحاب المصلحة في بقاء الاسلام كما اراد الله ورسوله .

الحسين هو المثل الأعلى :

وقال الدكتور الشيبي في ص ٩٣ وما بعدها : وقد أثر قتل الحسين في النفوس تأثيراً بالغاً ، لأنه محاط بهالة من الأحاديث النبوية، ذكر منها احمد أمين في ضحى الاسلام ما رواه عمر عن رسول الله (ص) : الحسن والحسين ريحانتاي . وما رواه ابو سعيد: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. . وايضاً روى الترمذي : الحسين مني وانا منه احب الله من أحب حسيناً . . وقال

المؤلف : لقد صار الحسين المثل الأعلى للبطولة الاسلامية والتضحية في سبيل الحق ، كما صار قتله سبباً في ذل المسلمين . ومن هنا قال سليمان بن قتة :

وَإِنَّ قَتيلَ الطَّفِّ مِنْ آلِ هاشِمٍ أذلَّ رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ فَذَلَّتِ

لا ذهب ولا فتوحات في الإسلام :

وقال : « قد يرى البعض أن قتل الحسين لا أثر له في العالم الاسلامي ولا في ذل المسلمين بدليل ان الدولة الأموية نمت واتسعت بعد قتل الحسين شرقاً وغرباً ، وأن عز الاسلام كان من ثمرات الفتوح الاموية » .

ودحض الدكتور الشيبي هذا الزعم بأن فضل الاسلام ينبع من الحق والعدالة والمساواة واصلاح المجتمع الإنساني . . وكان قتل الحسين استهتاراً بكل القيم ، وبما في قلوب المسلمين من حب وولاء للنبي وأهل بيته . لقد وكان الحسين أفضل المسلمين على الإطلاق في عصره ، ومن هنا كان قتله المدى الذي يهون دونه كل شيء . . لذلك استبيحت المدينة المنورة بعد قتله رميت الكعبة بالمنجنيق ، واستحر القتل في العالم الاسلامي ، « غدا الاسلام ثانوياً حتى بلغ الأمر بالحجاج أن يخير المنهزمين من جيش ابن الأشعث بين القتل والبراءة من الاسلام ، وان يرفض عمال الأمويين دخول من يدخل في الاسلام حرصاً على الجزية ، بل ويضعوها عليه بعد إسلامه .. وهذا هو الذل الذي أورثه قتل الحسين . . أما الذهب والفتوح والتسلط على رقاب الناس فما هو من الاسلام في شيء .

ونعطف على قول المؤلف ، وبالأحرى نزيده وضوحاً ، أنه قد كان للمسلمين – ولا أقول للاسلام – دولة عظمى ، ما في ذلك ريب ، ولكنها

كانت مسخرة لأعدى أعداء الاسلام وقرآنه ونبيه وقيمه . لمن كان يرى الحرية زندقة ، والشورى فوضى . والعدالة جريمة . والحق رجاء وقتل الصالحين دستوراً ، ومصادرة الاموال واغتصاب الأملاك حقاً ، والفسق والفجور ديناً ، واثارة الحروب ، اراقة الدماء لحماية سلطان الجور واجباً مقدساً . . إلى كل ما يعاند الاسلام ويحاربه ! .

ثم تحولت الدولة العظمى إلى دويلات ، وصار لكل بلد إسلامي وحش مفترس ينهش بأنيابه لحوم المستضعفين ، ويقودهم إلى حرب منافسيه من الحكام المفترسين . . حتى صار المسلمون أكله لكل آكل ، وفريسة لكل صائل تماماً كما هي حالهم الآن وإذا حفرت في الجذور بحثاً عن سبب الاسباب انتهيت إلى الناكثين والمارقين والقاسطين الذين حولوا الخلافة إلى وراثة والإلفة إلى فتنة .

مجالس الذكرى والعزاء :

وقال صاحب كتاب الصلة بين التصوف والتشيع : « لقد صار مقتل الحسين ملحمة كبرى تذكر الشيعة بذلك البطل التاريخي الذي أنقذ الاسلام وحماه ، جعل الشيعة يكررون في كل عام تذكير الناس بكل تفاصيل الواقعة ، واعتبروا ذلك نذيراً ينبه إلى الخطر المحدق . . وصارت مجالس العزاء تعقد في ايام الواقعة وغيرها . . والشيعة يجمع شملهم ويوحد صفوفهم الحب الزائد لآل البيت » .

وتجدر الإشارة إلى ان هذا الحب ليس كرهاً بغيرهم كقول من قال : « ليس حباً بمعاوية بل بغضاً لعلي » وانما يعتمد سبحانه الشيعة في حب آل الرسول على كتاب الله وسنة نبيه . قال سبحانه :

﴿ قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى ﴾
٢٣ الشورى .

وفي تفسير البحر المحيط لأبي حيان الاندلسي ، وتفسير روح البيان لاسماعيل حقي ، وتفسير غرائب القرآن للنيسابوري — أنه عند نزول هذه الآية قال الصحابة : يا رسول الله من هم قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ . . قال : هم علي وفاطمة والحسن والحسين .

وقال صلى الله عليه وآله : « أحبوا الله ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي » . رواه الترمذي في سننه ج٢ ص ٣٠٨ ، والبغدادي في تاريخه ، والزمخشري في كشافه وكثير غيرهم . وأيضاً روى الزمخشري عن النبي (ص) حديثاً مطولاً جاء فيه : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً . . . ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً » . . . (أنظر الجزء الثاني من كتاب فضائل الخمسة ص ٧٥ وما بعدها طبعة ١٣٨٤ هـ .) .

وقال الشيخ العبيدي مفتي الموصل في كتاب النواة بعنوان « الإسلام والمسلمون » : ان قول النبي (ص) في حديث الثقلين : « أذكركم الله في أهل بيتي » يكرر ذلك ثلاثاً إنما هو إشارة إلى ما حدث بعده لأهل بيته مما كان وصمة على المسلمين ، وطعنة نجلاء في صميم الإسلام ما يزال يسيل دمها على مر الأيام وكر العصور .

وقال الدكتور الشيبي في ص ٩٨ : « وقد تنبه الأمويون إلى خطر ذكرى الحسين التي يقيمها الشيعة ، فحاولوا أن يقابلوها بالفرح ، فجعلوا منها عيداً سنه الحجاج لأهل الشام في أيام عبد الملك ، واستنه صلاح الدين الأيوبي

وملوك بني أيوب بعد الدولة الفاطمية ، كما في خطط المقريزي ج٢ ص ٣٨٥.. وأيضاً هدم المتوكل قبر الحسين لمنع الناس من زيارته » .

ولكن لينظر ناظر ما حدث للإسلام بالذات بعد أن أراد طغاة الشرك أن يطفئوا نوره ، حيث رد سبحانه الذين كفروا بغيظهم وقال :

﴿ يُرِيدونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ ٨ الصف .

وبمناسبة قول المؤلف : يكرر الشيعة مقتل الحسين لتذكير الناس بدولة الجور – نشير إلى أن متعنتاً سأل عالماً من علماء الشيعة : لماذا تذكرون الحسين وكربلاء ليل نهار ، فقال له : كيلا ينكر المتعصبون وجود الحسين ، أو ينكروا ما جرى في كربلاء ، كما أنكروا الغدير ، ويغدقوا الفضائل على يزيد وأيامه « الحلوة » .

لا فتى إلاّ علي :

تكلم القدامى والجدد عن الفتوة وأطالوا ، ووضعوا فيها الكتب والمؤلفات ومعناها كمال الرجولة ، وتألفت في البلاد الإسلامية جماعات وهيئات تنسب نفسها إلى الفتوة تيمناً بخلق الإمام أمير المؤمنين (ع) حيث ذاع فيه وفي سيفه « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي » أي لا يوزن به فتى آخر عظمة وكمالاً ، أما مصدر هذا القول « لا سيف الخ فهو جبريل ، وليس النبي (ص) كما توهم البعض .

قال الدكتور الشيبي في ص ٤٩٤ وما بعدها : « أورد الطبري في حوادث وقعة أحد أن علياً أبلى بلاء أعجب به جبريل فقال : يا رسول الله ان هذه هي

المساواة . فقال النبي (ص) : ان علياً مني وأنا منه . فقال جبريل : وأنا منكما . فسمع صوت يقول : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي . . . ومن فتوة علي أنه عرض نفسه للموت بمبيته في فراش النبي ليلة الهجرة . . . وكان ولده الحسين في التضحية من طراز نادر ، فضحى بنفسه في سبيل المثل الإسلامية حتّى قرن اسمه بإسم السيد المسيح . وأخباره بأخباره » .

أهل البيت والتصوف :

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يسوغ بحال أن نعد من الصوفية من عناهم سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ٣٣ الأحزاب.

لأن كلمة التصوف توحي عند إطلاقها بعدم الاعتدال . . فمن أحب الله من الصوفية أفرط – غالباً – في تصرفاته وكان اشبه بالمجاذيب ومن كره الدنيا فرط ، ظلم نفسه وأهله . . . هذا ، إلى أن أقوال الصوفية مليئة بالشطحات مثل القول بالكشف وعلم الباطن ، وقمعّ الغرائز . .والحلول ووحدة الوجود . . . وكل ذلك يبرأ منه النبي وأهل بيته .

وتسأل : هل معنى التطهير في آية الأحزاب أن نفوس أهل البيت منزهة عن الميول الخبيثة التي تحث على الشر . وانها تنبعث عفواً وتلقائياً إلى الخير فإذا كان الأمر كذلك فلا فضل وفضيلة لأهل البيت لأنهم – وهذه هي الحال – لا يعانون أي جهد ومشقة في السباق إلى الخيرات .

الجواب :

١ ـ لا ريب أن من يعاني [illegible] في سبيل الخير هو مشكور ومأجور ، ولكن ليس معنى هذا أن من يفعل الخير بلا جهد وعناء لا أجر له ولا شكر ما دام قد فعله بإرادته ومع قدرته على تركه .

٢ ـ إن طهارة النفس تماماً كعبقرية العقل كلاهما موضع تقدير وإعجاب لدى الناس على عكس الخبث والبلادة .

٣ ـ إن الإنسان بطبعه فيه الإستعداد التام للخير والشر قديساً كان أم شريراً ، نبياً أم شقياً ، ومن هنا نرى أكثر الناس شراً لا يخلو من بذرة خير . كما أن أطهر النفوس قد تقترف بعض الإثم . . . وعلى هذا الأساس ساغ وصح الحساب والثواب والعقاب .

وأهل البيت يملكون نفوساً طيبة زاكية تدفع بهم طوعاً إلى فعل الخير وترك الشر مع المقدرة على فعل الشر وترك الخير . . . ومن هنا جاء الفضل والفضيلة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾ ٤٦ البقرة .

كربلاء
وفلسطين وجنوب لبنان

لا شيء يثلج صدري ،
ويهدىء من روعي مثل الرحمة
وسلطان العدل.. أما الظلم
والقسوة فإنها تلهب عواطفي
ومشاعري، ولعل هذا هو السر في أني أتعصب وأنحاز، من حيث لا أحس وأشعر ، إلى كل حاكم يأمنه البريء والضعيف ، ويخافه المجرم والظالم ، أحب العادل وأشغف به أياً كان وعلى أي دين يكون ، وأغضب وألعن كل متكبر جبار حتى ولو قام الليل وصام النهار .

وتشاء الصدف أن تنقض الصواعق الإسرائيلية المحرقة على جنوب لبنان صاعقة إثر صاعقة ، وأنا منسجم بكياني كله مع عالم كربلاء ومأساتها لأني الآن أضع كتاباً في الحسين والقرآن » فازداد جوي لجباً ، وأعصابي لهباً . . . وبهذه الأعصاب أكتب ما يلي :

كل التاريخ البشري ، وبلا استثناء ، فيه شمر ويزيد من يوم آدم وإلى آخر يوم . . . ألم يقتل قابيل ، الإبن الأول للإنسان ، أخاه هابيل ؟ . . . فأين صلة الدم ؟ . . . وتوارث الأبناء هذا الظلم إلى يوم يبعثون . . . والفرق إنما هو في الإسم والصورة ، تفرقت الأسماء والظلم واحد . . . إذا ساغ تغيير الأمثال .

ومذبحة كربلاء أليمة وعظيمة ، تمثلت فيها نكبة الانسانية الشاملة . . .

لقد أراد الأمويون التخلص من عترة الرسول (ص) بكل ثمن ، ليدوم لهم الملك بلا صعوبات وعقبات . . . فكان في الطف ما كان والمسلمون ساعتئذ في صمت شامل وغريب كما وصفهم الشاعر :

رأسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ لِلنَّاظِرِينَ عَلَى قَنَاةٍ يُرْفَعُ
وَالمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ لا مُنْكِرٍ مِنْهُمْ وَلا مُتَفَجِّعُ

وملحمة الشعب الفلسطيني أيضاً أليمة وعظيمة ، لأن الصهاينة يريدون تصفية هذا الشعب وإبادته بكل الوسائل ، وسد باب الأمل بالعودة نهائياً ، لتعيش إسرائيل وحدها في فلسطين قريرة العين . . . وليست الصهيونية أدنى قسوة وضغناً من أمية ، ومن هنا جاءت المقارنة والمشابهة في هذا الفصل بين كربلاء وفلسطين ، وأيضاً وجه آخر للشبه ، وهو موقف العالم الإسلامي والعربي اليوم من قضية فلسطين ولبنان . . . إنه تماماً كموقف المسلمين آنذاك من وقعة الطف .

أين العمل المشترك والموقف الواحد ضد مخطط الإبادة ؟ . . . وأين صيحة النجف والأزهر والمؤتمرات الإسلامية ضد الولايات المتحدة ومن يسير في ركابها ؟ . وإين ثورة الشعوب الإسلامية والعربية على الطغمة الخائنة التي أغرقت بنفط العرب القوى المؤيدة والمحركة لعدوان إسرائيل وطغيانها وملأت بنوك الصهاينة بالمليارات والإحتياطات لتتحول إلى أسلحة الفتك بالعرب ، وبكل من ينشد الحق والعدل .

أجل ، قطعوا النفط أو بعضاً منه أياماً معدودات ، فذهل الغرب واهتز كيانه من هذا الزلزال الماحق . . . ولكن سرعان ما عاد من عاد إلى ذل الطاعة وتقشعت الغيوم عن فلك الإرتباط ، ودفع ثمنه غالياً لبنان والفلسطينيون !.

ابتدأت ملحمة فلسطين سنة ١٩٤٨ وتتابعت عليها النكبات الواحدة تلو الأخرى . . . والآن – وأنا أكتب هذا الفصل في حزيران ٧٤ – انقضت الطائرات الإسرائيلية العديد من المرات على جنوب لبنان بعد فلك الإرتباط وقصفت القرى ومخيمات الفلسطينين ... ونشرت الصحف اللبنانية في ٢١ و٢٢ من الشهر المذكور – أخبار هذه الغارات مع صور لبعض الضحايا والأشلاء ومنها صور أطفال مشوهين ، وفوقها بالخط العريض « أين الضمير الإنساني .. بل أين الضمير العربي » وتحتها « لا نخوة . . لا شهامة . . لا ثار . . . فالكل فلك الإرتباط » .

أليست هذه الكلمات القارعة اللاسعة تفسيراً كاملاً لبيت الشاعر الحسيني « والمسلمون بمنظر وبمسمع ، لا منكر منهم ولا متوجع » . ومن هنا قيل كان الشعر في القديم كالجرائد في العصر الحديث . . . وإلى القارىء بعض ما نشرته الصحف في وصف هذه الكارثة الصهيونية الأمريكية .

اتخذت الغارات الإسرائيلية على قرى جنوب لبنان ومخيمات اللاجئين – طابع الإبادة . . . وكانت نتيجتها عشرات الشهداء والجرحى من عجز ونساء وأطفال . . . كانت القاذفات تضرب الأطفال ، وهم يلعبون في الشوارع . وتهدم البيوت على رؤوس من فيها ، وتحرق الخيام بأهلها ، وتذهب حتى إذا اجتمع الناس لانتشال الجثث ونقل الجرحى إلى المستشفيات أعادت القاذفات الإسرائيلية الكرة . وقصفت المسعفين والمصابين معاً . . . ولما هدأ القصف أتت الجرافات ترفع الأنقاض وإذا بوجوه مشوهة لا يعرف صاحبها ورؤوس محطمة ، وأيد وأرجل ، وأصابع كبيرة وصغيرة . . . إلى شتات من القتلى حرقاً بقنابل النابلم . أو خنقاً تحت الركام ، وفيهم أطفال ومسنون وحاملات ومرضعات .

هذا تلخيص كامل لما قالته الصحف البيروتية عن هذه المأساة . . .والشيء الذي سكتت عنه لوضوحه ، ونسجله نحن للتاريخ لا لمجرد التوجع هو أن مخيمات الفلسطينيين بلبنان تعاني الفقر والعوز ، والبرد والمرض ، والهوان والتشريد ، والحزن والكبت ، والحيرة والقلق . . . وفوق ذلك البغي الصهيوني يزهق الأرواح ، ويحرق الأجساد ، والدعم الأمركي في كل ميدان وبلا حدود ، أو مع وصف الإرهاب والتخريب ! .

أرأيت إلى هذه الفاجعة تحدث في القرن العشرين، عصر النور والفضاء؟. وهل قرأت لها مثيلاً عبر التاريخ ؟ . أجل ، لقد حدث مثلها في كربلاء، ولكن في القرن السابع حيث لا فتوحات للعلم في اكتشاف قوة البخار والكهرباء والذرة . . حدث ذلك لمرشدين في العراء من أرض كربلاء.. فقد منعوا أولاً من شرب الماء ، ثم ضربوا بالسيوف ، وطعنوا بالرماح ، وقذفوا بالحجارة . . وكان الفصل الأخير قطع الأيدي والرؤوس ، ورض الأظهر والصدور ، وذبح الأطفال وسبي النساء ، وتصفيد الأسرى ، وحرق الخيام ، ورفع الرؤوس فوق الرماح . . . وأيضاً ألقيت الأجساد من عل ، وجرت بالحبال في الشوارع والأسواق . . . حدث كل هذا لا لشيء إلا لقول الحق وطلب العدل ، وبهما ينادي اللبنانيون والفلسطينيون . . وهذا ذنبهم وعيبهم ! .

وإن دلت هذه المجازر هنا وهناك على شيء فإنها تدل على أن تقدم العلوم الطبيعية لا يعني أبداً تقدم الإنسانية، بل قد يكون أداة لهدمها وتدميرها كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ٦ العلق .

ان المدينة الفاضلة لا تتحقق على الأرض ولن تتحقق بالمخترعات والارتقاء إلى القمر والمريخ .. كلا ، ولا بكثرة السلع الإستهلاكية وحدها . بل وبسيادة الحق والعدل ، وإشاعة الأمن والسكينة وبالإخاء والتعاون على ما يريد الجميع ، لا على ما يريده فرد دون فرد . أو فئة دون فئة .

وقال الإمام الحسين لقادة البغي والعدوان : « ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة ؟ » . وبلسان الفلسطينيين واللبنانيين نقول للصهاينة والمتصهنين ، ولأميركا والمتآمركين : هل قتلنا منكم أحداً ، أو شردنا أمرأة وطفلاً ، أو انتهبنا لكم أرضاً ،أو هدمنا لكم بيتاً ، أو استذللنا منكم عزيزاً ، أو انتهكنا عرضاً ؟ . ألم يقل الفلسطينيون لليهود مراراً وتكراراً تعالوا نعش إخواناً في أرض واحدة ، وفي ظل حكم واحد لا مستاثر فيه ولا متكبر !

فأبوا إلا الطرد وإخراج أهل الدار من الدار ، أو القتل والذبح بسلاح الولايات المتحدة أقوى دول الأرض وأعتاها تماماً كما أجمل الإمام الحسين قصته مع سليل العهر والفجور . بقوله :

﴿ ألا وَإنَّ الدَّعيّ ابْنَ الدَّعيّ
قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ : بَيْنَ
السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ ... وَهَيْهَاتَ منا
الذِّلَّةُ ! ﴾

وأيضاً قال الحسين لقادة العسف والعنف :

﴿ أنتُمْ طَوَاغِيتُ الأمَّةِ ،
وَنَفَثَةُ الشَّيْطَانِ ، وَعُصْبَةُ

الأَنَامِ ، وَشُذَّاذُ الأَحْزَابِ ،
وَنَبَذَةُ الكِتَابِ ﴾ .

ألا يصدق هذا الوصف على من أهمل وتجاهل موضوع لبنان والشعب الفلسطيني وهما طرف أساسي ، في محادثات السلام ؟ وهل صحيح ما شاع وذاع بأن جنوب لبنان هو الثمن والبديل عن القنيطرة والقناة ؟ .

وأيضاً يصدق قول الإمام الحسين على المترعمين والمترفين الذين يلهون وينهلون من موائد الحرام والترف والتبذير ما شاء لهم الهوى والخنا غير مبالين بشاك ولا باك ، ولا بدين ووجدان والمرقوب والمحتوب بين طابقين من نار المدافع والطائرات ! .

وبعد ، فإن العالم الآن بأسره شريك في كل ما حدث ويحدث للبنان والفلسطينين : ومسؤول عن كل ما حل بهما من نكبات . . وبالخصوص الولايات المتحدة التي أعطت الضوء الأخضر لإسرائيل بضرب لبنان في البيان المشترك الأمريكي الإسرائيلي . . وبوجه أخص العالم العربي الذي يملك قوة البترول وقوة المليارات المودعة في مصارف الصهاينة وحلفائهم . . لقد تحمل لبنان من أجل فلسطين والفلسطينيين أكثر بكثير من كل الدول العربية بل والإسلامية وغيرها مجتمعة ، وهو يعجز عن بعض هذا الحمل والثقل ، وما رأى من الأشقاء والأصدقاء إلا « نستنكر ونؤيد ونحن معكم » . . بخ بخ للعرب والعروبة ، وللمؤتمرات الإسلامية التي تعقد بالعشرات هنا وهناك . . . ثم لا شيء ضد الغارات إلا قرارات مكرورات .

هذا وأمثاله دفع بالمقاومة الفلسطينية إلى التصرف اليائس وعمليات الإنتحار والتفجير الغاضب بالمسلوب والسالب ، كما حدث في ميونخ ومعالوت وشمونا ونهاريا . . . وقديماً قيل : « لولا المسبب لم ينجح السبب » .

وأعود إلى حديث بلدي لبنان ، وأكرر السؤال : ما ذنبه حتى أصبح بعد فك الإرتباط شغل إسرائيل الشاغل . . أبداً ليل نهار تقتيل . . تدمير . . تشريد . . وحرق وأسر ؟ . . ولماذا كل هذا الشراسة والضراوة ؟ .

أجل ، إن للبنان ذنباً لا يغتفر ، وهو أن الشعب الفلسطيني كان بعد سنة ٤٨ نسياً منسياً لمؤامرة محكمة من الصهاينة والأمريكان ، وبعد سنوات طوال من هذا النسيان والإهمال استطاعت المقاومة الفلسطينية أن تثبت وجودها بطريق أو بآخر ، وان تلفت الأنظار إلى الفلسطينيين كشعب لا يمكن تجاهله.. والفضل في ذلك لله وللبنان ، فمنه انطلقت المقاومة ، ولولاه لم يكن لها عين ولا أثر . . وكفى بذلك جرماً وإنما عند أعداء الحق والإنسانية .

وفي هذا اليوم ٣٠ /٦/ ١٩٧٤ قرأت في جريدة النهار كلمة جامعة مانعة ، وجريئة للرئيس السابق شارل حلو ، جاء فيها : « يبدو أننا نحن اللبنانيين نأخذ على عاتقنا مأساة شعب فلسطين . . أما عرض السلاح والرجال من أشقائنا فمجرد مجاملة . . وكيف نستعين بقوات سورية ومصرية ، والجيشان ملتزمان بفك الإرتباط مع المعتدين ؟ . . نحن نطلب أقل من المال بكثير ، نطلب أن يهدد أشقاؤنا بتدابير إقتصادية ضد الذين يساعدون الاعتداءات الإسرائيلية علينا أو يشجعونها أو يقبلون بها . . ويبدو أن مساعي السلام ما أدت إلى تسليمنا لإسرائيل منفردين منعزلين . . إن إطلاق اليدين لإسرائيل علينا لا كتدابير سلام ، بل كتدابير حرب معلنة علينا » .

وتتلخص كلمة الحلو – كما هو في فهمي ومعرفتي – بأن السلام الذي حدث بعد فك الإرتباط معناه تسليم لبنان لإسرائيل عن تصميم وتدبير سابق بين الصهاينة والأمريكان ، وقد التزم به من التزم من العرب ، وقام بتنفيذه كاملاً غير منقوص من حيث يريد أو لا يريد .

وبالتالي ، فمهما تفاقم الشر ، وتضاعفت شوكته فإننا لا نيأس من العودة إلى الموقف العربي الموحد ، واستعمال سلاح البترول ، بل وسلاح الودائع الفائضة إن أصر المعتدي على عناده . . وإلا تكشفت السوءات عن فك الإرتباط .

أصحاب الحسين

الرابح والخاسر :

في الانجيل حكمة تقول : « ماذا ينفع الإنسان لو أنه ربح العالم كله ، وخسر نفسه ؟ » . وتلتقي هذه الحكمة مع الآية ١٥ من الزمر :

﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
القِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ
المُبِينُ ﴾

ومعنى هذا أن النفس وحدها هي مقياس الربح والخسران ، وأن من استقام بها على الحق والهدى فهو الرابح ، ومن قادها إلى الباطل والضلال فهو من الخاسرين .

وما من شك ان السير على جادة الحق صعب مستصعب ، وقد يؤدي إلى التضحية بالنفس ، فمن بذلها ظفر بالكرامة الدائمة ، ومن أمسكها خاب في مسعاه ومرماه . . قال سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي
سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ
وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ ١٥٤ البقرة

وقال سيد الكونين (ص) : للشهداء كرامات عند الله ليست لأحد حتى الأنبياء ؛ منها ان جميع الانبياء يُغسلون ، وأنا أغسل بعد الموت ، والشهداء لا حاجة لهم إلى ماء الدنيا ؛ ومنها ان جميع الأنبياء يكفنون ، وأنا أكفن ، والشهداء يدفنون بثيابهم .

بين صحابة النبي وأصحاب الحسين :

دأب خطباء المنبر الحسيني على أن يجعلوا الصحابة وأصحاب الحسين بمنزلة واحدة عند الله . . . ورب قائل : « ان أصحاب الحسين افتدوه بالمهج والأرواح لوجه الله والحق ؛ ما في ذلك ريب ، ولكن الحسين قتل ؛ وازدادت دولة البغي عتواً وضلالاً . . . كما حدث في مكة والمدينة حيث أبيحت هذه ، وأحرقت تلك ، أما جهاد الصحابة وما ضحوا به من أرواح ودماء فقد كان من ثمره سلامة النبي ، ورسوخ دولة الإسلام بقيادته ، واذن فلا مبرر للقياس والمساواة .

الجواب :

١ ـ ان مكانة الشهيد تقاس بمثله الأعلى الذي قتل من أجله ، كما قال رسول الله (ص) : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وقال سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ
فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ
أَجْراً عَظِيماً ﴾ ٧٤ النساء .

وإذن ، فمعيار الشهادة الكريمة عند الله أن تُرضي الحق وأنصاره ، وتُغضب الباطل وأهله... وعلى هذه السبيل مضى الصحابة وأصحاب الحسين ، وكان ، عليه أفضل الصلوات ، يتمثل وهو في طريقه إلى كربلاء ببعض الأبيات منها :

سَأَمْضِي وَمَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى
إذا مَا نَوى حَقّاً وَجَاهَدَ مُسْلِماً
وساوى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مثبوراً وودع مجرما

والمثبور المطرود والملعون لخبث ذاته وسوء فعله .

٢ — ان جماعة كثر من الصحابة ، وفيهم بدريون ، قاتلوا وقُتلوا مع الحسين بنفس الدافع والهدف اللذين حاربوا من أجلهما مع جده رسول الله (ص) ، منهم عبد الله بن عمير الكلبي الذي قال : والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً ، واني لأرجو أن يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أيسر ثواباً عند الله من ثوابه اياي في جهاد المشركين ومنهم انس بن الحرث وحبيب بن مظاهر ، ومسلم ابن عوسجة ، وجنادة ابن الحرث ، وكثير غيرهم .

٣ — من درس نفسية الشهداء يجد أنهم أو أكثرهم يتحركون بدافع واحد ، هو الشعور بالواجب والإيمان بالمثل الأعلى إيماناً تغلغل في أعماق كل شهيد ، وتأصل في طبعه يكافح من أجله ويجاهد حتى الموت . . . ومعنى هذا أن كل من استشهد في سبيل الحق والعدل ، والحرية والمساواة لوجه الحق والحرية فهو من حيث المبدأ كمن استشهد مع رسول الله ، لأن هذه القيم

من صميم الإسلام ودعوته . . . ويدل على هذا العموم والشمول نصوص الكتاب والسنة التي حددت الشهادة بالقتل في سبيل الله بلا قيد وشرط . ومن البداهة أن سبيل الله تعم وتشمل كل ما فيه خير وصلاح للناس بجهة من الجهات .

من خصائص الشهيد :

للشهيد خصائص ، منها البسالة والثبات ، والزهد بكل المغريات ، والأنفة من الخضوع والهوان ، والصمت عن الشكوى من أية بلية ، والشعور بالمسئولية عن الآخرين والتضحية بكل نفيس .

أما المفاضلة في الأجر عند الله بين شهيد وشهيد — فتجري على أساس النية وصدقها ، والعزم وقوته ، والثقة بالله وصلابتها قال سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ ٢٤ الأحزاب

وفي نهج البلاغة : العطية على قدر النية . وفي أصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) : إنما خُلّد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً ، وإنما خُلّد أهل الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً .

والمراد بمعصية الله هنا الكفر ، وبطاعته الإيمان ، بقرينة الخلود وإلا فان نية العصيان وحدها مجردة عن القول والعمل لا حساب عليها ولا عقاب ، والكفر بمجرده يوجب الخلود .

مرحباً بالموت :

سبقت الإشارة إلى ان نفسية الشهداء واحدة في كل زمان ومكان . . ، وليس أكثر من الشواهد على هذه الحقيقة ، ونشير هنا إلى شاهد واحد ، وهو ما كان من أمر فرعون والسحرة الذين جمعهم موسى . ولما تبين لهم الحق قالوا :

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ ﴾ الشعراء ٤٨ .

فهددهم فرعون بالصلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف . . . فردوه بقول حاسم :

﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا
مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ
مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ . ٧٣ طه

أبداً لن تدخل يا فرعون الباطل إلى نفوسنا ، ولن تُطفيء بظلمك وسلطانك جذوة الإيمان من قلوبنا ، ومرحباً بالموت على أيدي الطغاة . . . وهذا ما حدث بالذات لأصحاب الحسين بعد عشرين قرناً على التقريب حيث قالوا ليزيد الطاغية ما قال السحرة لفرعون : لن نؤثرك على ما جاءنا من الدلائل والآيات على اننا مع الحق وأهله ، وانك المفسد المبطل . . . وحاول الإمام الحسين أن يذهبوا عنه ، ويدعوه وحيداً حرصاً على حياتهم ، فأبوا إلاّ الموت معه وفاء لعهد الله ورسوله .

قوة الإيقان ونور الإيمان :

اشتهر عن الإمام أمير المؤمنين (ع) أنه قال : « لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » بالله سبحانه . . . وسواء أثبت ذلك عنه ، أم لم يثبت فهو عين الواقع ، وصورة عنه . . . والشاهد العدل أفعال الإمام قبل أقواله ، فقد كانت حياته كلها خوفاً من الله ، ووقفاً على طاعته وحده لا شريك له . . . واي عجب من هذا اليقين الذي لا حجاب دونه ؟ أليس الإيمان الحق يقيناً لا ريب فيه تماماً كن قد رأى وقد سمع ؟ وإلا فلا إيمان صادق . . . قال الإمام علي (ع) : لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، وقال : أعبد الله كأنك تراه ، ووصف المؤمنين بأنهم والجنة كن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كن قد رآها فهم فيها معذبون .

ويصدق هذا كل الصدق على أصحاب الحسين ، فقد كانوا واثقين بالفوز عند الله مستبشرين بنعمته وفضله . . . ولا أثر اطلاقاً للحزن والخوف من القتل في قلوبهم . سئل الإمام الصادق عن أصحاب الحسين واقدامهم على الموت ؟ فقال : « كُشف لهم الغطاء حتى رأوا منازلهم في الجنة » . والمراد بالكشف هنا نور الإيمان ، وقوة الإيقان .

وقال برير بن خضير الهمداني ليلة العاشر من المحرم : اني لمستبشر بما نحن لاقون . . . والله ما بيننا وبين الجنة إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم ، ووددت أنهم مالوا علينا الساعة . . . وكان الحر الرياحي ضد الحسين في بادىء الأمر . ولما جد الجد قال : والله إني أخير نفسي بين الجنة والله ، فوالله لا

أختار عليها شيئاً ولو قطعت وحرقت ، ثم انضم هو وابنه بكير إلى الحسين ودافعا عنه حتى الموت .

وليس هذا الكشف عن الجزاء علماً لدنيا ، ولا وحياً أو علواً إلى عالم الملكوت ، وإنما هو إيمان أصيل ، ويقين لا ريب فيه « ومن أيقن بالخلف جاء بالعطية » .

قبس من نور الحسين

لا علم بلا عمل :

قال الإمام الحسين عليه أفضل الصلوات :

« ما خلق الله العباد إلاّ ليعرفوه »

« فإذا عرفوه عبدوه ، وإذا عبدوه »

« استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه » .

المراد بمعرفة الله هنا عدم تجاهله والغفلة عنه بقرينة قوله : « إذا عرفوه عبدوه » . والمراد بعبادة الله العمل بأمره تعالى ونهيه بلاستثناء بقرينة قوله : « وإذا عبدوه استغنوا عن عبادة ما سواه » . ومن تتبع سيرة أهل البيت (ع) في أفعالهم وأقوالهم يؤمن إيماناً قاطعاً بأن العلم – عندهم وفي مذهبهم – موصول بالعمل ، وأنه يرتبط به ارتباطاً وثيقاً وعميقاً ، وأنه إذا وجد علم بلا عمل فهو علم في شكله وصورته ، وجهل في واقعه وحقيقته .

قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل والعمل يهتف بالعطل فان جابه وإلا ارتحل ... وفي أصول الكافي عن الإمام جعفر الصادق (ع) أنه قال في تفسير الآية :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر ٢٨ .

يعني بالعلماء من صدق فعله قوله ، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم . . . ومعنى هذا أن على الإنسان أن يعرف ما يجب عليه أن يعمله ، ولا يجب عليه أن يتعلم أي شيء إلا بمقدار ما يتوقف العمل عليه بالضرورة أي أن العلم يجب بالتبع لا بالأصل ، وكوسيلة لا كغاية .

وقال جماعة من علماء الكلام يجب العلم بالله لأنه منعم ، وشكر المنعم واجب ، ولايتم ذلك إلا بالعلم به تعالى ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. هذا هو الهدف الأول والأخير من العلم بالله : ان نسمع له ونطيع ، ولكن بعض المعممين يتخذون من اسمه تعالى أداة للتجارة ، ووسيلة للانتاج تماماً كالمصنع والمتجر ، والحقل والوظيفة .

لا ملك إلاّ بالله :

« من حاول أمراً بمعصية الله كان »
« أفوت لما يرجو ، وأسرع لمجيء ما يحذر » .

قد يفهم من كلام الإمام أن من طلب الدنيا بمعصية الله فلا يدرك منها شيئاً ، ويقع فيما كان يخاف ويحذر ! . . ولو صح هذا لأحجم الناس عن عن الحرام عجزاً لا نزاهة ، ولا كان لشريعة الفساد ، وجور الأوغاد عين ولا أثر .

وإذن فمراد الإمام أن من نال شيئاً بطاعة الله فهو حلال محلل . ومن رزق الله لا من رجس الشيطان . ومن ناله بمعصية الله فهو حرام محرم ومن

رجس الشيطان لا من رزق الرحمن . . قال الإمام أمير المؤمنين : « لا نملك مع الله شيئاً إلا ما ملكنا » أي إلا ما أذن لنا بحيازته والتصرف فيه وإلا فهو نهب وسلب .

الوفاء والاستكبار :

« الوفاء مروءة ، والاستكبار صلف »

المروءة : كمال الرجولة . والصلف : وقاحة وافتراء . . وللوفاء أبلغ الآثار وأنفعها في حياة الفرد والجماعة ، ولولا الوفاء بالعهود والمعاملات لاختل نظام الحياة . . وأيضاً لولا الوفاء للوطن لكان نهباً لكل طامع ، أما الوفاء للمبدأ والعقيدة فيجمع الفضائل بكاملها ، ومن هنا قيل : من لا وفاء له لا دين له ولا ضمير .

والاستكبار ضد التواضع ، والتواضع ان تقدر نفسك حق قدرها ، وتضعها في مرتبتها لا تعلو بها صاعداً ، ولا تهبط بها نازلاً ، لأن كلاً منهما تجاوز عن الحد والعدل ، ومتى تجاوز الشيء عن حده تحول إلى ضده .

للعالم علامتان :

« من دلائل العالم انتقاده لحديثه »

« وعلمه بحقائق فنون النظر ، ومن »

« أحجم عن الرأي ، وأعيته الحيل كان »

« الرفق مفتاحه »

ذكر الإمام للعالم علامتين :

الأولى : أن يبدي آراءه وأحكامه على سبيل التقريب ، ويتوقع الخطأ من نفسه ، ويتقبل النقد برحابة صدر . ولاحظت وأنا أقرأ وأتتبع أقوال العلماء أن الإنسان كلما اتسعت آفاقه وكثر علمه ضاق تعصبه ، أو تلاشى من الأساس ، ويتورع عن كلمة « هذا هو الحق دون سواه » . ويقول : ربما كان أو قد يكون الأمر كذلك . . وبقدر ما يقل علمه ويكثر جهله يزداد إصراراً على رأيه وتعصباً لقوله .

العلامة الثانية : « علمه بحائق فنون النظر » أي معرفته بأنواع الحقائق والتحديد الكامل لكل حقيقة ، والطريق إلى معرفتها ، فيستدل على الحقيقة الدينية بنصوص الكتاب والسنة ، وعلى الحقيقة الطبيعية بالمشاهدة والتجربة وعلى الحقيقة الفلسفية بالرؤية الذهنية ، وهكذا . . .

وقد تخفى عليه الحقيقة ، ولا يبصر طريقها ولو تابع النظر . . وعندئذ عليه أن يمسك ويتورع عن الحكم وإبداء الرأي وإلا أصيبت مقاتله . وقال واعظ حكيم : ان قلت : لا أدري علموك ، وان قلت : أدري فضحوك .

الحس والعقل :

« دراسة العلم لقاح المعرفة ؛ وطول التجارب زيادة في العقل » .

قال بعض القدامى : الفرق بين المعرفة والعلم أن المعرفة أخص بالمحسوسات والمعاني الجزئية ، والعلم أخص بالمعقولات والمعاني الكلية ، ولذا يقال : الباري يعلم ، ولا يقال : الباري يعرف . . . وذهب آخرون منهم إلى العكس وقالوا : العلم إدراك الجزئيات في حركتها وسيرها وقوانينها . والمعرفة إدراك الكليات والحقائق النهائية . أما الجدد القائلون بالوضعية المنطقية فإنهم ينكرون التعميمات الكلية من الأساس لأنها لا تعتمد على الحس والتجربة

بل على الخيال ورؤية الذهن . . وهذه الرؤية في نظرهم أشبه بمضغ الهواء .. وبالتالي يحصرون العلم والمعرفة معاً بالجزئيات وتفصيلاتها ونتائجها ، لأنها هي وحدها التي تقع تحت الحس والاختبار .

أما الامام الحسين (ع) فانه يقبل نتائج الحس والتجربة بدليل قوله : « دراسة العلم . . . وطول التجارب » . وأيضاً يقبل نتائج العقل وإدراكه المعاني الكلية والحقائق التي تقع فيما وراء الحس والتجربة بدليل قوله : « لقاح المعرفة وزيادة في العقل » ويرى أنه لا غنى للعقل عن الحس ، ولا للحس عن العقل تماماً كالشجرة لا تثمر بغير لقاح ، ولا لقاح بلا شجرة .

الجبن والقسوة

« شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء والقسوة على الضعفاء » .

لئيم جبان يتحكم برقاب العباد ، فماذا تكون النتيجة غير الشموخ والتجني على الرعية كأثر من اثار اللؤم والضعة ، وغير الركوع لعدوان المعتدين ، وغارة المغيرين كثمرة من ثمرات الجبن والخوار .

ولا أدري هل يصدق هذا الوصف على حكام العالم والمسلمين في هذا العصر ؟ . . يجبنون عن اسرائيل ، ويتنمرون على المستضعفين من رعيتهم ! . . وتسأل : ما قولك بهذا الحكم المشهور : « كما تكونون يولى عليكم » ؟ . . أليس معنا أن للأشرار حكاماً من فصيلتهم ؟ .

الجواب :

معناها أن كل من سكت عن الحاكم الجائر ، ولم يعلن الحرب عليه ،

كما فعل أبو ذر ، فهو مثله . والدليل على إرادة هذا المعنى قول رسول الله (ص) : « الساكت عن الحق شيطان أخرس . . . أفضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر » . وأيضاً روى الإمام الحسين عن جد : « من رأى سلطاناً جائراً . . . ولم يغير بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله » .

المال :

كل مالك قبل أن يأكلك

وهذا تلخيص كامل لقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ
يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ
لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴾ . ٣٥ التوبة

الأدواء الثلاثة :

« لولا ثلاثة ما وضع ابن رأسه لشيء : الفقر والمرض والموت » .

الموت محطم الآمال ، وهادم اللذات ، والفقر نزع بلا موت ، والمرض يحيل الحياة إلى جحيم . . . وإذا كان لكل شيء جهة سلب وإيجاب . وخير وشر فجهة الخير في كل واحد من هذه الأدواء الثلاثة أنه يكبح من شموخ الإنسان وغروره وكبريائه ، ولولا ذلك لأخذته العزة بالإثم .

وإذا لم يكن من الموت بد لأنه من السماء لا من الأرض فان مشكلة الفقر وأكثر الأمراض أو الكثير منها هي من صنع الإنسان لا من إرادة الرحمن تماماً كالجهل ... والحل مجانبة الطب والتعليم ، والعدالة الاجتماعية ، بشراكة الفقير للغني في أمواله . فقد جاء في كتاب الوسائل عن الإمام جعفر الصادق (ع) : « ما افتقر الناس ولا جاعوا ولا عروا إلاّ بذنوب الاغنياء . . . وذلك ان الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يكتفون به ، ولو علم ان الذي فرض لهم لا يكفيهم لزادهم ، وإنما يؤتى الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة » أي من الأغنياء لا من الله ودينه وشريعته .

وفي نهج البلاغة : « ان الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » أي كلما ازداد الأغنياء غنى ازداد الفقراء فقراً ، وكلما مات غني من التخمة مات الألوف من الجائعين وما من عاقل منصف يجادل في هذه الحقيقة .

الحسين يهرب
من عدل الله إلى رحمته :

أجل ، يهرب سيد الشهداء من عدل الله سبحانه ، ولا يهرب من كربلاء . . . وأي عجب ؟ أليس عذاب الله حق وعدل ؟ وكل مؤمن بالله يهرب من عدله إلى رحمته ، ويلجأ منه إليه .

وبعد ، فقد كتبت ونشرت أكثر من مرة عن مناجاة أهل البيت وفلسفتها ، وما زلت استشعر الظمأ إلى هذا الحديث الخاشع الآسر . . . وقد يظن أن الدافع والباعث لهذا الظمأ هو ولائي للنبي وآله . . . وليس كذلك ، وان جرى حبهم مني مجرى الروح والدم ، بل يكمن السر في روح الصفوة والعترة

الطاهرة ، وفي عقلهم ولحمهم ودمائهم التي فارت وثارت لله ، واستشهدوا في سبيله رضعاً في المهد ، وشباباً كالزهر ، وشيوخاً كالبدر عند تمامه .

والآن تعال معي إلى هذا المعين الفريد . . . قال عليه ازكى الصلوات من دعاء كان يدعو به يوم عرفه :

« إلهي أنا بين يديك . . . لاذو براءة فاعتذر »

« ولا ذو قوة فانتصر ، ولا ذو حجة فاحتج بها »

« ولا قائل لم أجترح ذنباً ، ولم أعمل سوءاً . . . »

« إنك وأنت الحكم العدل . . . وعدلك مهلكي »

« ومن كل عدلك مهربي . . . إن عذبت فبذنوبي »

« وإن عفوت فبجودك . . . لا إله إلاّ أنت »

« سبحانك إني كنت من الموحدين . . . لا إله إلاّ أنت »

« سبحانك إني كنت من الخائفين . . . لا إله إلاّ أنت »

« سبحانك إني كنت من الراجين » .

هل هذه حروف وكلمات ، أو وحي وعبقات ، أو صلاة واستغفار ، ودعاء واعتذار ؟ . . انها نشوة غاب معها الحسين عن كل شيء حتى عن نفسه ، وما رأى إلا الواحد الأحد الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد . . . وإذن كيف ؟ وبماذا يعتذر ، وقد نسي العلم والعمل ؟ وبأي شيء يحتج ، وحجة الله أقوى وأعظم ؟ وبأية قوة يذب ويدافع ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ومن الله ؟ . ، فلم يبق إلاّ الهرب من العدل إلى الرحمة . . . وأي شيء أجمل من أن يفر العبد من غضب سيده إلى لطفه وحلمه بخاصة إذا كان السيد يُذكر عباده دائماً برحمته وتجاوزه ، لينالوا منها ما يشاؤون .

ولنفترض أن الحسين تذكر وذكر العلم والعمل ، والقتال والقتل في سبيل الله ، وجرى الحساب وقضى العدل بالأجر والتعويض ، فهل تكون النتيجة أكثر من عملية حسابية تجارية تقوم على أساس المعاوضة والمبادلة ، أو عملية امتحان ووضع علامات . . . وهيهات أن يرضى الحسين بمعاملة التاجر والتلميذ ، وتأبى عظمته إلاّ وسام الشرف والتقدير ممن في يده وحده الضر والنفع ، والخفض والرفع . . . وهنا مكان العزة والجلال .

رؤوس الشهداء

دفن الشهداء :

حدثت مذبحة كربلاء في أول سنة ٦١ هـ ، وبعد عملية الذبح قطعت الرؤوس ، فكانت ٧٨ بما فيها رأس الإمام وأهل بيته ، فاقتسمتها القبائل المحاربة كي تتقرب بها إلى ابن زياد ويزيد .

ودفن ابن سعد القتلى من شياطينه ، وترك جسد الإمام وسائر الشهداء بلا دفن ، وحين رحل من كربلاء بجيشه الظالم الآثم جاء قوم مجاورون من بني أسد ، وصلوا على جثث الشهداء الأطهار ، وأقاموا رسماً على قبر الحسين لا يدرس أثره على كر الليالي والأيام ، كما في كتاب كامل الزيارة عن الإمام زين العابدين (ع) .

دفن الرؤوس :

الثابت أن الرؤوس الزكية حملت من كربلاء إلى الكوفة لابن زياد ، ومنها إلى دمشق ليزيد بن معاوية بطلب منه ، ثم أعيد رأس الإمام الحسين إلى جسده الشريف ، ودفن معه . . . هذا هو المعروف عند الشيعة والمشهور بين علمائهم ، ومنهم الشيخ الطوسي والشريف المرتضى وابن نما أستاذ صاحب الشرائع وابن طاوس وغيرهم . . . وقال سبط ابن الجوزي الحنبلي في تذكرة الخواص : أشهر الأقوال أن رأس الحسين ردّ إلى الجسد بكربلاء ، ودفن معه .

أمّا سائر الرؤوس فيقول الثقة الأمين السيد محسن في الجزء الرابع من كتاب أعيان الشيعة :

« رأيت بعد سنة ١٣٢١ هـ. مشهداً بدمشق في المقبرة المعروفة بمقبرة باب الصغير ، وفوق باب المشهد صخرة كتب عليها : هذا مدفن رأس العباس ابن علي ورأس علي بن الحسين الأكبر ورأس حبيب بن مظاهر . . . وبعد سنين أعيد بناء هذا المشهد ، وأزيلت الصخرة ، وبُني الضريح داخل المشهد ، ونُقش عليه أسماء كثيرة لشهداء كربلاء . . . والظن قوي بصحة نسبة هذا المشهد إلى الرؤوس ، لأنها حُملت إلى دمشق وطافوا بها للتشفي وإظهار الغلبة ، وبعد هذا لا بد أن تدفن في إحدى مقابر دمشق . . . فدفنت هذه الرؤوس الثلاثة في مقبرة باب الصغير ، وحفظ محل دفنها » .

ويومىء دفْن هذه الرؤوس الثلاثة في دمشق إلى أن سائر الرؤوس أيضاً مدفونة في دمشق ، اما في مقبرة باب الصغير ، واما في غيرها ، ودفنت الرؤوس الثلاثة وحدها لمكانة أصحابها وشهرتهم .

الأسرى :

كان بين الأسرى السيدة زينب وسائر نساء الحسين ، والإمام زين العابدين (ع) والحسن بن الحسن المثنى ، وكان قد أثخن بالجراح . وعن كتاب العقد الفريد أن الغلمان المأسورين كانوا اثني عشر غلاماً ، وفي رواية ان الإمام الباقر (ع) كان موجوداً مع الأسرى .

بناء القبر :

كان على قبر الإمام الحسين سقيفة ومسجد في عهد الأمويين واستمر ذلك إلى عهد هارون الرشيد ، فهدم البناء وكرب موضع القبر ، وكان عنده سدرة فقطعها . وأعيد البناء في عهد المأمون ، وهدمه المتوكل ، ولما قتله ولده المنتصر أمر ببناء القصر الشريف ، وحين حكم البوهيون عظموا العتبات المقدسة في العراق ، وزادوا في بنائها .

والعمارة الموجودة الآن على مرقد الإمام الحسين أمر بها السلطان أويس الإيلخاني سنة ٧٦٧ هـ وتاريخها موجود فوق المحراب القبلي مما يلي الرأس الشريف ، وأكملها أحمد بن أويس سنة ٧٨٦ هـ وقد زيد فيها شيئاً فشيئاً حتى بلغت إلى ما نراه الآن من الفخامة [1] .

هيكل والأماكن المقدسة :

ألف الدكتور محمد حسين هيكل كتاب « الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة » ذكر فيه الكعبة الشريفة والمسجد الحرام ، والروضة النبوية المقدسة ، والمسجد الأقصى ، وكنيسة القيامة في بيت المقدس ، وكنيسة

---

(١) تلخيص من كتاب أعيان الشيعة ج ٤ . وفي كنوز كتاب الأعيان الذي تجاوز أكثر من خمسة وخمسين جزء لآلىء وشذرات منثرة فيه هنا وهناك — لو جمعت في كتاب بهذا الاسم لكان فريداً في بابه . وعلى سبيل المثال تتبعت العديد من الكتب بحثاً عن دليل من طرق السنة على وجوب « حي على خير العمل » في الأذان فما وجدت ضالتي إلا في الجزء الأول القسم الثاني من أعيان الشيعة . أقول هذا مع تقديري لما ذكره صاحب دلائل الصدق في ذلك .

المهد في بيت لحم ، ومبكى اليهود . . ذكر هيكل كل أولاء وتجاهل العتبات المقدسة في العراق ، ومشهد الرضا في إيران ، وقبور الأئمة الأطهار في البقيع .

وليس من شك أن الكاتب الفهيم لا يقدم لقرائه أي شيء من غير سند وأساس . . فإن كان المعيار عند هيكل كثرة الزائرين والجم الغفير فإن الذين يؤمون قبور العترة الطاهرة في كل ساعة يعدون بالمئات ، وفي كل يوم بالآلاف ، وفي كل سنة بالملايين ، وان كان المقياس عظمة صاحب القبر وتاريخه وآثاره فإن شهرة علي والحسين في هذا الميدان لا يعذر بجهلها كاتب بخاصة العربي ، وبالأخص المسلم . . وإذن فلا مبرر لموقف هيكل إلا روح التعصب والتحامل .

مبكى اليهود وكنيسة المهد من الأماكن المقدسة عند هيكل أما قبور العترة والآل فهو بها من الجاهلين ! . . ولماذا ؟ وهل من ذنب إلا أن الله قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وأوجب مودتهم والصلاة عليهم ! . . جاء في صحيح البخاري أن الصحابة سألوا النبي كيف يصلون عليه ؟ قال فقالوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . . ومع هذا تركوا الصلاة على آله عن قصد وتصميم . . حتى راوي هذا الحديث بالذات صلى على النبي عند ذكره وترك الصلاة على آله ! . . أليس معنى هذا سمعنا وعصينا تماماً كما قال الذين أشربوا في قلوبهم العجل (أنظر الآية ٩٣ من البقرة) .

النبوة والامامة

الشيعة والفلسفة الإسلامية :

قرأت في مجلة المجلة المصرية العدد ٩٥ تاريخ ١١ — ١٩٦٤ مقالاً للدكتور عبد الرحمن بدوي بعنوان « نظرة جديدة في الفلسفة الإسلامية » تحدث فيه عن كتاب « تاريخ الفلسفة الإسلامية » تأليف هنري كوربان الأستاذ بالمدرسة العلمية للدراسات العليا في كلية الآداب بالسوربون . . وبعد أن أثنى الدكتور على الكتاب وصاحبه قال :

الجديد في هذا الكتاب أنه أعطى للشيعة من الفلسفة الإسلامية نصيب الأسد . . فقد كتب عن المذاهب الشيعية ١١١ صفحة ، وعن مذاهب أهل السنة ٢٦ صفحة فقط . . وأيضاً أعطى أهمية كبرى لفلاسفة الشيعة مثل مير داماد وملا محسن الفيض وعبد الرحمن لاهيجي وقاضي سعيد قمي وصدرالدين الشيرازي والسيد حيدر الآملي والجلال الرواني وابن كونة ومحمود شبستري ، ووضعهم كوربان في مصاف أعلام الفلسفة الإسلامية » .

ثم انتقد الدكتور بدوي المؤلف بلباقة وتهذيب قال : « نحن مع الذين يسعون لإنصاف الشيعة وإعطائهم حقهم في الدور الذي قاموا به في الحياة الروحية والعقلية في الإسلام ، ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك إجحاف

بدور السنة . . ولو كان في واقع الحال ما يبرر تفضيل الشيعة لكان هذا مفهوماً ، ولكن الحال على العكس ، وفي القليل أن السنة والشيعة متساويان في النصيب . . وقد يكون للمؤلف بعض العذر في أن يخص الشيعة بنصيب كبير . لأن الفلسفة الإسلامية لم تف بحقهم حتى الآن . ولكن بشرط عدم الإخلال بالتوازن » .

كتب كوربان عن فلاسفة الشيعة أكثر مما كتب عن فلاسفة السنة فعاتبه الدكتور بدوي بحرقة . واتهمه بالإجحاف وعدم الإنصاف ! . . ومن قبل كتب البدوي وغيره من السنة المعاصرين وغير المعاصرين ، وألفوا عشرات الكتب في الفلسفة الإسلامية ، وأجحفوا ولم يفوا بحق الشيعة وفلاسفتهم ومع هذا سكتوا وتجاهلوا ! . . وعلى أية حال نشكر الدكتور بدوي على إشارته إلى « أن كتب تاريخ الفلسفة الإسلامية لم تف بحق الشيعة حتى الآن ».

لسنا باطنيين :

والذي يهمني هنا مما نقله الدكتور بدوي عن كوربان هو قوله : « الفكر الشيعي يقوم على أساسين : التأويل الباطن . ثم الولاية . . ان النبوة قد ختمت بمحمد (ص) أي أنه آخر الذين جاءوا بشريعة جديدة للإنسانية بعد آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى [1] ولكن الشيعة يرون أن ختام

(١) المعروف أن أصحاب الشريعة من الأنبياء خمسة : نوح وابراهيم وعيسى ومحمد ، وآدم ليس منهم . قال سبحانه : « ولقد عهدنا لآدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً — ١١٥ طه . . . ونحن لا نعرف شريعة عيسى ولم نر لها أثراً ، وأقواله التي بين أيدي الناس كلها أو جلها وصايا ونصائح . والكنيسة هي التي تحلل وتحرم . وليس الأناجيل .

النبوة هو في الوقت نفسه بداية دور جديد هو دور الولاية أو الإمامة، وبعبارة أخرى أن النبوة تكملها بالضرورة الإمامة . والتعبير المباشر عن الإمامة هو الولاية ، ويعرفون الولاية بأنها باطن النبوة ، وإذن فدور الإمامة هو الباطن التالي للظاهر » .

والمفهوم من هذا الكلام أمران :

الأول : أن دور الإمامية عند الشيعة يبتديء من حيث ينتهي دور النبوة .. وهذه النسبة حق وصدق ، لأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وحده لا شريك له في هذه الولاية باتفاق المسلمين ما دام قائماً بينهم .

الأمر الثاني : أن الشيعة بشتّى مذاهبهم باطنيون يؤمنون بأن للاسلام أو للنبوة ظاهراً وباطناً . وأن الظاهر هو كلام الله في القرآن وسنة نبيه ، أما المعنى الباطن للإسلام فيكمن وراء ظاهر النصوص . ويبقى مستوراً إلى ما بعد النبي ، فيكشف عنه الإمام ويبلغه للناس . . وهذا المعنى الباطن هو حقيقة الدين وجوهره ، أما الذي بلغه النبي في الظاهر فهو مجرد قشر وغشاء !.. هذا مجمل ما فهمته من كلام كوربان ، كما نقله الدكتور بدوي .

بيان الحقيقة :

ويبدو من مقال بدوي أن كوربان يقيس جميع المذاهب الشيعة بمذهب واحد منها ، ويأخذ منه معياراً للحكم على سائر المذاهب دون استثناء . . فقد خلط بين الإسماعيلية الذي قيل بأنهم باطنيون وبين الشيعة الإثني عشرية الذين يرون التأويل الباطن خطراً على الدين، بل محقاً وهدماً له من الأساس وأرسل كوربان حكمه بضرس قاطع على كل شيعي بأنه باطني ، وأنه يعرف الولاية أو الإمامة بباطن النبوة ! .

وقد أجمع علماء الإثني عشرية قولاً واحداً في كتبهم وحلقات الدرس – أن ظواهر الكتاب والسنة حجة قاطعة في الكشف عما أراده الله ورسوله ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .
٣ فصلت

وقوله :

﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ ﴾ . ٥٤ النور

وقوله :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ .
١٣٨ آل عمران

وأيضاً استدلوا بهذه الآيات وغيرها على أن طريقة الشارع في الخطاب والبيان هي طريقة الناس بالذات من حمل الكلام على الظاهر ، وتفسيره بالمعنى المتبادر إلى الأذهان والأفهام . . ومن هنا حرموا الإجتهاد ضد النص وتأويله بغير الظاهر إلا إذا كان هذا الظاهر لا يتناسب مع جلال الله وعظمته وعندئذ نلتجيء بحكم العقل وبديهته إلى التأويل المألوف الذي يستسيغه كل عاقل كتأويل سمعه وبصره تعالى بالعلم ، ويده بالقدرة وعرشه بالملك والسيطرة .

وقال الشيعة الإثنا عشرية مجمعين : من خالف ظاهر النصوص القرآنية والمحمدية زاعماً أن وراءها معنى باطنياً يكمن في غيب الغيوب – فقد ابتدع في الدين ، وسعى في هدمه . وفيما يلي نشير إلى الفرق بين النبي والإمام ووظيفة كل منهما كما يعتقد الشيعة الإثنا عشرية .

وظيفة النبي :

للنبي مهام منها :

١ – ان النبي محمد (ص) يتلقى الوحي من الله سبحانه بلسان عربي مبين ، كما سبقت الاشارة ، ونعطف على ما تقدم الآية ٥٨ من الدخان :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

والآية ٢٤ من محمد :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

وقال الصحابة : يا رسول الله ما رأينا أفصح منك . فقال : ما يمنعني من ذلك ، « بلساني نزل القرآن ؟ .

ويستحيل في حق النبي أن يكتم حكماً من أحكام الله ، أو يظهر شيئاً ويضمر خلافه ، « معنى هذا أن شريعة الإسلام هي هذه الشريعة التي دلت عليها ظواهر نصوص الكتاب والسنة ، ولا باطن وراءها اطلاقاً ، أما قول كوربان أو عبد الرحمن بدوي : ان للاسلام عند الشيعة شريعة وحقيقة ، وان الحقيقة هي المعنى الباطن ، وان هذا الباطن لا يدركه إلا الإمام ، أما هذا القول فانّ الشيعة الاثني عشرية يتبرأون منه ومن قائله .

٢ – ان النبي يبلغ الناس عن الله اما اوحى به إليه دون أن يكون للذات النبوية امر أو رأي في الوحي أي ليس هناك شيئان : وحي ونظرية عن الوحي ، كما هي الحال في المجتهد بل وحي وكفى ؛ فمن سمع من النبي كأنه سمع

من الله سبحانه ، ولذا يسوغ القول : النبي لسان الله وبيانه ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ . ٣ - ٤ النجم

وان المراد من الهوى في هذه الآية الكريمة ما يشمل الرأي ، الاجتهاد .

واختلف علماء السنة فيما بينهم : هل يجوز للنبي الحكم بالاجتهاد فيما لا وحي فيه ؟ . فأجازه قوم ، ومنعه آخرون .

ولا موضوع لهذا البحث عن الاثني عشرية من الأساس :

أولاً : ان الإجتهاد يتطرق إليه احتمال الخطأ ، ولذا تتضارب الاقوال سلباً وايجاباً في المسألة الظنية الاجتهادية ، والنبي معصوم عن الخطأ والخطيئة .

ثانياً : ان الشريعة الاسلامية تامة كاملة بأصولها ومبادئها قال سبحانه :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . ٨٩ النحل

وقال الامام جعفر الصادق (ع) : « ما خلق الله حلالاً وحراماً إلا وله حد . . حتى ارش الخدش فما سواه » . وليس من شك ان النبي يعلم بكل سر طبع الله عليه كلامه وبيانه .

ثالثاً : لو قلنا بجواز الاجتهاد للنبي لفتحنا لاعداء الاسلام باب الطعن والتشكيك في أقواله واحكامه .

٣ - ان النبي يحرس الدين ، ويذب عنه ، ويسوس به الأمة ، ويحفظ

لكل ذي حق حقه ، ويجبي الفيء والزكاة . وينفقها على الجند والمجاهدين وفي سبيل الصالح العام ، وبكلمة ينفذ أحكام الدين وتعاليمه بما يراه من الوسائل . . وعلى الناس أن يسمعوا له ويطيعوا قال سبحانه :

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ
أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ . ٨٠ النساء

وظيفة الإمام :

إذا انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى انقطع الوحي ، ما في ذلك ريب . ولكن تبقى رسالة النبي بطبيعة الحال ، وإذا ختمت به النبوة كسيد الانبياء محمد (ص) وجب ان تكون شريعته للبشرية جمعاء. وأن تستمر إلى يوم يبعثون . كما جاء في الحديث: حلال محمد حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام إلى يوم القيامة .. ولا بد لكل شريعة ورسالة من وجود حارس يحفظها، ويقوم بأعبائها والا لم يكن لوجودها أي نفع وأثر ، ومن هنا استقرت الأنظمة في عصرنا على وجود هيئة تنفيذية لضمان سير العمل في الدولة على أساس المبادىء التشريعية .

والشيعة الاثنا عشرية يسمون القائم بأعباء الدين نيابة عن رسول الله – بالامام ، ويحرصون مهامه بالآتي :

١ – ان الامام يبلغ الأجيال كل ما بلغه النبي في حياته ، ولذا يجب أن يحيط علماً بالدين احاطة تامة كاملة كالنبي مع وجود الفارق في طريق العلم ، وهو أن النبي يأخذ العلم من الله سبحانه ، والامام يأخذه من النبي . . وكما ان الذات النبوية ليس لها أمر ولا رأي في الوحي وإنما هي ناقلة له ،

وحاكية عنه – كذلك ذات الامام لا امر لها ولا رأي إلاّ النقل عن رسول الله وكفى .

وتواتر عن أئمة أهل البيت قولهم : لا نحدث إلا بحديث جدنا رسول الله (ص) . وقال رجل للامام جعفر الصادق (ع) « رأيت ان كان كذا ما يكون القول فيه ؟ . فقال له الامام : ما أجبتك من شيء فهو عن رسول الله ، لسنا من أرأيت في شيء » أي ان قولنا ليس نظرية عن قول رسول الله كما هو شأن المجتهد ، بل هو قول رسول الله بالذات ، كما ان قول رسول الله هو عين قوله تعالى لا رأي فيه ولا اجتهاد .

٢ – ان الامام يحرس الدين، ويصونه من الادغال والتحريف، ويقوم بأعبائه ، ويصرف امور الناس بأحكامه تماماً كرسول الله (ص) .

وبهذا يتبين معنا أن وجود الامام عند الاثني عشرية هو امتداد لوجود النبي في حفظ الدين وصيانته ، وفي تبليغه وتعليمه ، وفي تنفيذه وتطبيقه ، ولا شيء وراء ذلك على الاطلاق . . أبداً لا تأويل ولا سر باطن وكامن وراء ما يدل عليه ظاهر النص ، وكان على كوربان وأمثاله أن يعرفوا هذه الحقيقة من كتب الاثني عشرية ، وهي في متناول كل يد ، وان ينسبوا الباطنية إلى أهلها ، والبدع إلى من هو أحق بها . لا إلى الشيعة عامة بما فيهم الاثنا عشرية الذين هم اكثر عدداً ، وأبعد صيتاً وأثراً من سائر المذاهب الشيعية .

لقد افترى علينا نحن الاثني عشرية من افترى ، وحملنا اوزار الغلاة والآن يحملنا بعض المؤلفين اثقال الباطنية ، ومن قبله قال صاحب الخطوط العريضة : التشيع لآل البيت شيوعية ! . . . ومهما قيل أو يقال فلن يزدنا ذلك إلاّ قوة فيما نعتقد ، وصلابة في الولاء للنبي وآله ، عليه وعليهم أفضل الصلوات ، وأزكى التحيات .

الناس أعداء ما جهلوا :

وضع علماء الشيعة الاثني عشرية قديماً وحديثاً - العديد من الكتب والمؤلفات فيما يدينون ويعتقدون ، ومنها على سبيل المثال : كتاب عقيدة الشيعة الامامية للسيد هاشم معروف ، وعقائد الامامية للشيخ المظفر ، واصل الشيعة وأصولهم لكاشف الغطاء . . وهذه الكتب الثلاثة لا تدع عذراً لمتعلل بجهالة ، لوضوح اسلوبها ، وحسن تبويبها ، ولكن ما الحيلة فيمن يكتب دون أن يقرأ ، ويلوم قبل أن يفهم ؟ .

وفي سنة ١٩٧٠ صدر كتاب « القرآن محاولة لفهم عصري » تأليف الدكتور مصطفى محمود : . وقال فيه : ان الاثني عشرية من الفرق الباطنية تماماً كالبابية ! . . فكتبت إليه ان الاثني عشرية أبعد الناس عن هذه البدعة والضلالة ، وارشدته إلى المصادر فاستدرك مشكوراً في الطبعة الثانية .

وأغرب ما قرأت أن عصمة الانبياء ابتدعها الشيعة من أوهامهم ، ولا أساس لها اطلاقاً في كتاب الله وسنة نبيه ! . . والذي قال هذا يكتب ويؤلف في مقارنة الأديان ويحمل شهادة الدكتور من جامعة كمبردج ، ويشغل منصب المركز الثقافي في بعض البلدان . . وفوق ذلك هو استاذ جامعي يدرس التاريخ الاسلامي والحضاري في جامعة من الجامعات ، كما عرف هو بنفسه . . ومن جملة ما قال في كتاب مقارنة الأديان ج ٣ ص ١١١ طبعة سنة ١٩٦١ :

« الشيعة يرون أن الرسول لو لم يكن معصوماً لقلتْ به الثقة ، وانتفت فائدة البعثة ، ولهم - أي الشيعة - كتب في ذلك ، وأهمها تنزيه الانبياء للشريف المرتضى . .

والعجب ان القول بعصمة الانبياء تسرب إلى السنة ، «أصبح رأي جمهور المسلمين» .

وليس من شك ان الدكتور المذكور قد سمع بوجود القرآن ، وانه المصدر لدين الإسلام . . ولكن يبدو أنه لم يقرأ قوله تعالى في وصف نبيه الكريم :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ . ٣ النجم

وقوله سبحانه في وصف أهل البيت :

﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

٣٣ الاحزاب

وهكذا تجري أقلام القرن العشرين ، فتصف الأديان وملايين الناس بلا معيار ومسئولية حتى كأنها تتحدث عن حشرة ، أو ورقة على شجرة ! . . دكاترة ثلاثة : أولهم استاذ الدراسات العلمية ، والثاني يفسر القرآن تفسيراً عصرياً ، والثالث يكتب في الاديان ومقارنتها ؛ ثم ينكر على طائفة كبرى من المسلمين الايمان بآيات الله وطاعته ، اما الاول والثاني فقد رميا هذه الطائفة بالباطنية ، وهي مبرأة منها ومن قائلها . . وإذا كان هذا هو علم «العمالقة» الذين يكسبون الشهرة والمناصب بالكلام فكيف بالتلاميذ والأقزام ؟ . .

هذا شاهد يشهد على الذين يكتبون ويتحدثون عن الشيعة والتشيع ، وقس الغائب على الشاهد .

وبعد ، فان الذي يكتب عن الأديان ويحكم على أهلها – يتحمل مسئولية خطيرة . وعليه قبل شيء أن يشعر بهذه المسئولية حتّى يتثبت ويتفحص بنفسه المصادر الصحيحة للدين او المذهب الذي يكتب عنه كيلا يقع في التناقض مع الواقع ، ويكتب عن شيء ولا وجود له إلاّ في وهمه وخياله .

يا ابن البتول

فيا ابن البتول وحسبي بها دليلاً على كل ما أدعي
ويا ابن التي لم يلد مثلها كمثلك حملاً ولم ترضع

الفخر بالأنساب :

هوية الانسان بعمله لا بماله ونسبه ، قال سبحانه :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . ١٣ الحجرات

وقال تعالى :

﴿ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ . ١٠١ المؤمنون

وقال الرسول الأعظم (ص) لبضعته فاطمة : اعملي فاني لاأغني لك عن الله شيئاً . . . أجل ، إذا اجتمعت طهارة المولد مع الخلق الكريم والعمل الصالح فنور على نور ، وكثيراً ما يجتمعان . ويجري الفرع على الأصل وهذا ما أراده الشاعر الجواهري ، وكأنه يقول : « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

والفخر سائغ إذا كان بطاعة الله وخلال الحمد ، قال سبحانه :

﴿ أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ
كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ .
١٨ السجدة

وقد يكون الفخر والتفاضل راجحاً عند الإقتضاء. فقد فخر النبي (ص) بفصاحة قريش؛ وقال الامام امير المؤمنين لمعاوية: منا النبي ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم اسد الاحلاف ، ومنا سيد شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ؛ ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب .

وفخر الحسنان بجدهما سيد الكونين وبأبيهما وأمهما ، وقال الامام الحسين وهو يقاتل جيش الكفر و البغي : « انا الحسين بن علي » . اما خطبة ولده زين العابدين في مجلس يزيد وقوله : « انا انا الخ فهي أشهر من ان تذكر وحين قال المؤذن: اشهد أن محمداً رسول الله قال الامام ليزيد : هذا جدي أو جدك ؟ وفي نهج البلاغة : تعصبوا للوفاء . . ولطاعة البر . . والأخذ بالفضل والكف عن البغي . . والانصاف للحق . . واجتناب الفساد في الأرض .

من هي سيدة نساء العالمين ؟

في تفسير المحيط لابي حيان الاندلسي عند تفسيره الآية :

﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ
العَالَمِينَ ﴾ . ٤٢ آل عمران

ما نصه بالحرف الواحد « قال بعض شيوخنا: والذي اجتمعت عليه جماعة من العلماء انهم ينقلون عن أشياخهم أن فاطمة أفضل نساء المتقدمات والمتأخرات لانها بضعة من رسول الله (ص) .

وفي كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٣ : روى البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق طبعة ١٣٢٠ هـ بمصر ، عن رسول الله (ص) أنه قال : فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني . وفي مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٥٣ طبعة سنة ١٣٢٤ هـ بحيدر أباد: ان رسول الله قال لفاطمة : ان الله يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك .

أما قوله تعالى لمريم :

﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ
الْعَالَمِينَ ﴾ ٤٢ آل عمران .

فالمراد به عالم زمانها تماماً كقوله سبحانه :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ
وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
٨٦ الانعام .

ولا قائل بأن لوطاً أفضل من عيسى ، أو مساوياً له في الفضل ولا اسماعيل أفضل من أبيه ابراهيم الخليل (ع) .

لا يخشى إلاّ الله :

سبقت الإشارة إلى ان هوية الانسان بعمله . . . ولكنه ما هو نوع العمل الذي يجعل من صاحبه شيئاً مذكوراً عند الله والناس ؟ . .

الجواب :

لا يختلف عاقلان في ان كل عمل يحقق تقدماً على طريق الحياة ويترك للناس مفيداً ونافعاً بجهة من الجهات فهو خير وصلاح ، وصاحبه مشكور ومأجور .

ولا يقتصر الخير وينحصر بالجهاد والاستشهاد في سبيل الحرية والعدالة فمن ارشد ضالاً إلى الهدى ، أو اغاث ملهوفاً ، أو اجابه بكلمة حق ، أو أصلح ذات البين أو احيا ارضاً بعد موتها ، أو انشأ مصنعاً للدواء والغذاء ، أو مهد وقرب المواصلات ، او اخترع آله تنفع الناس أو اكتشف دواء شافياً من أي داء ، كل أولاء ومن إليهم من أصحاب الميمنة والمرحمة بلا ريب .

أجل ، ان المقام الأول والفضل الأكبر عند الله والناس هو للذين آمنوا بالحق ، وضحوا بالمهج من اجله ، قال سبحانه :

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ
وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ
فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾
٥٤ المائدة .

وقال في وصف انبيائه وأوليائه :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ
وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ
وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً ﴾ ٣٩ الأحزاب .

وقد بلّغ الامام الحسين (ع) رسالة الحق ، وجابه من اجلها جيش البغي والباطل ، وهو لا يملك الا الخوف من الله والتوكل عليه وحده . . وأعلن ذلك للالوف المؤلفة التي تظاهرت على قتله وقتاله ، وقال لهم فيما قال : « ألا واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد ، وكثرة العدو ، وخذلان الناصر . .

اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم . . ربنا عليك توكلنا وإليك انبنا وإليك المصير » .

اعقلها وتوكل :

وتسأل : ان التفويض إلى الله ، والتوكل عليه سبحانه يقتضي أولاً اعداد العدة وبذل الجهد . . اما أن تلقي زمام الناقة على سنامها ، وتتركها للضياع واللصوص بزعم الاعتماد على الله — فليس من التوكل في شيء. قال سبحانه:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ٦٠ الانفال .

وقال الرسول الاعظم (ص) : اعقلها وتوكل . . وقد تألبت قوى الشر على النبي (ص) وهو في مكة ، ولاقى الكثير من أذاهم فصبر حتى هاجر إلى المدينة ، وملك القوة الرادعة . وقال الامام أمير المؤمنين (ع) : « لولا قيام الحجة بوجود الناصر . . لألقيت حبلها على غاربها » ومعنى هذا أن الامام لو لم يجد من يناصره على معاوية لسكت عنه ، كما سكت عن غيره . . وما سلّم الامام الحسن الأمر لمعاوية إلاّ لقلة العدد ، وخذلان الناصر .

واذن كيف اعتمد الامام الحسين لحرب يزيد على التوكل مع علمه ويقينه بقلة العدد . وكثرة العدو ، وخذلان الناصر ؟ . ولماذا لم يصبر كما صبر جده وأبوه وأخوه من قبله ؟ .

.الجواب :

١ – لا يسوغ بحال أن نوجه النقد إلى أي انسان على عمل ، ونقول : لو فعل هذا كان افضل الا في ضوء أوضاعه وما أحاط به من ظروف وملابسات اما ان ننتقد ونلوم بلا مبرر وتمحيص للظروف الضاغطة القاهرة ، أو نقيس هذا على ذاك مع وجود المسافة البعيدة بين الاثنين ، أما إذا فعلنا شيئاً من ذلك فقد قلنا بلا علم ، وحكمنا بلا ورع .

٢ – ان معنى التوكل على الله سبحانه هو الاعتصام به وحده دون أحد من خلقه ، وهذا واجب على كل مخلوق قوياً كان أم ضعيفاً ، مطالباً بحقه أم مؤدياً لما عليه من واجب .. وكانت ظروف الامام الحسين تحتم عليه الاستشهاد في سبيل الله مع الاتكال عليه والاعتصام به . . ومن دعائه في اليوم الذي استشهد فيه : « اللهم إن تكن منعت عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه » .

وخير من النصر على يزيد أن يعرف الناس وكل الأجيال : من هم الأمويون ، وانهم أعدى اعداء الاسلام ونبيه ، وان أيسر شيء عليهم ان يقتلوا أبناء الرسول ، ويسبوا نساءه ، ويبيحوا المدينة المنورة ، ويرموا الكعبة المقدسة بالمنجنيق . . وان ينكث يزيد ثنايا سبط محمد (ص) ويقول : يوم بيوم بدر .

حين فتح النبي مكة المكرمة قال لأبي سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ . . قال : أما هذه فان في النفس منها شيئاً [1] ! . . وبقي هذا الشيء أو الحقد مامناً في نفوس الأمويين يتوارثونه ابناً عن أب ، واباً عن جد حتى ظهرت آثاره في مذبحة كربلاء واباحة المدينة ومكة ، والغدر بالامام الحسن وفي صفين وما إلى ذلك مما وضع له كتاباً خاصاً الدكتور نوري جعفر ، وهو كتاب الصراع بين الامويين ومباديء الاسلام .

---

(١) تاريخ ابن الأثير وغيره .

أما صبر النبي على المشركين في مكة فقد كان لصالح الاسلام ، وتثبيت دعائمه حيث كان الشرك هو الظافر ، المسيطر ، ولو قاومه النبي واستشهد لوأد الاسلام في مهده ، ولم يكن لكلمة التوحيد عين ولا أثر . . وأيضاً جاهد الحسين واستشهد هو وابناؤه واخوته وأصحابه . وسبيت بنات النبي . كل ذلك لمصلحة الاسلام والكشف عن أعدائه الذين ذاقوا وبال أمرهم ، وحاق بهم ما كانوا يمكرون . . قال العقاد في كتاب ابو الشهداء : « لم يذهب الأمويون ضاربين حتى ذهبوا مضروبين إلى آخر الزمان ، تلك جزيرة يوم واحد هو يوم كربلاء ، فإذا بالغالب في هذا اليوم أخسر من المغلوب » .

أما صلح الامام الحسن فنتحدث عنه في الفقرة التالية .

صلح الإمام الحسن :

تكلم جماعة من رجال الشيعة قديماً وحديثاً ، عن صلح الامام الحسن وثورة الامام الحسين . وعن الفرق بين ما تعرض له كل منهما من احداث ، ووضعوا في ذلك كتباً خاصة ، وأثبتوا بمنطق الحس أن الامامين الأخوين يصدران عن مورد واحد ، وهو مصلحة الاسلام والمسلمين . وان كل واحد منهما فعل ما يجب أن يفعل . . وآخر ما قرأت في هذا الموضوع كلمة طيبة للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في أول الجزء الثاني من كتاب الامام الحسن للشيخ باقر شريف القرشي .

« يتلخص محل الشاهد في هذه الكلمة أن معاوية غمرته المسرة بقتل ابي السبطين ، ولكنه ضاق ذرعاً ببيعة الامام الحسن سبط النبي وريحانته ، وحبيب المسلمين . . وسرعان ما وجد معاوية مخرجاً من هذا الحرج . فأفسد جيش الامام الحسين بالمال والرشوة ، وعرض الصلح على الامام بشروطه حيلة

وغيلة تماماً كرفع المصاحف في صفين . . وكان جمهور الناس يتلهفون على السلم بعد أن عضتهم الحرب بأنيابها ، وأصبحت الدعوة إلى الحرب ثقيلة وبيلة .

وهنا تأزمت ظروف الحسن . . إن آثر الحرب على السلم قالوا : أراق دماء المسلمين ، وان كان هو المغلوب – وهذا هو الأقرب – فأول كلمة تقال : لقد قتل نفسه وألقى بها إلى التهلكة . . فكان الصبر على الصلح أحجى فصالح وفي العين قذى ، وفي الحلق شجى على حد ما قال ابوه امير المؤمنين . . ثم قال كاشف الغطاء : أراد الامام الحسن فيما اراد من الصلح أن تنكشف نوايا معاوية للملأ ، لأن الناس يحاسبون على المواقف العلنية . . فلو لم يكن لصلح الحسن من نفع الا افتضاح معاوية ومعرفة الناس بكفره الكفي ، ولولا هذا الصلح ما استلحق معاوية زياداً بأبي سفيان ، ولا قتل حجر بن عدي ، والصحابي الجليل عمرو بن الحمق ، ولا سقى السم لسبط النبي ولا أخذ البيعة ليزيد .

هذا ملخص ما قاله الشيخ الاجل ، ومنه نعرف الفرق بين ظروف الحسن وظروف الحسين . . عرض معاوية الصلح على الحسن بكل ما يريده من الشروط ، اما يزيد وابن زياد فقد عرضا على الحسين النزول على حكمهما الجائر يفعلان به ما يريدان ، أو قطع الرأس ورض الصدر والظهر . . وأشار الامام الحسين إلى ذلك بقوله : ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين : بين السلة – أي استلال السيف – والذلة وهيهات منا الذلة . . لا والله لا أعطيكم بيدي اعطاء الذليل ، ولا أقر لكم اقرار العبيد » .. وسأل الحسين ابن زياد وجيشه ان ينصرف إلى المكان الذي جاء منه ، أو أي مكان آخر ، ويدعوه وشأنه ، ويترك لهم الملك والسلطان ، فأبوا الا أن يبايع أو يقتل .

ومع هذا الفرق الكبير والبعد الشاسع بين ظروف كل من الامامين – هل يسوغ لعاقل أن يقول : كان على الامام الحسن ان يستشهد كما استشهد الامام الحسين ؟ . . ان الحسن اخو الحسين لأب وأم ، وهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا رسول الله (ص) وقد صالح الاول ، واستشهد الثاني طاعة لله ، واخلاصاً لعباده ، ودفعاً للضرر الأشد بالضرر الأخف ، لا رهبة من الموت ولا رغبة في الحياة . . ابداً لا شيء الا مصلحة الاسلام والمسلمين .

القرآن وعلماء الاقتصاد والاجتماع :

قرأت في جريدة الاهرام ٤ – ١٢ – ١٩٧٤ مقالاً بعنوان مقياس الحضارة بقلم الدكتور زكي نجيب محمود ، قال فيه : ان جماعة من علماء الاقتصاد والاجتماع أرادوا أنيضعوا معياراً يقيسون به الأمم تقدماً وتخلفاً فكان أول ما وضعوه على بساط البحث هو متوسط دخل الفرد ، وانه هل يصلح معياراً لحضارة الامة بحيث يقاس تقدمها بارتفاعه ، وتخلفها بانخفاضه . . ثم انتهوا إلى ان حياة الانسان كثيرة الابعاد ، متشعبةالاطراف ،وانها لا يتجزأ ، والحضارة حصيلة لها جميعاً ، وليس لأرقام الانتاج والدخل فقط . . وبكلمة اتفقوا على ان الانسانية لا تحيا بالخبز فقط . . فإذا ارتفع مستوى الدخل بمقدار خمسين بالمئة – مثلاً – فلا يرتفع مستوى الوعي والثقافة ، والخلق والصحة ، والأمن والحرية – بمقدار خمسين بالمئة .

لهذا بحث علماء الاقتصاد والاجتماع عن معايير أخرى إلى جانب ارتفاع المستوى الاقتصادي ، وفي نهاية المطاف اتفقوا على أن الحضارة تقاس بتوافر العوامل التالية :

١ – رعاية الصحة العامة رعاية دقيقة وحكيمة وقاية وعلاجاً .

٢ ــ التربية الصحيحة ، وهي التي تعمل على تطور الشخصية الانسانية بكل طاقاتها وممكناتها . . والا فقد تنفق الدولة الملايين على التعليم دون أن ترفع الناس إلى درجة الحضارة والاستنارة، وانما تخرج حملة شهادات يؤمنون بالخرافة . ويتعصبون للجهالة .

٣ ــ تكافؤ الفرص بين الناس ، وتهيئة العمل لكل حسب موهبته ومؤهلاته .

٤ ــ ضمان الأمن والحرية ، والعدل والمساواة ، وسيادة القانون سيادة يخضع لها الجميع لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وكبير وصغير .

بهذه الشروط مجتمعة تتحقق الحضارة ، ويكون للحياة لونها الجميل ، وطعمها اللذيذ . ووزنها الثقيل ، كما قال علماء الاقتصاد ، الاجتماع في هذا العصر ، ونصوص الكتاب والسنة تحث على طلب العلم، ورعاية الصحة، ، اقامة العدل ، وضمان الأمن والحرية والمساواة ، وكل ما يدفع بالحياة إلى الأفضل والأكمل . . وتمنيت لو أني قد اطلعت على مثل هذا المقال من قبل لاستشهد بكلمات منه في تفسير بعض الآيات . كقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .
٢٤ الانفال

وقوله :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ .

٩ الاسراء

« أي إلى حياة أفضل ، وغير ذلك من الآيات التي تحدد الاسلام ودعوة القرآن .

وبعد ، فان الحديث عن الحضارة والاستنارة ، والحياة الافضل والاكمل هو حديث عن الحسين والقرآن ، لأن كلاً منهما يهدي للتي أقوم .

من قتل الامام الحسين

الناصبي والمنافق :

الناصبي : من نصب العداوة لأهل بيت رسول الله (ص) . والمنافق : من ستر الكفر بقلبه ، وأظهر الايمان بلسانه ، قال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ .

٧٤ التوبة

قال المفسرون : ان خمسة عشر من المنافقين اتفقوا على ان يدفعوا رسول الله عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل وهو عائد من غزوة تبوك . . وكان رأس المنافقين في عهد النبي (ص) عبدالله بن أبيّ يقودهم ويجمع كلمتهم ضد الاسلام ونبيه .

ولا تخلو الأرض من منافقين يتآمرون على كل مخلص مناضل ، ويزيفون كل كلمة تدعو إلى خير . ويسخرون كل الجهود للتخريب والفساد في الأرض باسم الدين والحكمة والمصلحة العامة ، وإلى هؤلاء أشار سبحانه بقوله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ .

١١٢ الانعام

أي يلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون . . وبعض كتّاب العصر يسمون حركة المنافقين بالثورة المضادة .

الثورة ضد النبي وعترته :

كان أمر النبي مع المنافقين اكثر عسراً من أمره مع المشركين حيث أضمروا العداء واظهروا المودة . وكانوا يتآمرون على النبي ويكيدون له كيداً متواصلاً . . ومن بعده تآمروا على عترته وشيعتهم بالقتل والتشريد ، ومن لم يباشر القتل والتنكيل من المنافقين – التمس الاعذار الكاذبة لكل طاغية جار على آل الرسول ، ومن آمن بمودتهم وطهارتهم . . حتى صنع يزيد بالحسين اعتبروا طاعة لله ورسوله ! ! . . قال ابو بكر بن العربي في كتاب العواصم من القواصم ص ٢٢٢ طبعة سنة ١٣٧٥ هـ : « انعقدت البيعة شرعاً ليزيد ، لأنها تنعقد بواحد » ! . . حتى ولو كان هذا الواحد أباه معاوية ! . وقال في ص ٢٣٢ : « ما خرج أحد على حرب الحسين ولا قاتلوه الا بأقوال جده

رسول الله الكثيرة ، ومنها : « ستكون هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان » .

يزيد قتل الحسين بأمر رسول الله ، وطاعة لله ، وطلباً مرضاته ، ورغبته في جنته ! . . اما الحسين فلا عذر له لأنه خرج على امام زمانه الذي انعقدت له البيعة شرعاً بمجرد ما ارادها ابوه معاوية ! . . ولا أدري كيف جمع ابن العربي وأمثاله بين الإدعاء بأن الحسين قتل بسيف جده لأنه خرج على امامه يزيد ، وبين التماس العذر لعائشة ومعاوية وطلحة والزبير في خروجهم على الامام علي (ع) الذي بايعه الانصار والمهاجرون ؟

وقال محب الدين الخطيب الغريب معلقاً على قول صاحب العواصم في ص ٢٢٢ : لو ترك معاوية الأمر شورى بين المسلمين ، ولم يبايع يزيد لقامت الفتن والمجازر ولم يستقم للمسلمين نظام ! . . وايضاً قال هذا الخطيب المريب معلقاً في ص ٢٢٣ من كتاب العواصم : «كان يزيد من أهل العدالة ، مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير ، ملازماً للسنة ! . »

يزيد — عند صاحب الخطوط العريضة وصاحب العواصم — تقي نقي . . تحرى العدل بمذبحة كربلاء ، وأحيا السنة بوقعة الحرى ، وأقام الصلاة باستباحة الكعبة ! . . أرأيت إلى هذا البغض والعداء لله ورسوله وعترته ! . . وبأية حجة ترد على هذا المنطق ؟ . . اللهم الا ان تسلم وتعترف بأن يزيد تقي نقي في دين ابن العربي ودين المحب ليزيد وابن زياد ! .

وكل من قال : الحسين قتله الشيعة فهو على هذا الدين اللعين .

مودة القربى رفض وعار :

في كتاب الوسائل للحر العاملي أن الامام جعفر الصادق قال : « ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت ، لانك لا تجد رجلاً يقول : أنا أبغض محمداً وآل محمد ، ولكن الناصب من نصب لكم – أيها الشيعة – وهو يعلم انكم تتولونا وانكم من شيعتنا » .

ان الشيعة يتحرجون عن الإساءة إلى أي مخلوق ، ويقفون دائماً موقف المدافع ، وذنبهم الوحيد مودة القربى الذين أذهب الله عنهم الرجس لأن هذه المودة رفض وعار عند الخوارج والنواصب ، ومن هنا قال الامام الشافعي :

ان كان رفضاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافضي

وقال الكميت :

بأي كتاب أم بأية سنة   ترى حبهم عاراً علي وتحسب

وقال ابن أبي الحديد في مدح الإمام علي (ع) :

ورأيت دين الاعتزال وانني   أهوى لأجلك كل من يتشيع

والعكس صحيح . . قال أمير المؤمنين (ع) : أعداؤك ثلاثة : عدوك وعدو صديقك ، وصديق عدوك . . وما قال الشافعي والكميت ما قالاه الا رداً على من زعم أن حب العترة والآل الأطهار رفض وعار ! ! . . ومن هذا الزعم الكافر انطلق الإفتراء على كل الشيعة – بما فيهم الاثنا عشرية – بالغلو تارة ، وحيناً بالتأويل الباطن ، واخرى بأن الشيعة هم الذين قتلوا

الحسين ! . . واشرنا إلى الفرية الاولى والثانية في فصل النبوة والامامة . وفيما يلي نجيب عن الثالثة .

الشيعة وقتل الحسين :

قال صاحب العواصم من القواصم : ان الذي قتل الحسين هو جده رسول الله حين قال : من فرق الأمة فاضربوه بالسيف ، كما تقدم ، وقال آخر : ان الحسين قتله الشيعة ! . . والهدف من هذين القولين واحد ، وهو الدفاع عن عصمة يزيد من الخطأ والخطيئة ! . . وليس من شك ان الشيطان لا يطلب من الانسان أكثر من ذلك .

الجواب :

١ – كل من أمر أو حضر أو رضي بقتل الامام الحسين فما هو من الاسلام في شيء . .حتى ولو صلى وصام وحج إلى بيت الله الحرام ، لأن الدين عند هذا مجرد نعق ولعق على لسانه على حد ما قال الامام الحسين .

٢ – يزيد أمر بالقتل ، وابن زياد سمع وأطاع ، فجمع وجنّد ، وابن سعد قاد وباشر . . فأي واحد من هؤلاء كان شيعياً ولو بالاسم أو الولادة . . أما الكثرة الكاثرة من السواد والعلوج فمنهم المرتزق السالب ، ومنهم اتباع كل ناعق ، ومنهم من كان على التشيع ، ثم مرق وخرج مع الخوارج . . ولاأنفي – كما فعل أخ مؤمن ومخلص – أن يكون بينهم شذاذ مستضعفون من الشيعة قد هدّدوا بقطع الاعناق والارزاق . ولكن الشاذ الضعيف لا يصنع الحروب ، ولا تأثير له في الأحداث . . وسبب الأسباب من مذبحة كربلاء

هو يزيد الحاكم بأمره ، ولا شيء أدل على ذلك من نكثه ثغر الحسين بقضيبه[1] وقوله :

ليت اشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً   ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف ان لم انتقم   من بني احمد ما كان فعل

ومن المؤكد أن جنود يزيد استباحوا الكعبة المقدسة ، ورموها بالمنجنيق ، وانهم استباحوا المدينة المنورة ثلاثا ، يقتلون الرجال والأطفال ويفسقون بالنساء، وان هؤلاء الجنود كانوا كلهم من أهل الشام ليس فيهم شيعي واحد، بل ولا عراقي أو حجازي .

٣ — ان التدين والتمذهب لا يكون بمجرد الاسم والكلام ، ولا بالولادة والانتساب ، وانما بصالح الاعمال التي يحددها الدين أو المذهب الذي ينتمي إليه من يدعيه . قال الامام علي (ع) : « بالايمان يستدل على الصالحات ، وبالصالحات يستدل على الايمان » . . وقد حدّد أهل البيت التشيع والولاء في العديد من أقوالهم . من ذلك ما جاء في الجزء الثاني من أصول الكافي ص ٧٣ وما بعدها طبعة ١٣٨٨ هـ عن الامام الباقر (ع) أنه قال :

« والله ما شيعتنا الاّ من أطاع الله . . انه لا يدرك ما عند الله الاّ بطاعته . . ولا يكفي أن ينتحل الرجل التشيع ويقول بحبنا أهل البيت ، فوالله ما شيعتنا الاّ من اتقى الله . . وليس بينا وبين الله قرابة ، ولا معنا من الله براءة من النار ، ولا نتقرب إليه إلاّ بطاعته ، ولا على الله لأحد من حجة ، فمن كان

(١) تاريخ ابن الأثير وغيره .

مطيعاً لله فهو لنا ولي ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو ، ولا تنال ولايتنا إلاّ بالعمل والورع » .

وأيضاً روى صاحب الكافي أن رجلاً قال للامام الصادق (ع) : ما نلقى من الناس فيك ؟ . فقال له الامام : وما الذي تلقاه في من الناس ؟ قال : يكون بيني وبين الرجل كلام فيقول لي : جعفري خبيث . فقال له الامام : ما أقل والله من تبع جعفراً منكم ، إنما أصحابي من اشتد ورعه ، ، عمل لخالقه ورجا ثوابه ، فهؤلاء أصحابي .

وبعد هذا كله ، فهل يسوغ لعاقل أن يقول : الشيعة قتلوا حسيناً ؟ . . واذن يسوغ له أيضاً أن يقول : الشيعة قتلوا علياً ، وسموا حسناً ، وذبحوا حجر بن عدي وأصحابه الخ . . وقد أفهم أن ينطق الانسان بالباطل ، وهو وحده يعلم بأنه باطل . . ولكني لا أفهم كيف يتمد الكذب ، وهو يعلم أن الناس على يقين من كذبه.. اللهم الا ان يكون مطبوعاً على الكذب والنفاق .

المعقول واللامعقول(1)

الدكتور زكي نجيب :

كل من قرأ للدكتور زكي نجيب محمود وفهم عنه – أدنى فهم – يشهد له بالأدب والذكاء والفلسفة ، اما النقد فله منه الحظ الأوفر ، وربما قسا أحياناً في لدغاته . . ويشفع له أنك ترى نفسه من خلال كلامه بغير قناع .

كم ألف من كتاب ؟ . لا أدري . وعندي من كتبه أكثر من عشرة وكلها أو جلها في الفلسفة ، وايضاً احتفظ بالعديد من مقالات كان قد نشرها في جريدة الاهرام ومجلة الفكر المعاصر .

وكان إلى أمد قريب – شديداً على كتب « التراث الضخمة التي تراكمت لدينا على مر القرون مما كتبه الميتافيزيقيون ، التي ينبغي لها أن تكون طعاماً لألسنة النار ، وأثقالاً في قاع المحيط » كما جزم وحكم في كتاب « قشور ولباب ، طبعة سنة ١٩٥٧ ص ٢٢٠ » . وكان عذره الوحيد آنذاك أنه فتح

---

(١) ربما يقال : ما علاقة هذا وأمثاله مما عرضت بالحسين والقرآن ؟ وجوابي هي علاقة الحسين بالإسلام ومحمد وعلي وشيعته هذا إلى أني رجوت فيما رجوت أن تكون هذه الصفحات مادة متواضعة لخطباء المنبر الحسيني عسى أن أشاركهم في الاجر . ولكل كاتب من ثواب الله سبحانه بمقدار ما ينتفع الناس بكلامه وبيانه مع صدق النية . والله من وراء القصد .

عينيه على فكر اوروبي ، وخاله كل شيء ، لا شيء سواه ! . ، لبث على هذه الحال أعواماً بعد أعوام حتى أسرف على نفسه التي ذابت في تيار الغرب . « ثم اخذته صحوة قلقة . . واستيقظ بعد أن فات أوانه . . وطفق يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان » على حد اعترافه المشكور في مقدمة « تجديد الفكر العربي وهو أول كتاب له عن التراث بعد اليقظة والصحوة ونشرته دار الشروق سنة ١٩٧١ .

المعقول واللامعقول :

وفي الشهر الأول من سنة ١٩٧٥ نشرت له هذه الدار كتاباً آخر عن التراث « المعقول واللامعقول » وهو أوسع من الأول وأضخم . وجاء في مقدمته : « أردت بهذا الكتاب أن أقف مع الاسلاف .. ثم استمع إليهم كأنني الزائر جلس صامتاً لينصت إلى ما يدور حوله من نقاش ، ثم يدلي فيه بعد ذلك برأيه » .

وأدلى الدكتور المستمع برأيه في العديد من الفرق والجماعات والافراد ، كالخوارج والاشاعرة والمعتزلة واخوان الصفا ، وكأبي حيان التوحيدي والغزالي وابن جني وابن الراوندي وغيرهم كثير . وأوضح الخطوط الاولى لتفكيرهم العقلي والخرافي : « المعقول واللامعقول » ورسم الخطوط كما رأى وأحس غير منحرف لمنفعة ، أو متعصب لعقيدة ، أو متحيز لتربية ووراثة ، وهذا معنى ما قاله في ص ٢٧ وما بعدها ، ونصه بحروفه : « لست اكتب هذه الصفحات كما يكتب المؤرخون . . بل كما يكتب الاديب الذي ينطبع بالحوادث من حوله ، فيقص على الناس ما قد أحسه في مجرى شعوره الواعي .

وقد وقفت أول ما وقفت عند هذه المعركة التي نشبت بين عليّ ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الخ ....

وبهذه الروح ، روح الاديب الواعي المتحرر وصراحته . تحدث الدكتور المؤلف عن نهج البلاغة ووقعة الجمل وصفين والنهروان وجاء صدقه هنا على قدر علمه ، وجرأته على قدر نزاهته . وفيما يلي نذكر طرفاً مما قال حول النهج وأصحاب الجمل وصفين مغرس الفتن ، ومصدر ما حل بالاسلام من محن وفي طليعتها محنة كربلاء .

نهج البلاغة :

تحدث الكاتب « الزكي » عن نهج البلاغة وأطال ، ونقطف من حديثه هذ الباقة : « لنقف وقفة عند الامام عليّ رضي الله عنه لننظركم اجتمع في هذا الرجل من أدب وحكمة وفروسية وسياسة . . عرفت نهج البلاغة في صدر الصبا . . وبقيت منه نغمات في أذني . . وها انا ذا أعيد القراءة هذه الأيام ، فإذا النغمات تزداد في الاذنين حلاوة ، وإذا العبارات كأنها طلاوة إلى طلاوة . . ولست أعني زخرف الكلام، بل اعني طريقة في اختيار اللفظ الصلب الذي لا يقوى على تشكيله الا إزميل تحركه يد المثال الذي يتخير لتماثيله صمّ الجلاميد، ليبقى عملاً أقوى من الدهر دواماً وخلوداً . . ان اللفظ قد نحت من حجر صوان وصفّ بعضها إلى بعض صفاً عجيباً » .

وقال عن فلسفة الامام (ع) : « انها ومضات فكرية تنفذ إلى صميم الحق ، وخبرة شخصية فريدة نابضة بحياة صاحبها. اما فلسفة الفلاسفة فهي تعميمات مجردة قريبة من معادلات الجبر وأشكال الهندسة لا تكاد تلمح فيها أثراً من حياة صاحبها الحميمة » أي ان فلسفة الامام هي الحكمة النابعة من

حياته وتجربته وفهمه العميق وعقله الكبير ونفسه الغنية ووجدانه الحي ، لا من السماع من ذا وذاك ، ولا من التصورات والأوهام .

وقال المؤلف في ص ٥٥ : « قلّب معي صفحات الرائعة الأدبية التي تُسمى بنهج البلاغة ، وقل لي : اين ينتهي الأديب ليبدأ الفيلسوف ؟ واين ينتهي الأديب ليبدأ الفارس ؟ ثم اين ينتهي هذا ليبدأ السياسي ؟ انه لا فواصل ولا فوارق ، ففي هذ المختارات خطب وأحكام وحجاج وشواهد امتزج فيها الادب بالحكمة ، والحكمة بالاريحية ، وهاتان بالسياسة » .

وفي ص ٥٧ : « والنصوص يطول بنا نقلها إلى القارىء ما طال نهج البلاغة ، فخير للقارىء أن يرجع إليه ليطالع نفساً قد اجتمع فيها ما يصور عصرها من حيث الركون في ادراك حقائق الامور إلى السلامة السليقة وحضور البديهة وصدق البصيرة بغير حاجة إلى تحليلات العقل وتعليلاته ، وإلى طريق المناطقة في جمع الشواهد وترتيب النتائج على المقدمات » .

معاوية وابن العاص :

وفي ص ٣٤ وما بعدها قال : « كان معاوية يعلق قميص عثمان واصابعه فيزداد اهل الشام غيظاً ، وإذا رفع القميص والاصابع فتروا عن طلب الثأر لعثمان ، فيحرضه ابن العاص ان يعلق القميص والاصابع ويقول له : حرك لها حوارها تحن - . وكان ابن العاص فيما يفعل ساعياً لدنياه دون آخرته ، ولقد صرح هو بذلك مرتين : مرة لولديه إذ هم في طريقهم إلى دمشق بعد بيعة عليّ ، ومرة لمعاوية حين لقيه بدمشق فأعرض عنه ، فواجهه عمرو بن العاص بالعتاب وقال له : والله لعجب لك ! - . أما والله ان قاتلنا معك نطلب بدم

الخليفة فان في النفس من ذلك ما فيها حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ، ولكن انما اردنا الدنيا » .

ثم علق المؤلف على ذلك بقوله : « واني لحريص على ان يلتفت القارىء إلى عمرو بن العاص في هذا الموقف ، وان يذكر أن عمراً هذا في موقفه هذا هو جوء من تراثنا ، وكذلك معاوية وعليّ هما جزءان من هذا التّراث ، فان كان أحد الثلاثة — أي عليّ — تسير خشية الله بما تستلزمه هذه الخشية من مُثل عُليا في النوايا والسلوك فاثنان — اي ابن العاص ومعاوية — تسيرهما الرغبة في الدنيا وما فيها من جاه وسلطان »

وفي ص ٥٤ : « أما وجه الغرابة التي لا نألفها في حياتنا المعاصرة فهو هذا الجمع العجيب والجميل في رجل واحد بين ان يكون هو الفارس الذي يجيد القتال بسيفه وجواده ، وهو السياسي الذي يجادل ويقاول ، وهو الاديب الذي يحسن صياغة اللفظ في أروع ما تكون الصياغة الادبية ، ان السياسي في يومنا هذا قد تكون له موهبة الكلام خطابة وكتابة ، لكنه لا يضيف إلى ذلك مهارة القتال وشجاعة المحاربين ، ثم لا يضيف إلى هذا وذاك حكمة الفلاسفة التي تنزع بصاحبها نحو ضم الكون كله في أحكام موجزة مركزة نافذة إلى صميم الحق ، لكن اجمع هذه الاطراف كلها في رجل يكن لك عليّ ابن أبي طالب » .

وهذ الجملة الجامعة المانعة : « ضم الكون كله في احكام موجزة مركزة نافذة إلى صميم الحق » هي الصفوة والنتيجة لدراسة نهج البلاغة ، وهي وحدها كافية في الرد على من تحذلق وتشكك في نسبة النهج إلى الامام ، لانه المرآة العاكسة للامام بالذات دون سواه .

طلحة والزبير :

وقال الدكتور زكي نجيب في ص ٦٥ : « اريدك ايها القاريء ان لا تنسى ان حرب الجمل كانت بين فريقين ، في أحدهما ام المؤمنين عائشة ، وفي الآخر عليّ بن أبي طالب الذي كان موقعه من النبي (ص) ما كان ! . فهل تصدق ان يقوم الزبير وطلحة في الناس يستحثانهم على القتال فيقولا في عليّ : انه لا يُبقي حرمة الاّ أنهكها ، ولا حريماً الا هتكه ، ولا ذرية إلاّ قتلها ، ولا ذوات خدر الاّ سباهن . . فمن منا نحن أبناء هذا العصر الحاضر الذين ملئت نفوسهم رهبة من هؤلاء الأوائل كادت تبلغ بهم حد التقديس والعصمة من الخطأ — من يرى هذا التقاذف بكلمات هي من أغلظ اللفظ بين ناس هم من هم في قلوبنا ، ثم لا يأخذ العجب والذهول » .

أجل يا دكتور ، ان طائفة من أهل الاسلام أخذ الذهول والعجب بقلوبهم من هذا الزور والبهتان تماماً كما أخذ بقلبك وعقلك ، وبقلب الرسول الأعظم (ص) حين اخبر الله سبحانه بارتداد من ارتد من الصحابة [1] ولكن فريقاً آخر أوّلوا هذا الافتراء بالاجتهاد وقالوا لكل عذر فيما افترى وارتأى حتى ولو خالف كتاب الله وسنة نبيه ! . . ولكن الدكتور زكي نجيب محمود صفع هؤلاء وأشباعهم بكلمة الحق وسجلها للتاريخ بوحي من دراسته العلمية ، وتمحيصه التراث بعقل وروية . وهكذا يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

(١) في صحيح البخاري ج ٩ ، كتاب الفتن : ان رسول الله (ص) يقول يوم القيامة : أي ربي أصحابي . فيقول له : لا تدري ما بدلوا بعدك ! . فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي .

وقال في ص ٦٧ : « هذا عليّ بكل مكانته من حيث هو أولاً ، ومن حيث قرابته للنبي (ص) ثانياً ، ومن حيث امارته الشرعية ثالثاً تقاتله على أرض الخصومة أم المؤمنين . . قال « نيبرج » : ظهور عليّ هو الخط الكبير الذي يفصل مجرى تاريخ الاسلام ، فانه بوسعنا أن نؤكد بأن معركة الجمل هي نقطة البدء لكل تطور سياسي وديني لاحق » . أي ان حرب الجمل بقيادة ام المؤمنين والزبير وطلحة هي الفتنة الاولى والأساس لكل ما حدث بين المسلمين من قتل وقتال ، وبدع وضلال ، وكوارث ونوائب ، وخوارج ونواصب .

الشهيد بن الشهيد الحسين بن علي[1]

بقلم الفريق : عبد الرحمن أمين المصري

كلما دار الفلك ، واستدار العام ، هرعت إلى ساحة هذا المسجد الطاهر ، حشود من المسلمين ، احياء لذكرى عزيزة عليهم ، حبيبة إلى قلوبهم ، هي ذكرى مولد سيد الشهداء ، مولانا أبي عبد الله الحسين ، خير من جاهد في سبيل الله حقاً وصدقاً ، وأحب الناس جميعاً إلى قلب رسول الله .

فحينما نحتفل بذكر مولده فانما نستعرض روضة من رياض الجنة ، نتنسم عبيرها ، وننعم بريحها وطيبها ، فلا شيء في الحياة يزكي النفس ، ويطمئن القلب ، اكبر من ذكر الله ، وذكر رسول الله ، وذكر آل بيت رسول الله ، وسبحانه عز من قائل :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ الاحزاب ٣٣.

وتقول السيدة أم سلمة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، في بيتي

(١) عن جريدة أخبار اليوم المصرية تاريخ ٢٧ - ٢ - ١٩٧٤ .

نزلت هذه الآية ، وكان بالبيت عليّ وفاطمة ، والحسن والحسين ، فقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطرح كساءه عليهم . وقال : « اللهم هؤلاء هم أهل بيتي وخاصتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

وقد ولد الحسين رضي الله عنه في شهر شعبان من العام الرابع للهجرة ، إلاّ أنه منذ زمن بعيد ، استقر أمر المسلمين على جعل ذكرى مولده ، في شهر ربيع الآخر ، وهدفهم من ذلك أن تكون الذكرى في الشهر الذي يلي مولد جده عليه السلام ، حتى تتوالى النفحات والبركات ، وتتصل الرحمات ، في شهرين متتابعين .

وقد أخبرتنا السيرة العطرة ، أن مدة حمل الحسين كانت ستة أشهر فقط ولم يسبق لمثل هذه الحالة ، أن عاشها مولود إلا يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، والحسين بن علي رضي الله عنهما .

ولفتة سامية من أثر النبوة ، حينما تدخل أسماء بنت عميس ، على النبي صلى الله عليه وسلم ، وتضع الحسين بحجره أثر ولادته ، وملفوفاً بلفافة صفراء ، فيقوم عليه السلام ، بتغيير لفافته بأخرى بيضاء ، ثم يجهش بالبكاء ، فتقول أسماء ، فداك أبي وأمي يا رسول الله ، فعم بكاؤك ؟ فيقول لها : « ان ابني هذا سيموت شهيداً ، حيث تقتله فئة باغية ، لا أنالها الله شفاعتي فيا أسماء لا تخبري فاطمة بهذا فتفجعيها ، وحسب الحسين فضلاً وتكريماً من المولى ، انه سيد الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة ، ثم قام صلى الله عليه وسلم وحنكه بريقه ، وأذن في أذنه ، ودعا له بما شاء .

وفي اليوم السابع لمولده ، قام صلى الله عليه وسلم بتختينه ، ونحر عنه كبشاً ، بعد أن حلق شعر رأسه ، وتصدق بزنته ذهباً .

فلا عجب إذا ما نشأ الحسين ، نسمة طاهرة مطهرة ، ودوحة كريمة مباركة ، نالت من حب النبي ونفحات النبوة ، قدراً سخياً وحظاً دونه كل حظ .

ولقد أجمع السلف والخلف ، على حب مولانا الحسين وتعظيمه . فلقد كان عبد الله بن عمر يجلس ذات يوم في ظل الكعبة ، حينما دخل الحسين المسجد ، فأشار إليه بيده ، وقال لمن حوله « هذا هو أحب أهل الأرض إلى أهل السماء » .

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، يقسم بالله للزهراء أم الحسين ، انه يوقرها هي وبنيها ، أعظم من توقيره لنفسه وبنيه .

وحسب الحسين شرفاً وتكريماً ، أن يكون أبوه سيف الله الغالب ، عليّ بن أبي طالب ، أول المؤمنين من الفتية ، وأول الفدائيين في الإسلام ، وأشجع الناس جميعاً بعد رسول الله ، وان تكون أمه الزهراء ، بضعة النبي وثمرته المباركة .

على ان الحسين رضي الله عنه ، لم يفتخر يوماً بهذا الحسب والنسب ويتيه في أطيافه فخوراً مزهواً ، بل كان قطعة من أبيه عالماً بعلم ، عاملاً بحق ، طبق القرآن على نفسه ، في حياته العامة والخاصة ، صواماً بالنهار ، قواماً في الليل ، حج خمساً وعشرين مرة مشياً على الأقدام ، بينما أبله تقاد بين يديه ، وطمعاً في مرضاة الله ورحمته ، حتى صدق فيه قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

وتمضي الشهور والأيام ويعود النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، وبه من الآلام ما ينبيء بقرب الرحيل ، فتنهض الزهراء إليه وهو على فراش المرض ، ومعها الحسن والحسين وتقول : « يا رسول الله ، هذان ابناك الحسن والحسين ، أفلا تورثهما شيئاً ؟ » ، فينهض النبي من فراشه ، وكأنما قد عوفي من مرضه ، فيحتضن الحسنين ويقبلهما ، ثم يلتفت إلى ابنته ويقول : « أما الحسن ، فقد ورثته سؤددي وهيبتي ، وأما الحسين ، فقد ورثته جودي وشجاعتي » .

ويخرج الحسين إلى الدنيا ، دنيا الجهاد والكفاح ، يحمل الجود والجرأة ، ميراثاً غالياً ، وتراثاً عظيماً من أثر الرسول ، خرج يعلم الناس جميعاً ، كيف تكون الشجاعة في الحق ، وكيف يكون الجهاد في سبيل الله ، خرج إلى دنيا الجهاد والكفاح ، لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا عدة ظالم ، مهما كان الثمن ، ومهما كانت التضحيات ، ولتكن نفسه التي بين جنبيه ، وهكذا الأبطال من الرجال ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وقتل الحسين ، وفصل رأسه الشريف واليد قابضة على سيف الحق ، والدماء تكتب باذن ربها . هذا دم الحسين سيد الشهداء « فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » .

والكلام عن شهيد المعركة هو أعذب الحديث وأشرف القصص ، لأنه قصة الفداء وأعظم التضحية . وشهيد المعركة يحقق باستشهاده الإيثار ، للذي حقق أمجد الانتصارات للدين الحق ، فهو يجود بنفسه من أجل تمكين وتثبيت الدين ، ومن أجل مجتمع العزة والكرامة والحرية .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقون ٨ .

ولقد قال الله عز وجل :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَأَنَّ اللهَ عَلَى
نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ
يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلا دَفْعُ
اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ
وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ
كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ
يَنْصُرُه ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾
الحج ٣٩ — ٤٠ .

ومن هنا ، من الاذن بالانتصار للعقيدة ، وبالانتصار للوطن ، للديار ، للأهل ، للعشيرة ، للحفاظ على كل مكان مقدس ، وشعار مقدس ، تحركه القوى المؤمنة ، لحمل السلاح حتى الشهادة في سبيل الله .

نعم القتال في سبيل الله حتى الاستشهاد ، لأنه أمر من العلي الحكيم .

ولقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ
الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ
فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً

عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ التوبة ١١٠ — ١١٢ .

يا ثقة المؤمنين بالله ، ويا هناء الشهداء بوعد الله ، وربح البيع ، لأن ربحه جنة عرضها السماوات والأرض .

وقال تعالى :

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران ١٦٩ — ١٧٢ .

روى ابن ماجه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يشفع يوم القيامة ثلاثة ، الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » .

وروى أبو داود والترمزي عن أبي الدرداء . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » .

والشهيد بعين بصره . وبنور بصيرته ، يعلم أنه ذاهب إلى ربه بعد ما هداه إلى الجهاد الذي انتهى إلى الاستشهاد . ولكن الطريق إلى النصر لا بد له من رجال صادقين وسواعد ضاربة ، وعزمات لا تلين . وعيون ساهرة . يجمع ذلك كله وفاء العقيدة ، وحب الله ورسوله ؛ وما على الإنسان إلا أن يضع نفسه ونفيسه وأهله وعشيرته في كفة . واستشهاده لرفعة الدين والعقيدة في كفة . لترجح كفة الاستشهاد بصبره وثباته وتضحيته وفدائه ؛ وليبقى ديننا في الخالدين .

أيها المسلمون أيها الشباب .

إن دم الحسين ابن بنت رسول الله . لم يكن ليهدر عبثاً . وإنما أهدر للتذكير والتأسي . والعبرة البالغة ، حتى يعلم الناس جميعاً أنه لا شيء في هذا الوجود وراء الله ولا أكبر ولا أعز من الله . ففي سبيل الله تهون الأرواح والمهج وفلذات الأكباد .

أيها الاخوة . . .

ليس الإسلام بالإسم والكنية ، وليس الإيمان بالتمني . وإنما الإيمان ما وقر في القلب . وصدقه العمل ، وجوهر الإيمان الصبر . وقمته الجهاد في سبيل الله . والاستشهاد في سبيله نهاية النهى وغاية الوصول . وحسبه الفردوس الأعلى من الجنة . مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فعن أبي موسى الأشعري : عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » .

ومن الأحاديث الصحيحة ، المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :

أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات ، لم يكرم بها أحداً من الأنبياء قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ! » قال : « ولا أنا. . . الأولى ، ان جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت ، وهو الذي سيقبض روحي ، أما الشهداء فالله سبحانه وتعالى هو الذي سيقبض أرواحهم بقدرته . . . والثانية ، ان جميع الأنبياء غسلوا بعد الموت . وأنا أغسل بعد الموت . . . والشهداء لا يغسلون ، ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا ، والثالثة ، ان جميع الأنبياء قد كفنوا بعد الموت ، وأنا أكفن بعد الموت ، والشهداء لا يكفنون بل يدفنون في ثيابهم . . . والرابعة ، ان الأنبياء لما ماتوا سموا أمواتاً ، وانا إذا مت يقال مات ، والشهداء لا يسمون موتى ، ويسمون أحياء ، . . والخامسة ، ان الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة — . . . وشفاعتي أيضاً يوم القيامة . . . أما الشهداء فانهم يشفعون كل يوم فيمن يشفعون بأمر الله حيث يشاء » .

وحينما أفضى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث وأخذت آيات الجهاد والاستشهاد تتنزل عليه بالمدينة آية أثر آية ، هرع الانصار والمهاجرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يصبون المال في حجره ، ويتسابقون على الصفوف الأولى ، ولا غرابة في هذا ولا عجب ، فقد تعاهدوا مع الله على بيع أرواحهم وأشهدوا النبي على هذه البيعة الرابحة ، والصفقة المربحة .

قال الله تعالى :

﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آباءَهُمْ أوْ أبْنَاءَهُمْ أوْ إخْوانَهُمْ أو عَشِيرَتَهُمْ ، أولَئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمْ الإيمانَ ، وأيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضَوْا عَنْهُ ، أولَئِكَ حِزْبُ الله ألاَ إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾

المجادلة ٢٢ .

القلب والبذر

الكلمة الطيبة :

قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ . ٢٤ ابراهيم

وفي تفسير الكاشف كتبت حول هذه الآية من جملة ما كتبت : لا شيء أدل على أن المراد بالكلمة الطيبة الكلمة المفيدة النافعة — من تشبيهها بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت لا تزعزعه الأعاصير ، ولا تقوى عليه المعاول ، وفرعها في السماء بعيد عن أوباء الأرض وأقذارها تؤتي أكلها كل حين فلا تجود آناً ، وتبخل آناً كالتاجر يعطيك ان دفعت ، ويمسك ان أمسكت ، بل هي تعطي أبداً ودائماً .

وقال سبحانه :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا
أولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ .

١٧٩ الأعراف

وفي التفسير الكاشف : من أهم الغايات المقصودة من القلب أن ينتفع بدلائل الحق ، ومن فوائد العين أن تبصر هذه الدلائل ، ومن منافع الآذان أن تسمعها . فإذا أعرضت هذه الثلاث عن ذلك كان وجودها وعدمها بمنزلة سواء . (أولئك كالأنعام) من حيث أنهم يملكون قلوباً وأعيناً وآذاناً تماماً كما تملك الأنعام (بل هم أضل) من الأنعام لأن الأنعام تقوم بواجبها وتعجز عن تحصيل الكمال ، وبالتالي فهي لا تحاسب ولا تعاقب . وهم لا يقومون بما يجب عليهم . وقادرون على الكمال ولا يفعلونه . ولذا يحاسبون ويعاقبون .

الحسين والقرآن :

بعد التفسير الكاشف بأعوام ألفت هذا الكتاب : « الحسين والقرآن » ومن أهدافه ومقاصده أن يمد خطباء المنبر الحسيني ، وبخاصة الشباب ، باليقظة عسى أن يهيئوا لهذا المنبر ما يليق بقداسته ، ويلتقي مع غايته . وأن يركزوا اهتمامهم الأول على الجانب الإنساني المقصود من نهضة الحسين (ع) .

ومن توفيق الله سبحانه وعنايته أني ألفت في هذه النهضة كتاب المجالس

الحسينية ، ومع بطلة كربلاء[1] والحسين والقرآن وقد حرصت كل الحرص على الجانب الإنساني في هذه الكتب الثلاثة ، وغيرها مما كتبت ونشرت عن أهل البيت . وفوق ذلك كنت وما زلت أحتفظ بكل كلمة أقرأها عن الصفوة الأخيار (ع) إذا كانت كلمة صدق وإخلاص ، ثم أضعها في قرار مكين ومناسب من مؤلفاتي مع إسم الكتاب والصحيفة وتاريخها .

الحديث عن العقول :

وبعد انتهاء المطبعة من هذا الكتاب ، وقبل أن تجمع أوراقه للتجليد — شاء القدر الحاتم أن قرأ مقالاً قيماً ومطولاً للدكتور زكي نجيب محمود في جريدة الأهرام ٢٨ / ٢ / ١٩٧٥ ، تحدث فيه عن العقول لا عن أهل البيت (ع) ومع هذا شدني إليه من أول كلمة ، وما تركني إلا عند نهايتي من الكلمة الأخيرة ، وكنت أقف طويلاً أفكر وأتدبر كل جملة في هذا المقال ، لأنها من أنفع الكلمات وأبلغها أثراً في النفس ، وكانت تنتقل بي إلى أجواء متنافرة لا علاقة بينها ولا انسجام ، ومن هذه الأجواء — على سبيل المثال — جو العظماء والعلماء الذين رفعهم الناس لأنهم أفادوا الناس ، وأقاموا لهم التماثيل في الميادين تخليداً وتكريماً . وجو شمر بن ذي الجوشن مع العلم بأن الكاتب لم يشر من قريب أو بعيد إلى هذا الرجس ، ولكني تصورته فجأة ومن حيث لا أريد حين بلغت من المقال إلى قراءة الفقرة التالية :

قال الدكتور زكي : « لقد وقفت على عبارة جميلة عند السهروردي في عوارف المعارف ، ويمكن أن تساق لتوضيح الفروق بين العقول ، وهي

(١) أعيد طبعهما في كتاب واحد باسم الحسين وبطلة كربلاء .

عبارة يقول فيها ما معناه أن رجلاً ملأ كفه ببذور القمح ، وراح يبذرها في أماكن مختلفة . فوقع شيء منها على ظهر الطريق ، فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه ، ووقع منها شيء آخر على حجر املس تغطيه طبقة رقيقة من التراب ، ويبلله قليل من الندى ، فنبت الحب ، حتى إذا وصلت عروقه إلى سطح الحجر الأملس لم تجد طريقاً لها . فيبس النبت ومات ، ثم وقع من البذور شيء ثالث في أرض طيبة لكنها مليئة بالأشواك فنبتت البذور حتى إذا ما أراد النبت أن يرتفع خنقه الشوك فأفسده ، وأخيراً وقع من البذور شيء على أرض طيبة . ليست هي على ظهر الطريق ، ولا هي على حجر أملس ، ولا هي مختنقة بالشوك ، فنبتت البذور ونمت وأثمرت.. ويمضي السهروردي في هذا التشبيه الجميل ، فيقول ما معناه أن البذر الذي وقع على ظهر الطريق وتخطفه الطير مثله كمثل رجل تُقدم له الأفكار الجيدة العالية . فيدير عنها أذنيه حتى لا يسمعها فما يلبث الشيطان أن يختطفها من قلبه ليتركه خاوياً ، ومثل البذر الذي يقع على الحجر الأملس المغطى بقليل من التراب كمثل الرجل يستمع منك إلى الفكر الجيد فيستحسنه ولكنه لا يجد في قلبه عزماً صادقاً على العمل به . فيذهب ذلك الفكر الجيد هباء ومثل البذر الذي وقع على أرض طيبة يكتنفها الشوك كمثل الرجل يسمع منك الكلام المفيد ، ويهم بالعمل على مقتضاه لكنه يجد من الشهوات العمياء والأهواء القاتلة ما يصرفه عن ذلك العمل . وأخيراً فإن مثل البذور التي وقعت على أرض طيبة ليس فيها عوائق النمو كمثل الرجل يتلقى الفكرة الجيدة فيفهمها ويعمل بها ، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل » .

وكل كلمة في هذه الفقرة حكمة وعظة . وشاهدي منها الحالة الأولى من الحالات الأربع ، لأنها بكتابي هذا أنسب ، وهي « مثل رجل تقدم له

الأفكار الجيدة فيدير عنها أذنيه حتى لا يسمعها ، فما يلبث أن يختطفها الشيطان من قلبه ليتركه خاوياً » فإنها تصدق على شمر حقيقة لا مجازاً ، وبالمطابقة لا بالالتزام ، ومن هنا تبادر إليه خاطري .

وفي اليوم العاشر من المحرم دعا الإمام الحسين (ع) براحلته فركبها ونادى بأعلى صوته : أيها الناس اسمعوا قولي ؛ ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم علي . وحتى أعذر إليكم .. إلى آخر درره الغالية الباقية . وقال الرواة : لم يسمع متكلم قط قبله ولا بعده أبلغ من منطقه .

ولكن شمر بن ذي الجوشن قال للإمام : لاأدري ما تقول فأجابه حبيب ابن مظاهر : وأنا أشهد أنك صادق لا تدري ما يقول ، لأن الله قد طبع على قلبك . ويخطيء من يظن أن هذا الوصف يختص بشمر وحده ، بل هو ميزان يقاس به كل من يسمع كلمة الحق والعدل ؛ و لاتترك أثراً في نفسه وعمله. وأي فرق من حيث الذات وسوء النية بين من يقدم على قتل الحسين (ع) زمن لا يتورع إلا لضعف أوعجز ! . . إن التقوى هي الأساس ، وغير المتقي جائز في حقه كل شيء بلا استثناء .

الإثنا عشرية
وأهل البيت « ع »

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين .
والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وآله الطاهرين

وبعد :

فإن موضوع هذه الصفحات كغيرها مما كتبتُ ونشرت ، فقد ألفت كتاباً مستقلاً في أهل البيت (ع) ، وكتاباً أكبر إسمه مع « الشيعة الإمامية » الذي نفدت نسخه من طبعته الأولى والثانية في أمد قصير ، وأيضاً ألفت كتاباً ثالثاً أكبر من الإثنين « الشيعة والحاكمون » ونفدت الطبعة الأولى بسرعة البرق ، وبنفس السرعة نفدت الثانية والثالثة ، وألفت رابعاً أضخم من الثلاثة ، وهو « الشيعة والتشيع » ويعاد طبعه الآن ببيروت .

وهذه الكتب الأربعة — كما ترى — كلها في أهل البيت وشيعتهم ، بل غيرها وغيرها من علي والقرآن إلى علي والفلسفة ، ومن فضائل الإمام علي إلى إمامة علي والعقل ، ومن مفاهيم إنسانية في كلمات الإمام جعفر الصادق إلى فقه الإمام جعفر الصادق ، ومن أصول الإثبات في الفقه الجعفري إلى المجالس الحسينية كلها في أهل البيت والإثني عشرية وشيعتهم وآثارهم ، حتى الفقه على المذاهب الخمسة جاء رداً على من حصر علم الفقه بالمذاهب الأربعة .. حتى تفسيري « الكاشف » لآي الذكر الحكيم فيه أبهى الصور

وأروعها عن مكانة الآل الأطهار ، وأي مفسر يتخطى ، أو يستطيع أن يتخطى أو يتجاهل آية التطهير والمودة والولاية والمناجاة والإنذار وغيرها؟..

وأغلى أمنية لكل مؤلف أن يروج كتابه ، ويكثر عليه الطلب ، وقد راجت ، لله الحمد ، كتبي ، وأقبل عليها القراء ، وتجاوبوا معها برغم أنها ليست مدرسية ، ولا روايات بوليسية ، ولا من أدب الجنس المكشوف .. ولكنها تلائم عصرها شكلاً ومحتوى ، تماماً ككتاب بحار الأنوار في عصره، ولو كنت في زمن صاحبه لجاءت مؤلفاتي على غراره ولو كان المجلسي في هذا العصر لم يؤلف البحار على الشكل الذي هو عليه .

وبعد هذا الاستطراد — وهو غير مقصود بالذات — أعود إلى حكاية هذه الصفحات ، وتتلخص بما يلي :

كتبت فصل « الإثنا عشرية » للمجلد السادس من دائرة المعارف التي تصدر أجزاءها تباعاً بإدارة رئيس الجامعة اللبنانية الأستاذ فؤاد افرام البستاني وبعد نشره في هذه الدائرة رجح أكثر من واحد أن يُطبع الفصل مستقلاً ، لأن قراء الدائرة قليلون ، والفائدة تقاس بكثرة القراء والمنتفعين ، لا بالعناوين ، كاسم دائرة المعارف ، وما إليه .

ولم أعارض هذه الفكرة ، ولكن رأيت أن الفائدة تكون أتم وأعم إذا طُبع منه آلاف النسخ ، ووُزع بالمجان . . وتمنيت او ألهم الله رجلاً من أهل طاعته يقوم بنفقات النشر والتوزيع . . ثم مضت الأيام ، ودعاني أهل البحرين للقيام بواجب شهر الله عندهم ، فلبيت .

والتقيت هناك بتاجر أمين من تجارها ، لديه أمانة لقريب له كان قد أوصاه — ثقة به — أن ينفقها عنه بعد موته في سبيل الله رغبة في أجره وثوابه

جل وعلا ، وحرص الوصي أن يكون عند ثقة الموصي [1] وأن يختار لوصيته ما هو أفضل عند الله . وأكثر أجراً وثواباً . . ولا عمل أفضل عند الله سبحانه من المساهمة في نصرة الحق وأهله بالنفس أو المال .

وشاءت إرادته تعالى أن يكون للوصي نصيب من هذه المساهمة ، فعرض عليّ وصيه أن ينفق من الوصية على نشر كتاب من مؤلفاتي يوزع بالمجان ، فتذكرت « الاثنا عشرية » ، فحمدت الله سبحانه أن سخر لها رجلاً من أهل طاعته ، كما تمنيت ، وأضفت إلى « الاثنا عشرية » فصل أهل البيت الذي كتبته للمجلد الأول من الدائرة ، لما بينهما من الانسجام والالتحام . . . وهو سبحانه المسؤول ان يجعل هذه الصفحات ثواباً ورحمة لي ولمن كان السبب .

وبهذه المناسبة أشير إلى أن وسائل الإقناع والتبشير بالدين لا تنحصر بالتأليف أو النشر في الصحف ، حتى ولو عرضت بشكل عصري يعجب القراء ، ولا هي وقف على خطب المنابر وتعمير المساجد ، أو إنشاء المكتبات وبناء الحسينيات . كلا ، إن هذه من وسائل الدعوة ، وليست كل الوسائل .

وأهمها وأجدى العمل في جو الصغار والأطفال ، في عشهم ومدارسهم ، فيسمعون من مدرستهم بالذات صوت المؤذن ، لا صوت الجرس [2] ينادي عند الزوال بحي على الصلاة . فتتوقف الدراسة لهذا النداء الرهيب المهيب .

(١) بعد عودتي إلى لبنان كتبت إلى الوصي أسأله عن الاسم الذي يجب ان انوه به في المقدمة أو الغلاف . فاجاب : من الخير اخفاء الخير .

(٢) غير بعيد ان تكون فكرة الجرس في المدرسة مأخوذة من ضرب الناقوس في الكنائس .

ويخرج كل صف من أمام استاذه ومعلمه لتنتظم الصفوف بكاملها في جماعة واحدة متراصة بخشوع وخضوع أمام الواحد القهار .

وصلاة الأطفال ـ وبخاصة الجماعة منها ـ لها طعم خاص ، ومنظر خاص ، ورائحة خاصة ونغمة تبعث الروعة والنشوة في كل قلب ، أما أثرها في نفس الطفل المصلي فيلازمه ، حتى الممات . . . والسر انها بذر طيب في أرض طيبة خالية من الادران والاضغان .

ولو استشارني المحسنون ومن يؤدون حق الله في أموالهم ، لو استشاروني ، أو دفعوها إليّ لأنفقتها في هذا الوجه ، لأنه الأفضل والأكمل ، فاختار من أراه أهلاً ، وأعيّن له راتباً محترماً ليعلم الصغار الصلاة وشروطها ومبادىء الضرورية في مدارسهم ، أو في بيته ، أو في أحد المساجد في موعد معين ساعة أو أكثر من يوم عطلتهم المدرسية ، ويستعين على جمعهم بأوليائهم وذويهم ، دون أن يكلفهم شيئاً وراء ذلك .

وإذا تبقى لدي شيء من هذه الحقوق بنيت به مساجد لصلاة الأطفال في مدارسهم إن أمكن ، وإلا فإلى جانبها ، وفي القرب منها ، أفعل هذا ، وأنا على يقين ان كل حجر منها افضل عند الله من الف مسجد ومسجد يقام في قرية شبه خالية ، أو في حي تكثر فيه المساجد ، ويقل فيه المصلون .

واتمنى لو تتألف هيئة خاصة من المؤمنين تجمع الأموال من أهل الخير والاحسان لهذه الغاية ، ولولا انصرافي إلى التأليف لسبقت الجميع إليها . . . ولا أدري أي شيء يمنع الجمعيات الخيرية المنتشرة هنا وهناك من القيام بهذه المهمة ؟ . وهل من سبيل إلى الله أفضل من هذه السبيل ؟ . وهل من مورد لمال الله خير وابقى من اثراء ضمير الطفل بالايمان والتعبد لله وحده ؟

ولا أظن أحداً يجهل حكاية الامام الحسين (ع) مع عبد الله السلمي الذي اعطاه الامام الف دينار ، والف حلة ، وملأ فاه دراً ؛ لأنه علّم ولده سورة الحمد ، ولما قيل له في ذلك . قال : واين يقع هذا من عطائه ؟ .

ومن عجيب الصدف ان طالباً من الكويت يدرس في الجامعة الامريكية ببيروت زارني — وانا اكتب هذه السطور — وهو من بيت مؤمن يحافظ على الدين وشعائره ، وبعد ان استقر به الجلوس قال : يجول في خاطري شيء يزعجني ، واريد ان اعرضه عليك .

قلت : تفضل .

قال : كلما صليت وسوست إليّ نفسي بأن صلاتي ليست بشيء ، لانها مجرد تمتمات — على حد تعبيره — لا خشوع فيها ، ولا انصراف إلى الله وحده عن كل ما عداه ، واخشى ان تكون غير مقبولة عند الله ، فما رأيك ؟ .

قلت : تخوفك من عدم القبول دليل القبول . . . هذا إلى ان الاسلام قد ربط الدين كله بالصلاة ، فمن اقامها فقد اقام الدين ، ومن تركها فقد ترك الدين . . . ذلك ان الصلاة علاقة وصلة بين الله وعبده ، وهذه الصلة تتفاوت شدة وضعفاً ؛ فقد تكون بقوة الحديد — مثلاً — وقد تكون كخيط العنكبوت ؛ ولكنها صلة على أية حال والوجود خير من العدم ، وان قل : قال الامام امير المؤمنين (ع) : « اتق الله بعض التقى ، وان قل ، واجعل بينك وبين الله ستراً ، وان رق » . ثم ذكرت له بعض ما قلته عن الصلاة في المجلد الأول من التفسير الكاشف ، فاقتنع واطمأن .

وحبذا لو سأل الشباب عن كل ما يدور في خلدهم حول الدين اصولاً وفروعاً ، على ان يسألوا تفهماً ، لا تعنتاً ، ويجب عليهم ان يسألوا ، بل

ويلحوا في السؤال ، وعلينا ان نستمع إليهم بصدر رحب ، ونجيب بما يكون حجة لله عليهم ، ومعذرة لنا عنده جل وعز . . . وكم اغتبطت وسررت بالاسئلة التي كانت تتوارد عليّ حول الدين من شباب البحرين وطلابها في زيارتي الاولى والثانية وكنت اجيب عنها ، او عن اكثرها في المكبر ، ومن على المنبر ، فيستفيد الشاهد والغائب .

وبعد ، فنحن اهل العلم بالدين نتحمل مسئولية كبرى في هذا العصر الذي احاطت فيه المادة بكل شيء ، ولا بد لكل منا ان يقوم بما هو كفؤ له من التصدي إلى الاجابة عن الشبهات ، او رد الافتراءات ، أو تلقين ابنائنا الصلاة وشروطها . . . وهذه المهمة مقدورة لكل واحد منا دون استثناء مهما كانت كفاءته . . . ولكنه لا يفعل . . . ولمه ؟ . . . لان تنازله هذا هوانٌ له ، وهو عنوان الدين ، فتنازله لتلقين الصبيان الصلاة هوانٌ للدين . . . ولو تأمل قليلاً لأدرك ان في عمله هذا كرامة للدنيا والآخرة ، وانه افضل انواع الجهاد في زمن قل فيه الديانون ، وكثر فيه المستهترون .

والله سبحانه المسئول ان يوفقنا جميعاً لما فيه رضاه من الاقامة على العذر إليه وإلى خلقه ، والصلاة على محمد وآله .

تنبيه :

أجيز طبع هذا الكتاب ، وترجمته إلى اللغات الاجنبية لكل راغب ، دون أن يراجعني على شريطة ان يوزع مجاناً من غير ثمن . وان شاء طبعه للتجارة فعليه مراجعتي .

الاثنا عشرية

الاثنا عشرية نعت يطلق على الشيعة الأمامية القائلة باثني عشر اماماً تعيّنهم باسمائهم .

تمهيد :

واجه الاسلام ما واجهته سائر الأديان من التقسيم إلى فرق ، ثم تقسيم كل فرقة ، علي مرّ الزّمن ، إلى فرق . . . وفي التاريخ العديد من الشواهد على ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ .

[هود] ١١٨

ولا يقف هذا الاختلاف على الطوائف واهل الأديان بعضها مع بعض .

بل يتعداها إلى اتباع الدين الواحد . ولا نعرف اهل دين اجمعوا على عقيدة واحدة من جميع جهاتها ، دون ان يتفرقوا شيعاً واحزاباً . ورغم هذا الشتات والنزاع – وربما الحرب والصراع – فان بين الفرق من كل طائفة قاسماً مشتركاً يجمع شملها .

ويربطها بالدين الأصيل ، والاّ لم تكن فرقاً لدين واحد ، فلا بد لكل فرقة ان تأخذ بنصيب من دينها امّا مقدار هذا النصيب ، وايّ الفرق اكثر ملائمة للأصل والمصدر فلا يعرف من كثرة الأتباع وقوّتهم ، وسلطانهم.

الفرق الاسلامية :

والذي نراه ونرجّحه ان اسباب الاختلاف والتعدد فيالفرق الاسلامية ، على ما بينها من رابط قويّ او ضعيف ، هي واحدة تتّحد مفهوماً ، وتختلف مصداقاً . ومن هذه الأسباب ان الذين انتموا إلى الدّين ، عند بدايته ، منهم من انتمى إليه حقاً وصدقاً ، ومنهم من انتمى إليه شكلاً وظاهراً ابتغاء ما يجنيه من وراء هذا الانتماء ، تماماً كما ينتمي كثيرون إلى حزب من الأحزاب لمنافع شخصية .

ومنها ان التعاليم التي اتى بها النبي لم تطبق بكاملها في عهده وحياته . ولمّا جاء دور تطبيقها والعمل بها ، نظر إليها كلّ من زاويته الخاصة ، وواقع بيئته ومنطق عقله . هذا وانّ كثيراً من التعاليم المنسوبة إلى النبي لم ينطق بها صراحة ، وانما استنبطها الأتباع من ايمائة أو تصرف ، أو من شيء لا يمت إليه بسبب بل اختلفوا في الأحكام التي طبقها النبي ، وعمل بها . فلقد توضأ مئات المرات امام الوف من المسلمين ، ومع هذا اختلف السنّة والشيعة في صورة الوضوء ، وادعت كل فرقة انها هي التي تتوضأ بوضوئه دون غيرها .

ومنها ان فئة من الاتباع قد تثق برجل ثقة عمياء وتواليه ولاء دين وعقيدة واخرى تتّهمه وتهاجمه .

الخلافة :

لهذه الأسباب ولغيرها افترق المسلمون إلى فرق وشيع . وقامت بينهم حدود وحواجز ، واهمّها مسألة الخلافة وما يتّصل بها ، بخاصة الطريق الذي يعين الخليفة بعد الرّسول ، وهل هو النصّ من الرّسول ، او اختيار الوجهاء والأعيان قال الشيعة بالأول ، وقال السنة بالثاني . وآمن كل بما رأى ، ايمانه جزءاً من عقيدته ونظامها . وهنا — كما ترى — اختلاف في المنهج والطريق المثبت للخلافة ، لا في أصل الخلافة : فالقول بأنها من عقيدة الشيعة خطأ . ما دام الكلّ متفقين على أصل الفكرة ، وانها تستند إلى الدين باعتبارها رئاسة عامة في الدين والدنيا نيابة عن الرسول باتفاق الجميع ، اذن انيابة عن الرسول باتفاق الجميع ، اذن سنّية فقط وانما هي عقيدة لجميع المسلمين.

أجل ، ان فكرة النص من النبي على الخليفة شيعية لان السنة لا يقولون بها ، كما ان فكرة الانتخاب سنية لان الشيعة لا يقولون بها .

وبعد ان اناط السنّة تعيين الخليفة بانتخاب الوجهاء خاصة ، وهم الذين عبروا عنهم « بأهل الحلّ والعقد » قالوا مبرّرين رأيهم هذا ان الجماعة — أي الوجهاء — منزّهون ومعصومون عن الخطأ ، وان الله يهديهم إلى الحقّ والصواب ، لحديث « لا تجتمع امتي على ضلالة » ولما رواه البخاري في « صحيحه » (٩ : كتاب الأحكام) من ان النبي قال : « من رأى من اميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فانّه ما احد يفارق الجماعة شبراً فيموت الا مات ميتة جاهلية » .

وردّ الشيعة هذا الحديث ، وكلّ حديث يتضمن عصمة الجماعة ، لأنها قد تخطيء بل جاء في الآية ١٨٧ من « الأعراف » :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فبالاولى القلة وان كانوا « اهل الحل والعقد » .

هذا . إلى ان السنّة والشيعة متفقون قولاً واحداً على ان أيّ حديث يأتي من الرسول يجب ان يعرض أولاً على « كتاب الله » فان تناقض معنى احدهما مع معنى الآخر ، وجب طرح الحديث واهماله . وليس من شك انّ بين قوله :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم ٦ .

وبين حديث عصمة الجماعة تناقضاً ظاهراً ، فيجب طرحه واهماله .

وايضاً : بعد ان اناط الشّيعة تعيين الخليفة بنصّ النبي عليه اسماً وعيناً قالوا مستدلين على ذلك : « ان محمداً نصّ على علي بن أبي طالب (ع) باسمه وعينه ونسبه ، وعقد له الخلافة على المسلمين من بعده ، وامرهم بالسمع والطاعة له ، واعلمهم ان طاعته طاعة الله ورسوله » ونقل الشيعة عن ج ١ من « مسند » الامام احمد بن حنبل وج ٢ من « تاريخ » الطبري ، وجلد ٢ من « تاريخ ابن الأثير ، و ج ٣ من « مستدرك » « الصحيحين » للنيسابوري ومن « السير ــ الحلبية » نقلوا عن هذه الكتب وغيرها .

ان محمداً (ص) حين نزلت عليه هذه الآية :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء ٢١٤ .

جمع عشيرته في بيته . وبعد ان اكلوا من مائدته قال لهم مشيراً إلى علي (ع) : هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم . فاسمعوا له ، واطيعوا » وعلّق الاستاذ محمد عبدالله عنان المصري ، في كتابه على ذلك « تاريخ الجمعيّات السريّة » : فقال من الخطأ أن يقال : ان الشيعة انما ظهروا لأول مرة عند انشقاق الخوارج، بل كان بدء الشيعة وظهورهم في عصر الرّسول، حين أمر بانذار عشيرته بهذه الآية :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾

الشعراء ٢١٤ .

ثم ساق الحديث إلى نهايته .

ووضع علماء الشيعة الاثني عشرية العديد من الكتب في النص على علي عليه السّلام ، وجمعوا فيها الآيات والأحاديث من طرق السنة والشيعة .

من هذه الكتب « الشافي » للمرتضى ، « ونهج الحق » للعلامة الحلي ، والجزء الثاني « من دلائل الصدق » للمظفّر ، « ونقض الوشيعة » والجزء الأول من « اعيان الشيعة » للسيّد الأمين ، و « المراجعات » لشرف الدين ، « والغدير » للأميني .

وممّا قدّمناه نستخلص :

أولاً : ان فكرة العصمة لم يقل بها الشيعة وحدهم فان السنة يقولون بها ايضاً ، والاختلاف بينهم في التطبيق فقط . فالسنّة يجعلونها للجماعة ، والشيعة للامام المنصوص عليه ، فنسبة الفكرة من حيث هي إلى الشيعة دون السنة خطأ واشتباه ، تماماً كما هي الحال في فكرة الخلافة من حيث هي ، ونسبتها إلى الشيعة دون غيرهم .

ثانياً : ان فكرة النص على علي عليه السّلام بالذات هي فكرة دينية اسلامية تستند إلى الكتاب والسنة ، وليست فكرة سياسية -- كما قيل ترتكز على حق الوراثة في الحكم ، ولا فكرة عاطفية صرف ، لا مصدر لها الا قرابة النسب والسبب بين محمد صلى الله عليه وآله .

ثالثاً : ان مبدأ النص على علي عليه السلام بالخلافة فارق اساسي ، وحاجز منيع بين السنة والشيعة . وقد كان له المقام الأول في الايمان والعقيدة ، وتعدد الفرق الاسلامية ، والتأثير البالغ في السياسة ، والفلسفة . وعلم الكلام ، وفي الفقه ، وفي التفسير والحديث ، والتصوف ، والأدب الاسلامي في جميع مراحله ، بل والأساطير التي يبرأ منها الكتاب والرسول (ص) ، وعلي وابناؤه عليهم السلام ، والمحقون من شيعتهم . قال الامام جعفر الصادق عليه السلام : « ما شيعتنا الا من يقول علينا حقاً » .

بدء التشيع :

قال الشيعة : ان رسول الله هو الذي غرس بذرة التشيع لعلي عليه السلام بالنص عليه ، وبالمدح والثناء بما لم يثن به على غيره من الأصحاب .

كقوله : « يا علي ، لا يحبك الا مؤمن ، ولا يبغضك الا منافق » وقوله : « علي مع الحق ، والحق مع علي » بل هو الذي اطلق على اتباع علي عليه السلام لفظ الشيعة ، واسماهم بهذا الاسم ، حيث قال له : « يا ابا الحسن انت وشيعتك في الجنة » وقال : « تأتي انت وشيعتك راضين مرضيين » نقل الشيعة هذا الحديث عن كتاب « الصواعق المحرقة » لابن حجر الشافعي .

وظهرت هذه البذرة أوّل ما ظهرت حين توفي النبي صلى الله عليه وآله ، وبويع أبو بكر بالخلافة ، حيث امتنع علي عليه السلام ، ومعه شيعته وانصاره ،

واستمرّوا ممتنعين عن البيعة ستة أشهر كاملة . ذكر هذا المؤرخون والكتّاب القدامى والجدد .

وآخرهم الكاتب المصري احمد عباس صالح فقد نشر مقالاً بعنوان « اليمين والثورة » في مجلة الكاتب » القاهرية . ومما قاله في عدد يناير « كانون الثاني » ١٩٦٥ : « ان غالبية المسلمين حين توفي النبي صلى الله عليه وآله ، كانوا مع الاتجاه الذي يمثله علي بن ابي طالب عليه السلام وأصحابه . لأن النبي صلى الله عليه وآله كان زعيم هذا الاتجاه ، وواضع مبادئه الأساسية وقال في عدد فبراير « شباط » ١٩٦٥ : « كان حزب كبير من احزاب المسلمين يعتقدون ان علياً عليه السلام كان أولى بالخلافة من ابي بكر وعمر » .

واخذت بذرة التشيع تنمو وتعلو ، وتواصل نموها وعلوها مع الزمن ، والحركات الاجتماعية الاصلاحية في الاسلام ، حتى اصبحت عقيدة الاصحاب والرواد الاول . والصالحين والمخلصين . ذلك ان علياً كان يسير على الطريق التي رسمها الرسول . قال المسعودي في مروج الذهب كان مع علي في صفين تسعون الفاً ، فيهم الفان وثمانمئة من اصحاب الرسول صلى الله عليه وآله .

الخلفاء الاثنا عشر :

روى السنة والشيعة عن رسول الله (ص) انه قال : ان الخلافة في قريش وان عدد الخلفاء اثنا عشر خليفة ، فقد جاء في صحيح البخاري ج ٩ كتاب الأحكام ما نصه بالحرف : « قال رسول الله : لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان . . . ويكون اثنا عشر اميراً » . وقال ابن حجر العسقلاني ، وهو يشرح هذا الحديث في كتاب فتح الباري ج ١٣ ص ١٨٣ طبعة ١٣٠١ هـ : « كم يملك هذه الامة من خليفة ؟ . فقال : اثنا عشر ، كعدة نقباء بني اسرائيل » .

ولم يخالف في ذلك إلاّ الخوارج ، فانهم قالوا : ليست الخلافة في قريش ، بل الناس فيها سواء .

وبعد ان اتفق السنة والشيعة على ان الخلافة لا تكون الا في قريش . قال الشيعة وافضل قريش بنو هاشم ، لما رواه مسلم في صحيحه ج ٢ بعنوان كتاب الفضائل ان النبي قال: « ان الله اصطفى كنانة من اسماعيل . واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم . واصطفاني من بني هاشم . وايضاً روى مسلم في الكتاب المذكور بعنوان فضائل علي بن أبي طالب ان النبي « قال : اما بعد الا ايها الناس ، فانما انا بشر يوشك ان يأتي رسول ربي ، فاجيب ، وانا تارك فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به . واهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي » كررها ثلاثاً .

وقال الشيعة : فإذا جمعنا بين الأحاديث الثلاثة ، في قريش ، « والاصطفاء والثقلين » وعطفنا بعضها على بعض جاءت النتيجة ان الخلافة في اهل بيت رسول الله ، وهم علي وبنوه .

فالسنة يتفقون مع الشيعة في ان الخلافة لا بد منها ، وانها في قريش دون غيرهم وان عدد الأئمة اثنا عشر اماماً ويختلفون معهم في امرين : الأول في حصر الخلافة بالهاشميين . وبصورة اخص بعلي وبنيه . الثاني في تعيين الأئمة الاثني عشر بأسمائهم وانسابهم ، يختلفون في هذين ، اما اصل فكرة الاثني عشرية فمحل وفاق بين السنة والشيعة الاثني عشرية . وعلى هذا تكون فكرة اسلامية تعم الطرفين ، لا سنية فقط . ولا شيعية فقط . تماماً كفكرة العصمة وفكرة الخلافة من حيث المبدأ والقاعدة .

اما السبب لتسمية هذه الفرقة من الشيعة بالاثني عشرية دون غيرها ، مع العلم بأن السنة يؤمنون بالأئمة الـ ١٢ فهو ان هذه الفرقة قد اجمعت على تعيين الـ ١٢ باسمائهم واعيانهم . واختلف السنة في ذلك . . . فمنهم من قال : ان الـ ١٢ لم يخلقوا بعد ، وسيخلقون ، ويملكون بعد ظهور المهدي المنتظر ووفاته ، ومنهم من قال : « ان المراد بالـ ١٢ غير اصحاب الرسول لان حكم اصحابه يرتبط بحكمه . . . اذن كل الأئمة الاثني عشر من بني امية ما عدا عثمان ومروان ، لانهما صحابيان . . . وعليه يكون أول الأئمة الذين عناهم النبي يزيد بن معاوية ، ثم ابنه معاوية ، ثم عبد الملك ، واولاده الأربعة : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام وعمر بن عبد العزيز ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، واخوه ابراهيم ، ومروان الحمار . . . ومنهم من قال : هم ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ومعاوية ، وولده يزيد ، وعبد الملك وأولاده الأربعة، وعمر بن عبد العزيز ... ومنهم من قال: المراد وجود ١٢ اماماً في مدة الاسلام ، حتى يوم القيامة ، وان لم تتوال ايامهم إلى غير ذلك (فتح الباري للعسقلاني ج ١٣ ص ١٨٣ وما بعدها طبعة سنة ١٣٠١ هـ) .

الفرقة الاثنا عشرية :

قدمنا ان بذرة التشيع غرست في عهد الرسول ، وظهرت حين بويع ابو بكر ، ونمت وعلت يوم صفين ، ففرقة علي هي اول الفرق الاسلامية على الاطلاق ، تكونت في حياته ، وبقيت ثابتة على ولائه إلى ان قتل ، فافترقت بعده إلى فرق ، وباد اكثر هذه الفرق ، وذهب مع الزمن ، ومنها ما هي ثابتة قائمة ، حتى اليوم ، وستبقى إلى آخر يوم ، رغم الحملات والمحاولات لمحوها وابادتها وهكذا جميع الفرق ، اية فرق تنطبق عليها تنازع البقاء ، وبقاء الاصلح تماماً كأغصان الشجرة ، تتفرع عن اصل واحد ،

فينمو ، ويمتد في النمو ، ويحمل الأزهار والثمار ما يصلح للبقاء والاستمرار والذي لا يصلح لها يذبل ويجف وينتهي إلى السقوط والضياع .

ومن فرق الشيعة البائدة فرقة قالت : ان علياً لم يقتل ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً .

وفرقة قالت بامامة ولده محمد بن الحنفية من بعده ، ولا يموت حتى وهم المعروفون بالكيسانية .

ومن الفرق الباقية ، حتى اليوم الاثنا عشرية التي لزمت القول بامامة الحسن بن علي بعد ابيه ، لأن النبي نص عليه ، وعلى اخيه الحسين بقوله : « ولداي هذان امامان قاما او قعدا » وبهذا النص انتقلت الامامة بعد الحسن إلى اخيه الحسين، ثم أوصى بها الحسين الى ولده علي زين العابدين واوصى هو إلى ولده محمد الباقر ، واوصى الباقر إلى ولده جعفر الصادق ، ثم أوصى الصادق إلى ولده موسى الكاظم ، ثم أوصى الكاظم إلى ولده علي الرضا، ثم أوصى الرضا إلى ولده محمد الجواد ، ثم أوصى الجواد إلى ولده علي الهادي ، وهو أوصى إلى ولده الحسن العسكري ومنه انتقلت الامامة بالوصية إلى ولده الحسن العسكري ومنه انتقلت الامامة بالوصية إلى ولده محمد بن الحسن ، وهو المهدي المنتظر الذي اختفى بعد موت ابيه، وكان ذلك سنة ٢٥٦ هـ .

وقد وضعت كتاباً مستقلاً ، اسمه « المهدي المنتظر والعقل » وقربت الفكرة من وجهة عقلية ، وذكرت جملة من مؤلفات السنة والشيعة في المهدي ثم ادرجت كتاب المهدي في كتاب « الاسلام والعقل » .

وهذا التسلسل في الوصية من امام إلى امام هو من صلب عقيدة الاثني عشرية ، لان الامام عندهم لا يكون الا بنص النبي عليه مباشرة ، أو بواسطة

امام منصوص عليه ، ومن هنا كانت الامامة منصباً إلهياً ، يأتي في الدرجة الثانية من النبوة ، فالنبي يبلغ عن الله ، والامام يبلغ عن النبي .

هؤلاء هم الأئمة الاثنا عشر للفرقة الاثني عشرية التي مضى على وجودها اكثر من الف عام ، رغم ما لاقته من الظلم والاضطهاد .

عقيدتهم :

يستطيع اي انسان يحسن القراءة ان يعطي صورة واضحة الملامح عن عقيدة الاثني عشرية ، يستخلصها من اوثق المصادر ، واصفى المراجع . . . ذلك ان علماءهم قديماً وحديثاً قد وضعوا العديد من الكتب في هذا الموضوع منها – على سبيل المثال – اعتقادات الصدوق وشرحها للشيخ المفيد ، واوائل المقالات للشيخ المفيد ايضاً ، وقواعد العقائد للخواجه نصير الطوسي ، وشرحها للعلامة الحلي ، وشرح الباب الحادي عشر للمقداد ، ونقض الوشيعة للسيد محسن الأمين واصل الشيعة واصولها للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، وعقيدة الشيعة الامامية للسيد هاشم معروف ، وعقائد الامامية للشيخ المظفر ، والشيعة والتشيع ومع الشيعة الامامية للكاتب .

ولست أدري كيف يقع في الخطأ والالتباس من يعرض عقيدة هذه الفرقة مع كثرة المصادر ، وانتشارها . . . ومهما يكن ، فان الاثني عشرية يعتقدون :

بالتوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وبوجوب الصوم والصلاة ، والحج والخمس والزكاة ، وبكل ما جاء في القرآن الكريم ، وثبت عن الرسول العظيم بالتواتر او بنقل الثقات . ويعتقدون بوجوب تأويل النقل بما يتفق مع العقل ، وبأن القرآن هو هذا الذي بين ايدي الناس لا زيادة فيه ، ولا نقصان ويعتقدون بفتح باب الاجتهاد ، لاهل المعرفة والكفاءة ، وبتقليد الجاهل

للعالم في الامور الشرعية الفرعية . وبوجوب طلب العلم على كل انسان كفاية لا عيناً . وبعصمة جميع الانبياء ، وأئمتهم الاثني عشر ، وبالتقية مع خوف الضرر ، وقد ذكرنا العصمة والتقية بصورة مفصلة في كتاب الشيعة والتشيع . ويعتقدون بأن الامامة اصل من اصول المذهب ، لا من اصول الاسلام ، وان من انكرها فهو مسلم . له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، إذا اعتقد بالتوحيد والنبوة والمعاد ، ولكنه ليس امامياً .

ويعتقدون بأن الغلو بأي انسان فهو كفر سواء أكان من أهل البيت ، أم من غيرهم ، لقول الامام علي : « سيهلك فيَّ صنفان : محب مفرط ، يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق ، وخير الناس في هذا النمط الاوسط فالزموه » . وروى الاثنا عشرية عن امامهم الخامس محمد الباقر انه قال : والله ما شيعتنا الا من اتقى الله . . . ليس بين الله ، وبين احد قرابة . . . ولسنا نتقرب إلى الله الا بالطاعة ، فمن كان لله مطيعاً فهو ولينا ، ومن كان لله عاصياً فهو عدونا ، ولا تنال ولايتنا الا بالعمل والورع .

ورووا عن امامهم السادس جعفر الصادق انه قال : لا تقولوا علينا الا الحق . وقال: انما شيعة جعفر من عفَّ بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل بخالقه ، ورجا ثوابه وخاف عقابه ، فإذا رأيت أولئك فهم شيعة جعفر .

وقال بعض شعرائهم يصف الصادقين في ايمانهم وعقيدتهم من هذه الفرقة :

ان ينطقوا ذكروا أو يسكتوا فكروا   أو يغضبوا غفروا او يقطعوا وصلوا
أو يظلموا صفحوا او يوزنوا رجحوا   أو يسألوا سمحوا او يحكموا عدلوا

المهدي المنتظر :

اما المهدي المنتظر فانه فكرة اسلامية يعتنقها السنة والشيعة . فلقد روى السنة اخباره عن النبي . ودونوها في الصحاح من كتب الحديث . وبلغت اكثرتها حد التواتر منها ما جاء في سنن ابن ماجة ج ٢ الحديث رقم ٤٠٨٣ ان رسول الله قال : يكون في امتي المهدي ، تنعم به امتي نعمة لم تنعم مثلها قط . وفي حديث آخر انه يملاءها قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً . ومنها ما في سنن ابي داود السجستاني ج ٢ ص ٤٢٢ طبعة سنة ١٩٥٢ وصحيح الترمذي ج ٩ ص ٧٤ طبعة سنة ١٩٣٤ ان رسول الله قال : لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً » . ونقل صاحب اعيان الشيعة في الجزء الرابع عن فوائد السمطين « لمحمد بن ابراهيم الحموي الشافعي ان النبي قال : من انكر خروج المهدي فقد كفر بما انزل على محمد .

ووضع علماء السنة كتباً خاصة بالمهدي نذكر منها على سبيل المثال : كتاب صفة المهدي . لأبي نعيم الأصفهاني والبيان في اخبار صاحب الزمان للكنجي الشافعي . والبرهان في علامات مهدي آخر الزمان . لملا علي المتقي ، واخبار المهدي ، لعباد الرواجني ، والعرف الوردي في اخبار المهدي . للسيوطي . والقول المختصر في علامات المهدي المنتظر . لابن حجر ، وعقد الدرر في اخبار المهدي المنتظر لجلال الدين يوسف الدمشقي نقلاً عن منتخب الاثر للطف الله الصافي .

اما علماء السنة الذين افردوا لاخبار المهدي باباً خاصاً في مؤلفاتهم فلا يبلغهم الاحصاء ، وقد جرأت هذه الاحاديث والمقالات والكتب الكثيرين من اهل السنة ان ينتحلوا المهدوية ويدعونها لانفسهم ، وهذا يثبت ما قلناه

من انّ فكرة المهدي المنتظر يقول بها السنة والشيعة على السواء ، تماماً كفكرة الخلافة والاثني عشرية ، من حيث المبدأ ، ولا اختلاف الا في اتجاه الفهم وتطبيقه .

وكما اتفق الطرفان على فكرة المهدي المنتظر فقد اتفقوا ايضاً على اسمه ونسبه ، وكنيته ولقبه ، وانه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، واما الجهة التي اختلفوا فيها فهي : هل ولد المهدي او لم يولد حتى الآن .

أهم الفروق بين الشيعة والسنة :

وبالاضافة إلى ما تقدم فان الشيعة الاثني عشرية تختلف مع السنة في اشياء . بعضها يرجع إلى العقيدة ، وبعضها يرجع إلى الاحكام ، نلخص اهمها فيما يلي :

معرفة الله — قال السنة :

تجب معرفة الله بالسمع لا بالعقل ، أي ان الله وحده هو الذي اوجب على الناس ان يعرفوه . (المواقف للأيجي : (المتوفى ٧٥٦ ه . — ١٣٥٥) ١ — : ٢٥١ ، مطبعة السعادة . بمصر سنة ١٣٢٥ ه .) .

وقال الشيعة : ان معرفة الله تجب بالعقل لا بالسمع ، أي ان العقل هو الذي اوجب على الإنسان ان يعرف خالقه ، لأن معرفة الايجاب تتوقف على معرفة الموجب ، فلا بد ان نعرف الله أولاً بطريق العقل ، ثم ننظر فيما اوجب وما لم يوجب ومحال ان نعرف احكامه دون ان نعرف شيئاً عنه . . . اما ما جاء في السمع من هذا الباب كقوله تعالى :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوْ ﴾

فهو بيان وتأكيد وتقرير لحكم العقل، وليس تأسيساً جديداً من الشارع : وقال السنة : الله يصح ان يرى المواقف للأيجي ٨ : ١١٥) . وقال الشيعة : ان رؤية الله محال وغير ممكنة في الدنيا والآخرة : وأولوا الآيات الدالة بظاهرها على امكان الرؤية ، اولوها بالعقل والبصيرة لا بالعين والبصر (وقال السنة : ان صفات الله زائدة على ذاته :

وقال الشيعة بل هي عينها . والا لزم تعدد القديم .

كلام الله :

هل هناك شيء آخر وراء الفاظ التوراة والأنجيل ، الأصليين والقرآن يسمى كلام الله ، او ان كلامه تعالى هو هذا اللفظ الموجود في الكتب السماوية ؟

قال السنة : ان الكلام الموجود في الكتب السماوية ليس بكلام الله حقيقة بل ان كلامه قديم قائم بذاته ، تماماً كالعلم والقدرة والإرادة ، وهذه الكلمات المسطورة التي نتلفظ بها ، وننسبها إليه سبحانه تعبر عن كلامه القائم بذاته :

كما يعبر قولنا « علم الله وارادة الله » عن علمه وارادته القائمين بذاته .

وقال الشيعة : ان كل من يوجد كلاماً فكلامه يدل على معنى ما نطق به . وعلى هذا يكون كلام الله هو الكلمات نفسها الموجودة في التوراة ، والانجيل والقرآن .

وهي حادثة ، ومخلوقة . ولا يلزم من القول بحدوثها ان يكون الله محلاً للحوادث ، لأنه سبحانه يخلق الكلام ، كما يخلق سائر الكائنات .

أفعال الله :

قال السنة : لا يجوز تعليل افعال الله بشيء من الأغراض والعلل الغائية ، لأنه لا يجيب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء . (المواقف ٨ :٢٠٢) وفي كتاب « المذاهب الاسلامية » للشيخ ابو زهرة (فصل وحدانية التكوين : فقرة تعليل الأفعال) ما نصّه بالحرف « قال الأشاعرة اي السنة » . ان الله سبحانه وتعالى خلق الأشياء لا لعلة ولا لباعث لأن ذلك يقيّد ارادة الله » .

وقال الشيعة : ان جميع افعاله عزّ وجل معلله بمصالح تعود على الناس او تتعلق بنظام الكون ، كما هو شأن العليم الحكيم :

الأمر والإرادة :

قال السنة : لا تلازم بين ما يأمر به الله وما يريد ، ولا بين ما ينهي عنه وما يكره ؛ فقد يأمر بما يكره ، وينهي عما يحب . (المواقف ٨ : ١٧٦) وقال الشيعة : ان امر الله بالشيء يدل على ارادته له ، وان نهيه عنه يدل على كرهه له ، ومحال ان يأمر بما يكره ، وينهي عما يحب .

عقاب الطائع وثواب العاصي :

قال السنة: ان العقل يجيز على الله ان يعاقب الطائع ، ويثيب العاصي . لأن المطيع لا يستحق ثواباً بطاعته ، والعاصي لا يستحق عقاباً بمعصيته، وأيضاً يجيز العقل على الله ان يخلف وعده . (المواقف ٨ : المقصد الخامس والسادس من المرصد الثاني في المعاد) ، والمذاهب الإسلامية لأبي زهرة ، فصل بعنوان « منهاجه وآرائه » رقم ١٠٤) .

وقال الشيعة : ان العقل لا يجيز على الله ان يعاقب المطيع ، ويجيز عليه ان يتفضل على العاصي ، تماماً كما لك أن تتفضل على من اساء إليك ، ولا يجوز ان تسيء إلى من احسن .

الجبر والاختيار :

قال السنة : افعال العباد كلها خيرها وشرها ، من الله ؛ وليس لقدرتهم تأثير فيها ، وان التكليف بما لا يطاق جائز على الله ، لأنه خالق كل شيء ، ولا يجب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء . (المواقف ٨ : المقصد الأول والثاني ، والسابع من المرصد السادس في افعاله تعالى)

وقال الشيعة : ان الأنسان مخير لا مسير وان الله لا يكلف نفساً الا وسعها ، وان افعال العباد خيرها من الله ، لأنه ارادها وامر بها ومن العبد أيضاً لأنها صدرت منه باختياره وارادته ،

اما شرها فمن العبد فقط ؛ لأنه فاعلها بمشيئته ، وليست من الله لأنه نهى عنها .

الحسن والقبح :

قال السنة : ان العقل لا يدرك حسناً ولا قبحاً ؛ وانما الحسن ما امر به الشرع ، والقبيح ما نهى عنه ؛ ولو امر بما نهى عنه ، لصار حسناً بعد ان كان قبيحاً او نهى عما امر به لصار قبيحاً بعد ان كان حسناً ؛ ويقولون هذا حسن لأن الله امر به ؛ وهذا قبيح لأن الله نهى عنه (المواقف ٨ : المقصد الخامس في الحسن والقبح من المرصد السادس في افعاله تعالى)

قال الشيعة : العقل يدرك الحسن والقبح مستقلاً عن الشرع ويقولون ان الله امر بهذا لأنه حسن ، ونهى عن ذلك لأنه قبيح .

الأسباب والمسببات :

قال السنة : ان المسببات لا تجري على اسبابها ، وان جميع الممكنات مستندة إليه تعالى بلا واسطة ولا علاقة بين الحوادث المتعاقبة الا باجراء العادة بخلق بعضها عقب بعض ، كالاحراق عقب مماسة النار والري بعد شرب الماء فكل من الأحراق والري يستند إلى الله مباشرة ، ولا مدخل اطلاقاً للمماسة والشرب . المواقف ٨ : ١٤٨ و ٢٠٣ — ٢٠٤ .

وقال الشيعة : ان جميع المسببات ترتبط باسبابها ، فالماء هو الذي يروي والنار هي التي تحرق :

وقال السنة : لا يجب على الله ان يبعث انبياء يبينون للناس موارد الخير والشر ، ويجوز ان يتركهم بلا هاد ولا مرشد ، لأنه لا يجب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء

وقال الشيعة : بل تجب بعثة الأنبياء من باب اللطف الذي يقرب الناس من الطاعة ويبتعد بهم عن المعصية .

عصمة الأنبياء قال السنة : تجوز الذنوب على الأنبياء الكبائر منها والصغائر قبل البعثة ، اما بعد البعثة ، فتجوز الصغائر عمداً وسهواً والكبائر سهواً ، لا عمداً .

وقال الشيعة : الأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها ، قبل البعثة وبعد البعثة ولا يصدر عنهم ما يشين لا عمداً ولا سهواً كما انهم منزهون

عن دناءة الأباء ، وعهر الأمهات والله سبحانه نقلهم من اصلاب طاهرة إلى ارحام مطهرة منذ آدم إلى حين ولادتهم .

الصحابة :

قال أكثر السنة : ان اصحاب رسول الله جميعهم عدول لا تطلب تزكيتهم (كتاب مسلم : الثبوت وشرحه ، وكتاب « اصول الفقه » للخضري .

وقال الشيعة : ان الصحابة كغيرهم ، فيهم الطيب ، والخبيث ، والعادل والفاسق ، واستدلوا بالآية ١٠١ من سورة التوبة :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ .

وقالوا : بل انزل الله على نبيه سورة خاصة بالمنافقين افتتحها بقوله :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ المنافقون ٢ .

الاجتهاد :

للاجتهاد معنيان :

الأول ان يستخرج الفقيه الحكم الشرعي فما يرتأيه هو ويستحسنه ، دون ان يعتمد على آية قرآنية ، أو سنة نبوية ، او اجماع قائم ، أو مبدأ

ثبت الحكم العقل والبديهة ، وتسالم على صحته جميع العقلاء . . . وهذا النوع من الاجتهاد يعبر عنه بالرأي ، وهو جائز عند السنة .

اما عند الشيعة فمحرم ؛ ويستدلون على تحريمه بانه يعتمد على مجرد الظن والترجيحات الشخصية ...

المعنى الثاني : ان يجتهد الفقيه في سند الحديث من حيث الصحة والضعف ، وفي تفسير النص كتاباً وسنة ، وفي استخراج الحكم من اقوال المجمعين ومبدأ العقل الثابت بالبديهة كمبدأ قبح العقاب بلا بيان ، ومبدأ المشروط عدم عند عدم شرطه ، وما إلى ذلك من احكام العقل التي لا تقبل الشك ، ولا يختلف فيه اثنان . . . وقد اجاز الشيعة هذا الاجتهاد لكل فقيه يجمع الشروط المقررة للمجتهد ، ولم يقيدوا اجتهاده بقول امام من أئمة السلف او الخلف .

وحرم السنة هذا النوع من الاجتهاد واقفلوا بابه منذ القرن الرابع الهجري وحجروا على الفقيه ان يصحح أو يضعف حديثاً من احاديث الآحاد او يعمل بما يفهمه من النص ، او يستخرج حكماً من مبادىء العقل ، الا إذا وافق رأيه قول امام من أئمة السلف .

التعصيب :

قال السنة : إذا كان للميت بنت وأخ وليس له ابن ولا أب فتركته مناصفة بين الأخ والبنت وإذا كان له بنتان فأكثر فلأخيه الثلث ، والباقي للبنتين او البنات . . . وهذي احدى مسائل التعصيب الذي عقد الفقهاء له فصلاً خاصاً في باب الميراث .

وقال الشيعة : التعصيب باطلٌ من الأساس بشتى فروعه ومسائله ، وان التركة بكاملها للبنت او البنات ، وليس للأخ شيء لان الولد ذكراً كان أو

انثى يأتي في الدرجة الاولى نسباً والأخ في الدرجة الثانية . والعم في الدرجة الثالثة .

العول :

القاعدة في الارث ان فرض الزوجة من ميراث زوجها الثمن ان كان له ولد ذكراً كان او انثى ، وللأبوين معاً الثلث وللبنتين الثلثان إذا لم يكن للميت ابن فإذا افترض ان كان للميت زوجة وابوان وبنتان . ولا ابن له اجتمع على تركته من له الثمن ، ومن له الثلث . ومن له الثلثان وبديهة ان التركة لا تتسع للثلث والثلثين والثمن . فإذا اخذ الابوان الثلث . والبنتان الثلثين . لم يبق للزوجة شيء . وإذا اخذت الزوجة الثمن . دخل النقص على الابوين او البنتين . فماذا نصنع . وهذي احدى المسائل العول الذي اطال الفقهاء الكلام عنه في باب الميراث ، ومعنى العول هنا زيادة السهام على التركة . قال السنة : يدخل النقص على كل واحد بقدر سهمه . تماماً كأرباب الديون إذا ضاق مال المديون عن دينهم .

وقال الشيعة : يدخل النقص على البنتين فقط .

المتعة من معاني المتعة الزواج إلى اجل . وقد اتفق المسلمون قولاً واحداً السنة منهم والشيعة على ان الإسلام شرعها . ورسول الله اباحها . واستدلوا بالآية ٣٤ « من سورة النساء » :

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ
فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾
النساء ٢٤ .

وجاء في « صحيح البخاري » (٧ : كتاب النكاح) : ان رسول الله قال لأصحابه في بعض حروبه : « قد اذن لكم ان تستمتعوا فاستمتعوا . . . ايما رجل او امرأة توافقا فعشرة ما ما بينهما ثلاث ليال ، فان احبّا ان يتزايدا او يتاركا تركا » .

وفي « صحيح مسلم » (٢ : باب نكاح المتعة ص ٦٢٣ ، طبعة ١٣٤٨ هـ) عن جابر بن عبد الله الأنصاري انه قال : استمتعنا على عهد رسول الله ، وأبي بكر ، وعمر » وفي الصفحة نفسها حديث عن جابر قال فيه : « ثم نهانا عنه عمر » .

وبعد ان اتفق المسلمون على شرعيتها واباحتها في عهد رسول الله ، اختلفوا في نسخها : وهل صارت حراماً بعد ان احلها الله ؟ .

ذهب السنة إلى انها نسخت ، وحرمت الأذن بها قال ابن حجر العسقلاني في كتاب « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » (١١ : ٧٠ طبعة ١٩٥٩) « وردت عدة احاديث صحيحة وصريحة بالنهي عن المتعة بعد الأذن بها » وجاء في الجزء السادس من كتاب المغني » لأبن قدامة ص٦٤٥، طبعة ثالثة، ما نصه بالحرف : قال الشافعي : لا أعلم شيئاً احله الله ، ثم حرمه ، ثم احله ثم حرمه ، الا المتعة » .

وقال الشيعة : اجمع المسلمون على اباحة المتعة ، واختلفوا في نسخها وما ثبت باليقين لا يزول بمجرد الشك والظن . وايضاً استدلوا على عدم النسخ بان الامام الصادق سئل : « هل نسخ اية المتعة شيء قال : لا ولولا ما نهى عنها عمر ، مازنى الا شقي » وان كثيراً من الناس يحسبون المتعة ضرباً من الزنا والفجور ، جهلاً بحقيقتها ، ويعتقدون ان ابن المتعة ، عند الشيعة ، لا نصيب له من ميراث ابيه ، وان المتمع بها لا عدة لها وانها تستطيع ان تنتقل

من رجل إلى رجل إن شاءت . . . ومن اجل هذا استقبحوا المتعة . واستنكروها وشنعوا على من اباحها .

والواقع ان المتعة عند الشيعة الأثني عشرية كالزواج الدائم . لا تتم الا بالعقد الدال على قصد الزواج صراحة ، وان المتمتع بها يجب ان تكون خالية من جميع الموانع ، وان ولدها كالولد من الدائمة في وجوب التوارث والانفاق وسائر الحقوق المادية والأدبية وان عليها ان تعتد بعد انتهاء الأجل مع الدخول بها ، وإذا مات زوجها وهي في عصمته ، اعتدت كالدائمة من غير تفاوت إلى غير ذلك من الآثار والأحكام .

وقال الشيعة : تجب الصلاة على النبي وآله في الصلاة ومن لا يصلي عليه وعليهم فيها فلا صلاة له . واستدلوا بالآية ٥٦ من سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾

معطوفاً عليها الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه ج ٨ ، كتاب الدعوات ، باب الصلاة على النبي وهذا نصه بالحرف : « كيف نصلي عليك ــ يا رسول الله ــ فقال : قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل ابراهيم ، انك حميد مجيد »

قال السنة : لا تجب الصلاة على آل محمد في الصلاة وبالأولى في غيرها . ما الصلاة على محمد دون آله فهي فرض عند الشافعية والحنابلة ، وتبطل الصلاه بتركها ؛ وهي سنة راجحة عند الحنفية والمالكية ، وتصح الصلاة بتركها . ج ١ ميزان الشعراني ، باب صفة الصلاة . و ج ١ المغنى لابن قدامة ، مسألة التشهد .

تاريخهم السياسي :

ان الارتباط وثيق جداً بين تاريخهم السياسي . وبين ملوك بني بويه . والأمراء الحمدانيين . وملوك ايران من عهد الصفويين إلى اليوم . وذكرنا ما يتصل بذلك في كتاب « الشيعة والتشيع » اما الفاطميون فقد كانوا من الأسماعيلية لا من الاثني عشرية .

ولا بد للمؤرخ لهذه الفرقة ان يدخل في حسابه الأمارات المستقلة – غير امراء الأقطاع – كامارة بني عمار الذين حكموا طرابلس الشام من اواسط القرن الخامس الهجري إلى سنة ٥٠٢ حين اخذها منهم الصليبيون .

وايضاً عليه ان ينظر إلى من تولى الوزارة من هذه الفرقة لدول غير شيعية . كالعلقمي وزير المستعصم العباسي . وابن الفرات وزير المقتدر .

وايضاً ينبغي ان يقف طويلاً عند الحوادث والحركات الثورية التي قام بها الشيعة الاثنا عشرية . للانتفاض على السلطة الحاكمة طلباًللحرية والعدالة . كثورة العراقيين ضد الانكليز سنة ٩٢٠ وموقف علمائهم من حكام الجور .

تاريخهم الثقافي :

أما آثارهم الثقافية فيستطيع الباحث ان يعرفها بالحس واليقين . لا بالحدس والتخمين . فهذه المكتبة الإسلامية العربية منها . وغير العربية تغص في مؤلفاتهم من كل فن . وقد ذكرنا منها في كلمتنا عن آل البيت ، اما منهجهم في البحث والتأليف فهو الاجتهاد ومنطق العقل . قال الدكتور توفيق الطويل المصري في كتاب « اسس الفلسفة » ص ٣٩٠ طبعة ١٩٥٥ : ورأي كارادي فو « ان التشيع رد فعل لفكر حر طليق كان يقاوم جموداً عقلياً بدا في مذهب اهل السنة » وفي ص ٣٩١ : « كان للشيعة فضل ملحوظ في اغناء

المضمون الروحي للاسلام . فبمثل حركاتهم الجامعة تأمن الأديان التحجر في قوالب جامدة » .

وقال الشيخ مصطفى عبد الرزاق شيخ الأزهر في كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٠٢ طبعة ١٩٥٩ : « ان النزوع إلى تدوين الفقه كان اسرع إلى الشيعة من سائر المسلمين » وقدمنا ان الذهن يتجه عند سماع لفظة الشيعة إلى الاثني عشرية .

وقال الأديب احمد امين المصري في كتاب « يوم الإسلام » ص ٨٩ طبعة ١٩٥٨ : « وكان الطوسي — أي الخواجا نصير — اسبق من اينشتين في فهم الزمنية » .

وفي مجلة المجلة المصرية عدد تشرين الثاني ١٩٦٤ مقال بعنوان« نظرة جديدة في الفلسفة الاسلامية » جاء فيه « صدر في هذه السنة الجزء الأول من تاريخ الفلسفة الاسلامية تأليف « هنري كوربان » الأستاذ بالمدرسة العلمية للدراسات العليا في كلية الأداب بالسوربون . وقد اعطى المؤلف الشيعة نصيب الأسد في تطور الفلسفة الإسلامية . والكثير من آرائها واتجاهاتها . . . وكذلك اعطى أهمية كبرى لمير داماد ، وملا محسن الفيض ، وعبد الرزاق هيجي . وقاضي سعيد القمي ، وصدر الدين الشيرازي . وسيد حيدر آملي ، والجلال الرواني . وابن كمونة ، ومحمود شبستري » .

بلدانهم وعددهم :

ان احصاء البلدان والنفوس من الموضوعات العلمية التي تعتمد على الاستقراء والمشاهدات ، ولا نعرف احداً احصى بلدان هذه الفرقة وعددهم على هذا الأساس لنعتمد عليه . وننقل عنه ولكن الذي لا شك فيه انهم من الفرق الكبرى

في الإسلام ، ويأتون بعد السنة من حيث العدد بلا فصل . وان العراق وايران والبحرين والاحساء والقطيف اكثرهم منهم .

وهم في لبنان من الطوائف الأولى ، ويشعرون فيه بحريتهم وكرامتهم . لان لبنان من حيث هو بلد الحرية والكرامة ؛ ولهم في هذا البلد تاريخ مجيد . ويعيش العدد الكبير من الاثني عشرية في اكثر البلاد الاسلامية كسورية والحجاز ، واليمن . وقطر ، ومسقط وعمان ، والكويت ومنهم نواب في المجلس بتركيا . ومنهم الآن نائبان ويذهب إليهم بين الحين والحين بعض علماء النجف وايران للهداية والارشاد .

ولا يخلو مكان منهم في افغستان ، وبعثات الأفغانيين الدينية إلى النجف الأشرف مستمرة منذ القديم. وقال لي أديب اندونوسي اثنا عشري ،وعالم من علماء النجف اقام امداً غير قصير في اندنوسيا ، قال : ان عدد الاثني عشرية هناك يبلغ نحوا من خمسة ملايين .

ويوجد منهم عدد غير قليل في البانيا . اما الصين فقال الشيخ المظفر في تاريخ الشيعة : ان فيها ١١ مليوناً ؛ وفي روسيا ١٠ ملايين . وقال صاحب اعيان الشيعة : انهم في الهند ٣٠ مليون . وفي الجزء الأول من دائرة المعارف الإسلامية الشيعة التي يصدرها الأستاذ الكبير السيد حسن الأمين باللغة الإنكليزية — ان عدد الشيعة اليوم يبلغ حوالي مئة وخمسين مليوناً يقيمون في شرق الأرض وغربها .

وقال الشيخ محمد ابو زهرة المصري في آخر كتاب الإمام جعفر الصادق : لقد نما المذهب الجعفري . وانتشر لأسباب :

١ ـ ان باب الاجتهاد مفتوح عند أهله [1] .

٢ ـ إن المذهب الجعفري قد انتشر في أقاليم مختلفة الألوان من الصين إلى بحر الظلمات ، حيث أوروبا وما حولها . وتفريق الأقاليم التي تتباين عاداتهم وتفكيرهم وبيآتهم الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية . إن هذا يجعل المذهب كالنهر الجاري في الأرضين المختلفة الألوان يحمل في سيره ألوانها وأشكالها من غير ان تتغير في الجملة عذوبته .

٣ ـ كثرة علماء المذهب الذين يتصدون للبحث والدراسة وعلاج المشاكل المختلفة ، وقد آتى الله ذلك المذهب من هؤلاء العلماء عدداً وفيراً عكفوا على دراسته ، وعلاج المشاكل على مقتضاه .

(١) تكلمنا مفصلا عن الاجتهاد في المجلد السابع من دائرة المعارف ، وآخر الجزء السادس من فقه الإمام الصادق .

آل البيت

تعريف :

أهل البيت في اللغة سكانه ، وآل الرجل أهله ، ولا يستعمل لفظ « آل » إلاّ في أهل رجل له مكانة .

وقد جاء ذكر أهل البيت في آيتين من القرآن : الأولى الآية ٧٣ من سورة « هود » :

﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ ﴾ .

والثانية الآية ٣٣ من سورة « الاحزاب » :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

واتفق المفسرون أن المراد بالآية الاولى أهل بيت ابراهيم الخليل ، وبالآية الثانية أهل بيت محمد بن عبد الله ؛ وتبعاً للقرآن استعمل المسلمون لفظ أهل البيت وآل البيت في أهل بيت محمد خاصة ، واشتهر هذا الاستعمال

حتى صار اللفظ علماً لهم . بحيث لا يفهم منه غيرهم إلا بالقرينة ، كما اشتهر لفظ المدينة بيثرب مدينة الرسول .

اختلف المسلمون في عدد أزواج النبي . فمن قائل : اثنتي ثماني عشرة امرأة . ومنهم من قال : اثنتي احدى عشرة . وعلى أي الأحوال فقد أقام مع النساء سبعاً وثلاثين سنة . رزق خلالها بنين وبنات ماتوا كلهم في حياته . ولم يبق منهم سوى ابنته فاطمة . وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن علي بن أبي طالب . وفاطمة . والحسن . والحسين من آل البيت في الصميم . وان شجرة النسب النبوي تنحصر فروعها في أبناء فاطمة . لأن النبي لم يُعقب إلاّ من وُلدها .

منزلة آل البيت عند المسلمين :

إذا أردنا أن نعرف منزلة آل البيت عند المسلمين ، والباعث على تكوين الفرق الإسلامية ، وإيمانها بآل البيت فعلينا أن نلاحظ منزلة محمد عند المسلمين ، وسيرته مع آل بيته . وأن نلاحظ . مع ذلك ، أخلاق آل البيت أنفسهم . وما أصابهم من المحن في سبيل تمسكهم بما يرونه الحق والعدل . وكل ما يرونه حقاً فهو الحق .

ان حقيقة الإسلام هي الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة : « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » . فمن أقرّ لله بالوحدانية . وجحد رسالة محمد ، أو نسب صفات الخالق إلى غير الله ، أو صفات النبوّة إلى غير محمد ممن كان في عصره ، أو جحد آية من القرآن ، أو سنة ثابتة بالضرورة من سنن النبي ، فلا يصحّ عده من المسلمين ، لأنه لا يحمل الطابع الأساسي للإسلام . فالمسلم إذن من آمن بالله ، وبمحمد ، وقرن طاعته بطاعته ، وبهذا

نطقت الآية ١٣٢ من سورة « آل عمران » :

﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

والآية ٦٢ من سورة « التوبة » :

﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ .

والآية ٦٥ من سورة « النساء » :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

والآية ٢ من سورة « النجم » :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

وما إلى ذلك من عشرات الآيات .

سيرة النبي مع آل بيته :

نقل أصحاب السير والمناقب من السنة والشيعة صوراً كثيرة لعطف النبي على آل بيته وحبّه لهم ، نكتفي بالإشارة إلى بعضها :

كان النبي إذا سافر ، فآخر بيت يخرج منه بيت فاطمة وإذا رجع من سفره فأول بيت يدخله بيتها . يجلس ويضع الحسن على فخذه الأيمن ، والحسين على فخذه الأيسر ، يقبّل هذا مرة وذاك أخرى ، ويجلس علياً وفاطمة بين

يديه . وجاء في الحديث أنه دخل مرة بيت فاطمة ودعاها ودعا علياً ، والحسن ، والحسين ، ولفّ عليه وعليهم كساء وتلا الآية :

﴿ إنّمَا يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عنْكُمُ الرّجْسَ أهْلَ البَيْتِ ، وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ .

والمسلمون يسمّون هذا الحديث بحديث الكساء . ويطلقون لفظ « أصحاب الكساء » على محمد ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين . وقال لهم مرة : « أنا سلم لمن سالمكم ، وحرب لمن حاربكم » . وما إلى ذلك من الأحاديث المشهورة عند جميع الفرق الإسلامية . وقد أوصى النبي أمته بآل بيته ، ووصاهم بالقرآن ، ففي الحديث : « اني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله ، وفيه الهدى والنور . . . ثم قال : وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » . وفي الآية ٢٢ من سورة « الشورى » :

﴿ قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَوَدّةَ في القُرْبَى ﴾ .

والمراد بالقربى قرابة النبي . ولذا اولاهم المسلمون على اختلاف فرقهم قسطاً كبيراً من الرعاية والتبجيل . وكان لهم عند ابي بكر من التعظيم والاكبار ما لم يكن لاحد غيرهم . وكان عمر بن الخطاب يؤثرهم على جميع المسلمين ، فرض لأبناء البدريين من العطاء الفين الفين في السنة الا حسناً وحسيناً فرض لكل واحد منهما خمسة آلاف . وقد ملأ أصحاب التاريخ والتراجم كتبهم بفضائل أهل البيت ومناقبهم . فأهل السنة يقدّسون علياً والأئمة من

ذرّيته . ولكنهم لا يعترفون بأنهم احقّ وأولى بالخلافة من غيرهم ، كما تعتقد الشيعة .

اخلاق أهل البيت :

كان عليّ صلباً في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم . ولم يكن الحقّ في مفهومه ما كان امتداداً لذاته وسلطانه . فقد تساهل في حقوقه الخاصة حتّى استغل اعداؤه هذا التساهل عفا عن مروان بن الحكم بعد ان ظفر به في وقعة الجمل وعن عمرو بن العاص حين تمكن منه يوم صفين ، وسقى أهل الشام من الماء بعد ان منعوه منه ، حتّى كاد يهلك جنده عطشاً . وانما كان الحق في مفهومه ان لا يستأثر انسان على انسان بشيء كائناً من كان . جاءته امرأتان ذات يوم تشكوان فقرهما . فأعطاهما . ولكن احداهما سألته ان يفضلها على صاحبتها ، لأنها عربية ، وصاحبتها من الموالي. فأخذ قبضة من تراب ، ونظر فيه ، وقال : لا اعلم ان الله فضّل احداً من الناس على احد الا بالطاعة والتقوى وطلب أخوه عقيل . وهو ابن امه وابيه شيئاً من بيت المال ، فمنعه . وأرادت ابنته ام كلثوم ان تتزين يوم العيد بعقد من بيت المال . على ان تردّه عارية مضمونة . حين كان ابوها خليفة ، فغضب . وطلب طلحة والزبير الوظيفة على ان يناصراه ، والاّ عارضا وأثارا عليه حرباً شعواء ، فأبى ، ولما أشير عليه ان يخادعهما ويخادع معاوية حتّى يستقيم له الامر ، فقال : لا اداهن في ديني ، ولا اعطي الدنية في امري ، وأبى ان ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء . . . وكان يلبس المرقع حتّى استحيا من راقعه ، كما قال ، وكان راقعه ولده الحسن . ويأكل الخبز الشعير تطحنه امرأته بيدها مؤساة للكادحين والمعوزين . واثنى عليه رجل من اصحابه ، فأجابه بقوله : ان من اسخف حالات الولاة عند صالح الناس ان يظنّ بهم

حبّ الفخر ، ويوضع امرهم على الكبر ، وقد كرهت ان يكون رجال في ظنكم اني احبّ الاطراء واستماع الثناء . . . فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة .

وكان منكراً لذاته متوجهاً بكل تفكيره إلى خير الجماعة ، لا يبالي بغضب الخاصة إذا رضيت العامة . ويقول : إن سخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة . لذا افتتنت به الجماهير في عصره وبعد عصره وبوأته اعلى مكان، لانه العنوان الكامل لآمالها وامانيها . ومنهم من رفعه إلى مكان الآلهة ، كما فعل الغلاة ، وبحق قال له النبي : يا علي ان الله قد زينك بأحب زينة لديه ، وهب لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعاً ؛ ويرضون بك اماماً .

لقد بالغ عليّ في تمسكه بالحق ، وحاسب عليه نفسه وعماله ، حتى اغضب الكثير منهم ، وبعضهم تركه وهرب إلى عدوّه معاوية ، واصبح عوناً له بعد ان كان حرباً عليه .

آمن علي بالله وبالانسان . وقد ورث عنه الأئمة من ولده هذا الايمان وساروا بسيرته . وتخلقوا بأخلاقه . فكل واحد منهم وافر العلم، محب للخير والسلم ، عزوف عن الشر والحرب ، صارم في الحق . وانما ظهر بعض هذه الصفات في شخص أحدهم أكثر من الآخرين تبعاً للظروف ومقتضيات الأحوال . ظهر في الحسن بن علي حبه للسلم وكرهه للحرب ، لأن عصره كان عصر الفتن والقلاقل ، بايعه اهل العراق بعد وفاة ابيه بالخلافة . وكان جيشه يتألف من اربعين الفاً . ولما رأى ان معاوية مصرّ على الحرب ، تنازل له عن الخلافة مؤثراً حقن الدماء وصالح الاسلام على كل شيء . . . وظهرت صلابة الحسين في الحق ، وضحّى بنفسه واهله واصحابه ، لان يزيد بن معاوية لم يترك مجالاً للمهادنة . وظهرت آثار علوم الامام محمد الباقر وولده

الامام جعفر الصادق ، لان العلم في عصرهما كثر طلابه والراغبون فيه ، وقد افسح لهما المجال للتدريس وبثّ العلوم .

محن آل البيت :

تحدّث أصحاب التاريخ والسير عن محن آل البيت وأطالوا الحديث ، ووضع الشيعة فيها كتباً مستقلة سموا الكثير منها بأسماء تدل عليها ، كاسم مثير الاحزان ، ونفس المهموم ، والدمعة الساكبة ، ولواعج الأشجان ، ورياض المصائب ، واللهوف ، ومقاتل الطالبيين ، وما إلى ذلك . وتكاد تتفق كلمة الباحثين القدامى والمتأخرين على ان الامويين انما نكلوا بآل البيت أخذاً بثارات بدر واحد ، لأن محمداً وعلياً قتلا في هاتين الحربين شيوخ الأمويين وساداتهم . ويستشهدون على ذلك بما تمثل به يزيد بن معاوية ، عندما قتل الحسين ، ووضع رأسه بين يديه :

ليت اشياخي ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً ،　　ثم قالوا : يا يزيد ، لا تشل

وليس ببعيد ان يتذكر يزيد الحفائظ والحروب القديمة بين محمد ، جدّ الحسين وابيه معاوية ، وان ينطق بكلمة التشفّي والحقد . ولكن الباعث الاول على الفجيعة هو نظام الجور ، وعهد الاب للابن بالخلافة ، وجعلها حقاً موروثاً . والبحث في محن آل البيت واسع المجال متشعّب الاطراف .

فقد ظهرت آثار هذه المحن في العقيدة ، والسياسة ، والادب ، والتقاليد وما زالت تفعل فعلها إلى اليوم . ولم يتح لمحن آل البيت ، فيما اعلم ، من درسها درساً موضوعياً ، ولا يمكن شرحها وبيان اسبابها ونتائجها في مقامنا

هذا . وعلى أي الأحوال ، فان محن آل البيت ومحن الناس جميعاً ابتدأت منذ تغيّر نظام الحكم عند المسلمين .

كان الحكم في عهد الرسول الأعظم يقوم على مبدأ ان كل شيء لله ، فالمال مال الله ، والجند جند الله ، ومعنى هذا ان الناس جميعاً متساوون في الحقوق ، لان الله للجميع وبعده بامد قصير تغير هذا النظام ، واصبح كل شيء للحاكم . فالمال مال الحاكم ، والجند جند الحاكم ، والناس كلهم عبيد الحاكم . قال معاوية بن أبي سفيان : « الأرض لله . وانا خليفة الله . فما اخذت فلي . وما تركته للناس فبالفضل مني » . وعلى هذا المبدأ ، وهب مصر لعمرو بن العاص مكافأة له على جهاده وبلائه ضد الامام علي . وكان جند يزيد في وقعة الحرة يجبرون الناس على ان يبايعوا يزيد . على انهم عبيد قنّ له ، وينقشون أكف المبايعين علامة الاسترقاق . ومن أبى عن هذه البيعة ضربت عنقه .

من هذا النظام وحده تولدت محن آل البيت وغير آل البيت ، وان كان نصيبهم منها أكبر وأفظع .

ولا بد من التساؤل : لماذا ذعر الناس لمحن آل البيت وتحدّثوا فيها وأطالوا الحديث أكثر من غيرها ؟ ويمكننا الجواب بأن محنهم كانت اقسى المحن جميعاً ، وبأنها في نظر المسلمين هي محن الاسلام نفسه . فقد اوصى الرسول وبالغ في الوصاية بأهل بيته . وواساهم بكتاب الله . وشبّههم بسفينة نوح واعتبر التعدي عليهم تعدياً عليه بالذات : وهذا السبب يرجع إلى الدين ، ولا شيء يوازي احترام العقيدة الدينية وتقديسها عند المسلمين وبخاصة في ذلك العهد .

وهناك اسباب سياسية لتوالي المحن على آل البيت من الحكام . واذاعتها بين الجماهير اكثر من غيرها . لما يئس المسلمون من اصلاح الحاكم تمنوا ان يدبر شؤونهم امام عادل ناصح لله ورسوله ، وفي آل البيت خير من توافرت فيه هذه الصفات . بل كان في المسلمين حزب قوي منتشر في اقطار الارض يدين بالتشيع لهم ، ويرى ان الخلافة حق خصه الله بعلي وبنيه . وقد اعلن الشيعة هذا المبدأ في اشعارهم ، واتخذوه اساساً لتعاليمهم ، وعملوا على بثه في الجهر والخفاء ؛ ولم يتركوا فرصة تمرّ إلاّ عدّدوا مناقب آل البيت ومثالب من غصبهم هذا الحق . فرأى الحكام في آل البيت وشيعتهم خطراً كبيراً على سلامة الدولة وأمنها اكثر من غيرهم فخصّوهم بالقسط الاوفر من المحن ؛ ونكّلوا بهم بقسوة تفوق كل قسوة . وقد رأى الناس في هذه المحن مورداً خصباً للتشهير بالحاكم واثارة الجمهير ؛ ولا شيء كالخطوب والمآسي تستدعي عطف الناس ؛ وتثير اشفاقهم ورحمتهم ؛ وكلنا يعرف كيف استغلّ معاوية قميص عثمان لتأليب أهل الشام على عليّ . فالشيعة اذاعوا تلك المحن وبكوا واستبكوا الناس وفاء لأئمتهم . ولبث الدعوة لهم ونشر مبادئهم . واذاعها كل ناقم رمعارض للأنظمة السياسية تبريراً لنقمته ومعارضته ودعماً لأقواله وحجته تظلم الشعب لآل البيت ، وفي الوقت نفسه عبر بمحنهم عن ثورته على الفساد .

ان محن آل البيت هي محن الشعب ، ومحنه محنهم ، وقد اعرب عن آلامه بما ألمّ بهم ، لاثارة العواطف ؛ لأنّ من أساء إليهم فبالاحرى ان يسيء إلى غيرهم ، ولأنهم المجموعة الكريمة الطيبة التي يرى فيها الشعب مثاله الأعلى ويتمنى ان تقوده هي . او من يماثلها في الصفات والمؤهلات والاّ فان الثورة على النظام الجائر محتمة لا محالة .

كارثة كربلاء واثرها في حياة الشيعة :

كانت الأسباب الأولى لمحن آل البيت سياسية ، وبعد حدوثها تركت أثراً بارزاً في حياة طائفة كبيرة من المسلمين كانت ولا تزال تدين بالولاء لآل البيت . فكارثة كربلاء ، وهي أفظع ما حلّ بآل البيت من كوارث قُتل فيها الحسين بن علي . وسبعة عشر شاباً وطفلاً من اهله ، واكثر من سبعين رجلاً من اصحابه ، فيهم الصحابي والتابعي ، هذه الحادثة جعلت كربلاء مزاراً مقدساً عند الشيعة يفد إليها في كل سنة مئات الالوف للزيارة من انحاء البلاد ، وفي كثير من الأحيان يوصي الشيعي في الهند ، وايران واطراف العراق أن ينقل رفاته من بلده ليدفن في كربلاء ، رغبة في ثواب الله وجزائه . وتحيي الشيعة ، في كل سنة ، وفي كل مدينة وقرية من بلادهم ، ذكرى مقتل الحسين في الثلث الاول من شهر المحرم . وفي بعض ايام السنة ، يجتمعون للاحتفال بهذه الذكرى فيروي الخطيب بعض أخبار كربلاء ومأساتها ، ويعدّد المناقب والسوابق لشهدائها ، وينوح عليهم شعرا ونثراً . ويسمون هذه المحافل بمجالس التعزية ، وقد وضعوا لها كتباً خاصة .

وما زال شعراء الشيعة ، منذ قتل الحسين إلى اليوم ، ينظمون القصائد الطوال يصورون فيها الحوادث الدامية التي جرت في كربلاء ، وهي من عيون الشعر العربي في الرثاء . وقد طبع السيد محسن الأمين قسماً كبيراً من هذه المراثي اسماه « الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد » .

ونذكر ابياتاً من قصيدة لشاعر شيعي تصوّر لنا الغاية التي يهدف إليها الشيعة من زيارة كربلاء ، ويوم عاشوراء .

شممتُ ثراك ، فهبّ النسيم ... نسيم الكرامة من بلقعِ ،
وعفرتُ خدي بحيث استرا ... ح خدّ تفرّى ولم يخضع .

وماذا ؟ أأروعُ من ان يكون لحمك وقفاً على المبضع ِ ،
وان تتقي ، دون ما ترتأي . ضميرك بالأسل الشرع ِ ،
وأن تطعم الموت خير البنين من الاكهلين إلى الرّضّع !

ومن هنا نعرف ان الشيعة انما يقدسون ارض كربلاء ، ويحبون يوم عاشوراء ، لأنها ، في نظرهم ، رمز الجهاد المقدس في سبيل الحرية والكرامة ، وعنوان التضحية ضد الظلم والطغيان . فاحياؤها كذلك ثورة على الظلم والطغيان .

ماذا تعني كلمة الحسين عند الشيعة :

كتبت ما تقدم عن كارثة كربلاء واثرها في حياة الشيعة سنة ١٣٧٥ ﻫ وفي شهر رمضان المبارك سنة ١٣٨٧ كنت في البحرين ، وكان عليّ ان اصعد المنبر في كل ليلة بمأتم آل العريض الكرام بعد أن ازمع على موضوع يتقبله المثقف العصري وغيره على السواء . وكنت احرص على بلوغ هذا الهدف كل الحرص . . . أما الحكم بأني أدركت ما اردت واملت فأدعه إلى أهل البحرين .

وفي احدى الليالي صعدت المنبر ، وقبل أن ابتديء بالكلام سمعت صوتاً يقول : سلام الله عليك يا حسين ، ولعن الله من قتلك ، وكان الموضوع الذي ازمعت الحديث عنه لا يتصل بالحسين ولا بيزيد من قريب أو بعيد ، وإذا بي انسى موضوع المحاضرة ، وأشرع بتفسير كلمة الحسين عند اطلاقها دون قيد ، وكلمة يزيد وماذا تعنيان عند الشيعة . وقلت فيما قلت :

إن التطور لم يقف عند حدود المادة ، بل تعداها إلى الأفكار واللغة . لأنها جميعاً متلازمة متشابكة ، لا ينفك بعضها عن بعض . . . وكلمة الحسين كانت في البداية اسماً لذات الحسين بن علي (ع) ثم تطورت مع الزمن ،

واصبحت عند شيعته وشيعة أبيه رمزاً للبطولة والجهاد من أجل تحرر الإنسانية من الظلم والإضطهاد، وعنواناً للفداء والتضحية بالرجال والنساء والأطفال لإحياء دين محمد بن عبد الله (ص) ولا شيء أصدق في الدلالة على هذه الحقيقة من قول الحسين (ع) . وهو في طريقه إلى الاستشهاد « أمضي على دين النبي » .

اما كلمة يزيد فقد كانت من قبل اسماً لابن معاوية . اما هي الآن عند الشيعة فانها رمز للفساد والاستبداد ، والتهتك والخلاعة ، وعنوان للزندقة والإلحاد ، فحيث يكون الشر والفساد فثم اسم يزيد ؛ وحيثما يكون الخير والحق والعدل فثم اسم الحسين .

فكربلاء اليوم عند الشيعة هي فلسطين المحتلة ، وسيناء . والضفة الغربية من الاردن ، والمرتفعات السورية . أما أطفال الحسين وسبايا الحسين فهم النساء والأطفال المشردون المطرودون من ديارهم ، . . . وشهداء كربلاء هم الذين قتلوا دفاعاً عن الحق والوطن في ٥ حزيران . . . وهذا ما عناه الشاعر الشيعي بقوله :

كأن كل مكان كربلاء لدى عيني وكل زمان يوم عاشورا

وما ان انزلت عن المنبر ، حتى استقبلني شاب مرحباً وقال : هذي هي الحقيقة ، وهكذا يجب أن يفهم الإسلام وتاريخ الإسلام ، بخاصة كارثة كربلاء . . . ثم وجه إلي سؤالاً وافقني على جوابه ، ولم أكن أعرفه من قبل ولما عرفوني به علمت أنه من سنة البحرين ، وأنه يشغل منصباً كبيراً في الحكومة.

علم الامام علي بن أبي طالب :

كان مظهر الحياة الفكرية عندالعرب قبل الإسلام اللغة ، والشعر ، والأمثال والقصص ، ومعرفة الأنساب . وبعد الإسلام والقرآن تطورت الحياة الفكرية والمادية ، وتعددت العلوم ، واصبح كل ما أشار إليه القرآن من قريب او

بعيد علماً مستقلاً ، ولم يتعرض الإسلام للعقائد والأخلاق والعبادات فحسب . بل تعرض أيضاً للتشريع والقضاء ، والكون وعلاقة الناس بعضهم ببعض .

وكان من نتيجة تعرّض الإسلام للحياة الدنيوية أن آمن المسلمون بمبدأ عام ، وهو أن الدين مبدأ التشريع ، وحدا بهم هذا الإيمان أن يتخذوا من الدين أساساً لحياتهم الفكرية بشتى فروعها وشعبها ، وان يبحثوا عن إرادة الله وقصد الرسول في كل مسألة تعرض لهم ، سواء أكانت دينية أم دنيوية ، لأن الدين إذا كان مصدر الهداية فيجب أن يكون مصدراً من مصادر المعرفة أيضاً . وقد رافقتهم هذه الظاهرة في جميع أدوارهم ، ولن ينسوها بعد أن اتصلوا بالفلسفة اليونانية والأمم المتحضرة . لم تكن الفلسفة معروفة في صدر الإسلام ، ولما عرفها المسلمون فيما بعد انحرفوا بها إلى الدين ، وأوضح مثال على ذلك علم الكلام والتوحيد . فإنه فلسفي في صورته ديني في مادته .

وليس من غرضنا الآن أن نترجم لكل إمام من أئمة آل البيت ونبيين منزلته من العلوم ، وانما غرضنا الأول أن نقدم صورة لعلومهم على وجه العموم ، وخير مثال لذلك علم الإمام علي وحفيده جعفر الصادق . فقد ذاع علمهما وانتشر . وظهر أثره في المؤلفات والمدارس الإسلامية أكثر من علم غيرهما من الأئمة . على أنه إذا استطعنا أن نصوّر علم هذين العظيمين أمكننا أن ندرك من خلاله مدى علوم سائر الأئمة إلى أن تنتهي السلسلة إلى الرسول الأعظم . كما قال الشيخ ابو زهرة في كتاب الامام الصادق .

كان الإمام علي بن أبي طالب عالماً بأمور الدين والدنيا التي تعرض لها القرآن والسنة . ولم يخف عليه شيء يمتّ إلى الإسلام بسبب قريب أو بعيد ، بل روي عنه أنه قال : « لو ثنيت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم ،

وأهل الإنجيل بانجيلهم، وأهل القرآن بقرآنهم». وعلمه هذا نتيجة لطول صحبته مع الرسول، فقد ضمّه إليه وهو طفل، وبقي في كنفه بعد النبوة، إلى أن لحق النبي بالرفيق الأعلى وأسلم حيث لا يوجد على وجه الأرض مسلم الا محمد وزوجته خديجة. وأهمّ النبي بتنشئته وتربيته، واتخذه اميناً لسره، واصطفاه لعلمه. وكان كاتبه وشريكه في نسبه وزوج ابنته، وأبا ريحانتيه الحسن والحسين، وأخاه حين آخى بين المسلمين. وبديله على فراشه حين همّ المشركون بقتل من يبيت في الفراش. واستخلفه على ما كان عنده من ودائع لما هاجر من مكة إلى المدينة. كما استخلفه على المدينة يوم سار إلى غزوة تبوك، وقال له: انت مني بمنزلة هارون من موسى. وولاّه القضاء في اليمن. وبلغ عنه سورة «براءة». وشهد مع النبي مشاهده كلها. بل كان علي نفس النبي كما نطقت بذلك الآية ٦١ من سورة آل عمران:

﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ،
وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ
فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ ﴾.

فقد اجمع المفسرون على أن المراد بأبنائنا الحسن والحسين، وبنسائنا فاطمة، وبأنفسنا النبي وعلي. وقال النبي: «علي مني وأنا من علي... علي مع الحق والحق مع علي... علي رباني هذه الأمة... من كنت مولاه فعلي مولاه»، إلى غير ذلك من الفضائل التي قال عنها طه حسين في كتابه «علي وبنوه»: أن علياً كان أهلاً لها ولا كثر منها. ويعرفها له خيار المسلمين، ويؤمن بها أهل السنة كما تؤمن بها شيعته».

هذا ، إلى عقل يتسع لكل شيء ، وفراسة لا يكاد يخفى عليها شيء ، وحكمة هي الحقيقة والواقع الملموس وبلاغة ليس فوقها إلا بلاغة القرآن . إن هذا العلم والعقل وهذه الحكمة والبلاغة قد جعلت من الإمام ترجماناً للتشريع ومرجعاً في جميع العلوم الإسلامية ، وقدوة لكل مذهب من مذاهب المسلمين . لم يكن للمسلمين علوم مدونة في عهد الإمام ، ولما صار لهم علوم منظمة ، لها أبواب وفصول ، ووضعوا الكتب في الفقه والأصول والتفسير والحديث ، وعلم الكلام والتوحيد ، والأدب وتاريخه ، والبلاغة ، وفي المذاهب والفرق ، وما إلى ذلك ، استعان بنور علمه وحكمته كل عالم ومؤلف واحتج بقوله وبلاغته كل أديب وكاتب. (انظر كتاب علي والفلسفة للمؤلف).

كان علي عالماً بالأصول والأنظمة التي قررها القرآن والرسول ، والتي تحقق للناس الرخاء والهناء فحرص عليها ، وأمر عماله بالعمل بها ومن تلك الأصول :

« احترام الجماهير » . قال في عهده لمالك الاشتر النخعي لما ولاّه على مصر : « ان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة . . . فليكن صغوك لهم وميلك معهم » . وكتب إلى احد عماله على الخراج « لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ، ولا دابة يعملون عليها . ولا عبداً ، ولا تضربن احداً سوطاً بمكان درهم » .

« رعاية الموظفين » . وقد أوصى الأشتر أن يختار الموظفين الأكفاء ، وأن « يسبغ عليهم الارزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح انفسهم . وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم أن خالفوا » .

« زيادة الإنتاج » . وقال للاشتر : « وليكن نظرك في عمارة الأرض

أبلغ في نظرك من استجلاب الخراج » . إلى أن قال : « وإنما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها الأشراف انفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء » .

« كراهية الحرب » . قال له أهل العراق عندما استبطأوه عن حرب أهل الشام بادىء الأمر : أن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية الموت . فقال : «والله لا أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ ... فوالله ما دفعت الحرب يوماً ، الا وأنا اطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي وتعشو إلى ضوئي ، وذلك احب إليّ من أن أقتلها على ضلالها وان كانت تبوء بآثامها » . وقال لأصحابه بعد ان اثخنوا في أعدائه يوم صفين : « لا تتبعوا موالياً ، ولا تجهزوا على جريح . ولا تنهبوا مالاً » . فجعلوا يمرون بالذهب والفضة في معسكرهم فلا يعرض لهما أحد . وبلغه أن حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يشتمان معاوية وأهل الشام ، فأرسل إليهما أن كفا عما بلغني عنكما . فقالا : « يا أمير المؤمنين ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : « كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين ، ولكن قولوا : اللهم أحقن دماءنا ودماءهم ، واصلح ذات بيننا وبينهم » .

« المساكين » . الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين المحتاجين وأهل البؤسى والزمنى . . . وأحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم » .

قضاء الإمام :

وقد اشتهر عنه أنه كان أقضى أهل زمانه . والقضاء هو المحك للمواهب

والرأي الصائب ، ولمن حفظ العلم حفظ رواية أو دراية ، قال أحمد أمين في المجلد الأول من فجر الإسلام : « كان ذا عقل قضائي ، فقد ولاّه رسول الله (ص) قضاء اليمن وله آراء ثبتت صحتها في مشاكل قضائية عديدة حتى قيل عنه : قضية ولا أبا حسن لها » وهذا القول مشهور عن عمر بن الخطاب . وقد عني جماعة من فقهاء السنة والشيعة بجمع قضاياه في كتاب مستقل ، منهم الترمذي صاحب أحد الصحاح الستة ، والمعلى بن محمد البصري ومحمد بن قيس البجلي ، وعلي بن إبراهيم القمي . وجمع السيد محسن الأمين عدة قضايا أضافها إلى كتاب علي بن إبراهيم ، وطبعها في كتاب اسمه « عجائب أحكام أمير المؤمنين » . .

منها : أن أربعة رجال شربوا الخمر ، وكان مع كل واحد منهم سكين ، فلما بلغ بهم السكر تباعجوا بالسكاكين ، فمات اثنان وبقي اثنان . فجاء أهل القتيلين للإمام وقالوا : إن هذين قتلا صاحبينا فأقدنا منهما ، قال لهم . . . ما علمكم بذلك ، لعل كلا منهما قتل صاحبه ولكن الدية توزع على الأربعة فيصيب كل واحد من الإثنين الباقيين ربع دية كل واحد من القتيلين » .

ومبنى هذا الحكم أن الإجتماع على السكر وحمل السكاكين مخالفة صريحة للشرع والقانون . وقد نجمت جناية القتل عن هذا المخالفة التي اشترك فيها اربعة . فتكون جناية القتل مشتركة بين الأربعة أيضاً .

ومنها أن ستة غلمان تعاطوا لعباً في الفرات ، فغرق غلام منهم . فشهد ثلاثة على الإثنين أنهما أغرقاه ، وشهد اثنان على أنهم اغرقوه ، فقضى بالدية اخماساً منها ثلاثة أخماس على الاثنين ومنها خمسان على الثلاثة .

استند هذا الحكم إلى عدد الشهود ، شهد ثلاثة على الإثنين فأصابهما

ثلاثة أخماس على كلّ واحد خمس ونصف ، وشهد اثنان على ثلاثة فأصابهم اثنان من خمسة ، على كل واحد أقل من خمس .

علم الإمام جعفر الصادق :

عاش الإمام جعفر الصادق في أواخر زمن الأمويين ، وأوائل العهد العباسي ، حين أقبلت الدنيا على العرب بسبب الفتوح ، واتصلوا بالأمم المتحضرة كالفرس . وعندهم الطب ، والهندسة ، والجغرافية ، والحساب ، والتنجيم . والأدب . والتاريخ ، والمصريين ، وعندهم مدرسة الإسكندرية والسوريين الذين تأثروا بالعقلية الرومانية . وفي هذا العهد شرع بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية . فأقبل عليها المسلمون يدرسونها إلى جانب الفقه والتفسير والحديث والنحو وما إليه . ويعقدون لها الحلقات العلمية في مساجد الشام والعراق والحجاز . وفي هذا العهد ، وفي الحلقات ، كانت تقوم مناقشات عنيفة قسمت المسلمين فرقاً ومذاهب . ما إن يزال أثرها قائماً إلى اليوم . كانت هذه المناقشات تدور حول مسألة الخلافة ومسألة استقلال الإنسان بافعاله ، ومسألة من ارتكب كبيرة ولم يتب ، ومسألة امكان رؤية الله ، ومسألة ان صفاته هي عين ذاته أو غيرها ، ومسألة خلق القرآن ، ولم يكن الخلاف في هذه المسألة قد بلغ إلى ما انتهى إليه في عصر المأمون . وقد كان لهذه الخلافات أثرٌ كبير في العلم والأدب والسياسة . اما أثرها في العلم فإن النظر في الخلافة يستتبع النظر في معنى الرئاسة ومهمتها ومصدرها وشروطها . والنظر في الإرادة والإختيار يستتبع النظر في عدل الله وحكم العقل واستحقاق الإنسان للثواب والعقاب . والنظر في مرتكب الكبيرة يستتبع النظر في حقيقة الإيمان والكفر وعلاقة الناس بعضهم ببعض . والنظر في امكان رؤية الله يستتبع النظر في سر الوجود وصفات الموجد والقدم والحدوث .

إن النظر في هذه المسائل وما إليها ينتهي حتماً إلى الكائنات وأسبابها . أما أثرها في الأدب فقد وقف الشعراء ينصر بعضهم هذا المبدأ ويدعو إليه ، وبعضهم يحاربه ويدعو إلى غيره .

وكان أثرها في السياسة أظهر وأبلغ . لان الكثير منها يتعلق بالحاكمين وشرعية حكمهم ، وعلاقة المحكومين بهم ، ولذا رأينا رجال الدولة ينكلون بكل عالم لا تتفق سياستهم مع أقوله وآرائه ، ويقربون إليهم كل من وجدوا في قوله مبرراً لظلمهم واستبدادهم . ومن هنا قال بعض الباحثين ان هذه الخلافات كانت في بدء أمرها سياسية ، ثم تغلب الجانب الديني على الجانب السياسي .

وإذا لاحظنا أن النهضة العلمية عند المسلمين ، والإنقسامات المذهبية ، والخلافات السياسية يبدأ تاريخ اكثرها بعهد الإمام الصادق ، ولاحظنا مع هذا ما اتفقت عليه أهل السير والتراجم من أن الامام الصادق ابتعد عن السياسة كل البعد ، وانصرف انصرافاً تاماً للعلم ، إذا لاحظنا ذلك كله فلا ندهش لما قرأناه من ان اصحاب الحديث جمعوا أسماء الرواة الثقات عن الصادق فكانوا أربعة آلاف رجل ، ولما سطره ابن حجر في صواعقه » : إن الناس نقلوا عن الصادق من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان ؛ ولما قاله فريد وجدي دائرة معارف القرن العشرين » : الف جابر بن حيان في الكيمياء كتاباً يشتمل على الف ورقة ، يتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خمس مئة رسالة ؛ ولما ذكره الشهرستاني في الملل والنحل » : كان الصادق ذا علم غزير في الدين ، وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات أقام مدة بالمدينة يفيد الشيعة ، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ، ثم دخل العراق وأقام بها مدة . . . ولما جاء

في كتاب عقيدة الشيعة » للمستشرق دوايت : وقد ساهم عدد من تلامذة الصادق مساهمة عظمى في تقدم علمي الفقه والكلام ، وصار اثنان منهم ، وهما ابو حنيفة ومالك بن أنس ، فيما بعد ، من اصحاب المذاهب الفقهية ، وكان واصل بن عطاء رئيس المعتزلة ، وجابر بن حيان الكيماوي الشهير من تلامذته ؛ إلى غير ذلك مما ذكره الباحثون من غربيين وشرقيين .

الطابع الخاص لمدرسة الامام جعفر الصادق وتعاليمه :

نوجز الكلام عن تعليم الامام وطابعه الخاص على ضوء آثاره التي حفظها التراث الإسلامي ، ويستطيع الوصول إليها من أراد ذلك . وقد حفظ له هذا التراث اصولاً في الكيمياء ، وفي علم الكلام والتوحيد ، وفي الاخلاق ، وفي العلوم الدينية بشتى فروعها :

الكيمياء :

للصادق رسائل في الكيمياء درجها تلميذه جابر بن حيان في مؤلفاته العديدة . وقد نشر بعضها ، والبعض الآخر لم ينشر بعد ، وهو موجود في القاهرة . ومما طبع : كتاب الرحمة ، وكتاب الميزان ، وكتاب الملك ، وكتاب مختار رسائل جابر بن حيان . ونترك الكلام عن طابعها وفوائدها إلى ذوي الاختصاص .

علم الكلام والتوحيد :

له كتاب توحيد المفضل ، درجة المجلسي في كتاب البحار بكامله ، وطبع مستقلاً بمصر . وله احتجاجات وتعاليم في الالهيات يجدها المتتبع

في كتاب اصول الكافي للكليني ، وكتاب الشافي للسيد المرتضى ، وفي غيرهما من كتب الحديث والعقائد لعلماء الشيعة الامامية .

وطريقته لفهم ما وراء الطبيعة ترتكز على منطق العقل والفطرة والثقة بما يستنتجه من الفرض الصحيح فكل فرض يصح إذا كان نتيجة منطقية لقضية بديهية . وهذا الاسلوب يعتمده اليوم علماء الطبيعة وغيرهم وبه يستدل الامام على حدوث العالم ، وبحدوثه على وجود الصانع . وكان يوجه اهتماماً إلى ازاحة كل شبهة تحوم حول وحدانية الله وعدله وقدرته وسموّه ، وحول بعث الانبياء وتنزيههم .

فالله واحد ، وعالم ، وقادر ، وصفاته عين ذاته ، ليس كمثله شي . وكلامه مخلوق وليس بقديم . والبعث والحساب لا بدّ منهما . والانبياء معصومون قبل النبوّة وبعدها . والخلافة تكون بنص الرسول لا بالانتخاب والانسان مخير غير مسير ، وخلاصه بيده لا بيد احد من الناس .

الأخلاق :

له مواعظ وحكم ، ووصايا اوصى بها أهل بيته وأصحابه نجدها متفرقة في كتاب « حلية الأولياء » لأبي نعيم الاصفهاني ، وكتاب « تحف العقول » للحسين الحراني ، وكتاب « مطالب السؤول » لمحمد ابن طلحة الشافعي ، وغير ذلك من كتب الاخلاق ، والحديث . ولو جمعت لجاءت في كتاب ضخم ، وهي تضع قواعد لحسن السلوك وتقرره على مبدأ المساواة بين الناس جميعاً . ومبدأ ان الانسان خير بطبعه طيب بذاته ، وانما تفسده التّربية والمحيط والاوضاع . فمن أقواله : « اصل الانسان عقله ، وحسبه دينه ، وكرمه تقواه ، والناس في آدم مستوون . ان النفس لتلتاث

على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي احرزت معيشتها اطمأنت . بني الإنسان على خصال ، فمهما بني عليه فإنه لا يبنى على الخيانة والكذب » . وإذا كان طبع الإنسان الصدق والأمانة ، فالكاذب الخائن إذن من أخرج الإنسان عن طبعه ووضعه ، وعمل على هدم بنائه وكيانه .

التفسير :

للشيعة كتب عدة في تفسير القرآن : منها كتاب « مجمع البيان » للطبرسي ، وكتاب « التبيان » للشيخ الطوسي ، وكتاب « كنز العرفان » للمقداد . وقد رووا في هذه الكتب وغيرها من كتب التفسير والحديث عن الإمام الصادق تفاسير لكثير من آيات الكتاب ، وخاصة فيما يتعلق بالأحكام . والشيعة لا يفسرون آية من القرآن إلا بعد مقابلتها مع سائر الآيات ، وبعد البحث عما صح عن النبي وآل بيته من التفسير ، لأن في القرآن آيات ينسخ أو يخصص بعضها بعضاً ، وفي السنة أحاديث تفسر كثيراً من الآيات . وكلام الله والرسول لا يتناقضان ، لأنها بمنزلة الشي الواحد ، فإن لم يجدوا في الكتاب ناسخاً ولا مخصصاً ، ولم يجدوا في السنة مفسراً ، فسروا الآية بما يقتضيه ظاهر لفظها ما لم يتناف الظاهر مع العقل . وإلا أوجبوا التأويل بما يتحمله اللفظ ويقبله العقل . وقد أخذوا هذه الطريقة في التفسير عن أئمة آل البيت .

الفقه :

تعرّض الفقه الإسلامي لأحوال الإنسان الخاصة والعامة : لواجبه مع الله ، ومع نفسه وأسرته ، ولعلاقته مع الدولة والمجتمع ، ولشؤونه الزراعية والتجارية ، ولما ينتج ، ويستهلك . ولهذا كان الفقه الإسلامي أوسع من سائر العلوم الإسلامية ، وكانت آثار الصادق فيه أكثر منها في غيره ، فظهرت

في كتب الصحاح للسنة ، وفي كل كتاب من كتب الحديث والفقه للشيعة . وفي كل باب من ابوابها ، وهذا هو السر في تسمية الشيعة الإمامية أحياناً بالجعفريين ، ونسبتهم إلى الإمام جعفر دون غيره من أئمة الاثني عشر . وقد تصدى جماعة ، منهم الحافظ بن عقدة الزيدي ، والشيخ أبو جعفر الطوسي لإحصاء عدد الرواة الذين رووا عن جعفر بن محمد ، ودوّنت أسماؤهم ورواياتهم في الكتب الموجودة بين أيدي الناس ، فبلغوا أربعة آلاف رجل من أهل العراق والحجاز والشام وخراسان . وفي « كتاب المعتبر » للمحقق الشيخ علي بن عبد العال : « كتب من أجوبة مسائل جعفر بن محمد أربعمئة مصنف لأربعمئة مصنف سموها أصولاً » . وبهذه الأصول أصبح الصادق مرجعاً للفقه والتشريع عند الشيعة الإمامية . وبعد عصر الأئمة بقليل جمعت هذه الأصول الاربعمئة في أربعة كتب : في « كتاب الكافي » لمحمد بن يعقوب الكليني ، وكتاب « من لا يحضره الفقيه » لمحمد بن بابويه القمي المعروف بالصدوق وكتاب « الإستبصار » ، وكتاب « التهذيب » لمحمد بن الحسن الطوسي .

طريقته في التشريع :

نهى الصادق عن العمل بالقياس ، وكان يقول : إن المقاييس لا تزيد أصحابها إلا بعداً عن الحق ، ونهى عن اتباع كل ظن لا يستند إلى مصدر صحيح . ومعنى القياس إلحاق أمر بآخر في الحكم الشرعي لاتحادهما في العلة ، وهو من الأصول الشرعية عند الأحناف وغيرهم .

ومن تتبع أقوله واحكامه يجد له شخصية علمية مستقلة بذاتها ، فلم يسند حديثه إلى الرواة ، ولا إلى قول مشهور أو مأثور إلا نادراً . وتقول الشيعة :

إن الإمام إذا حدّث ، ولم يسند ، فسنده أبوه عن جده عن الرسول ، ومهما يكن فإن ما روي عنه في التشريع يرتكز على مبادىء عامة منها :

الحرية :

لكل إنسان من ذكر وأنثى حرية التصرف بنفسه ، بما يختص به من شؤون ولا سلطان عليه لأحد إلا إذا كان فقيراً او صغيراً أو مجنوناً أو سفيهاً فيولى عليه حينئذ قوي أمين ؛ على أن لا تتعدى تصرفات الولي مصلحة المولى عليه .

ومنها المساواة :

إن جميع الناس سواء أمام القانون ، فكل جان يعاقب ، وكل غاصب يغرم ، ولا حصانة لحاكم ، ولا لذي منصب كائناً من كان ، وكل قانون يقسم الناس على غير أساس التقوى ، فهو جائر .

ومنها الثقة بالإنسان ، واحترام شعوره ومعاملات الإنسان ، وجميع تصرفاته صحيحة بموجب الأصل ما لم يثبت العكس ، إلا فيما يدّعي على غيره ، لأن كل إنسان بري ما لم تثبت إدانته ، وكل من يدين بدين يرتب على أعماله آثار الصحة ما دامت موافقة لما تعتقد ، وان خالفت الإسلام .

ومنها تحريم الاستغلال :

إن الغش والربا والإحتكار ، وكل معاملة تؤدي إلى استثمار الغير فهي باطلة ، وكل احتيال على الشرع والقانون فهو تضليل ، وكل من كان في يده شيء يمنع من التصرف به إذا أدى إلى الإضرار بغيره .

ومنها الإباحة والحلّ :

كل شيء فيه صلاح للناس من جهة من الجهات فهو حلال وكل من اضطر إلى شيء فهو له مباح . فالجائع الذي لا يجد سبيلاً للعيش لا يعاقب على السرقة والمدين الذي يعجز عن الوفاء لا يحبس ولا يحجز له ما يضطر إليه من مسكن ومأكل وملبس .

ومنها الذمة :

لكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للإلزام والإلتزام بما له وما عليه ، وعلى من ضمن وتعهد أو أؤتمن على عمل أو مال أن يؤديه على وجهه ، وللطرف الثاني الحق في أن يحاسبه ويلزمه بالوفاء ، وأن يتسلط عليه وعلى ماله إذا خان أو قصر . والشرط الرئيسي لصحة الإلزام والالتزام أن يكون حقاً للملتزم وسائغاً في نفسه ، لا يستدعي ضرراً على من الزم او التزم . ولا على غيرهما فكل معاهدة تخرج عن اختصاص المتعاهدين أو تضر بهما او باحدهما أو بغيرهما . أو تكون مجهولة الحقيقة فهي تضليل يجب الغاؤها ، وكل تجارة أو زراعة او صناعة فيها شائبة الضرر فهي فاسدة ؛ وكل من نذر او اقسم أو عاهد الله ان يفعل ما يضر به أو بغيره فنذره وقسمه وعهده لغو . . . قرر الصادق هذا المبدأ باحاديث كثيرة منها : « من اشترط شرطاً سوى كتاب الله فلا يجوز له ولا عليه . والمسلمون عند شروطهم إلا شرطاً حلل حراماً او حرّم حلالاً . كل شرط خالف كتاب الله فهو مردود . إذا رأيت خيراً من يمينك فدعها ، وافعل الذي هو خير ، ولا كفارة عليك . إنما ذلك من خطرات الشيطان . ان الكفارة إذا حلف الرجل على ان لا يزني ولا يشرب ولا يخون واشباه هذه .

ومنها قاعدة الأقرب فالأقرب : اعتمد الصادق على هذا المبدأ في الارث فجعل الاولاد والآباء اولى بالارث من الاخوة والاجداد ، والاخوة اولى من الاعمام والأخوال . فمتى وجد واحد من المرتبة المتقدمة حجب عن الارث كل من كان في المرتبة المتأخرة ، فالبنت تحجب عمها ، كما يحجبه الابن من غير فرق . واعتمد على هذا المبدأ ايضاً في النفقات قال : « ان افضل ما ينفقه الانسان على نفسه وعياله . ثم على والديه . ثم الثالثة على القرابة والاخوان ثم الرابعة على الجيران الفقراء ؛ ثم الخامسة في سبيل الله . وهو أخسها اجراً . »

إن هذه المبادىء التي ذكرناها بقصد التمثيل لا بقصد الحصر ، يسري اكثرها في الأمور المدنية كالبيع والاجارة ، وما إليها من الموجبات والعقود ؛ وفي الأمور الجنائية كالقتل والسرقة ، وفي الأحوال الشخصية كالزواج والوصايا ، وفي جميع المعاهدات والالتزامات . وهي تمثل لنا روح التشريع في احكام الإمام الصادق ؛ ومذهبه في الفقه الذي استمدّه من واقع الحياة ؛ من كرامة الإنسان وحريته وحاجاته ومصالحه ، لا من الظنّ والخيال ، ولا من اهواء السلطات ، وشهوات المحتكرين . ان الحرية والمساواة وصيانة حقوق الانسان واحترام ذمته ؛ وما إلى ذلك هي المدارك الصحيحة للفقه عند الامام الصادق ، وما الكتاب والسنة الا تعبير صادق ولسانٌ ناطق لهذه المبادىء . وهذا ما أراده الصادق حين قال للشيعة : لا تقبلوا علينا حديثاً الاّ ما وافق القرآن والسنة ، او كان معه شاهد من احاديثنا ، اي لا تقبلوا حديثاً فيه شائبة الظلم والمحاباة . ان هذه النظرة إلى الفقه نتيجة طبيعية لتلك الثقافة الواسعة ، والعلم الغزير . بالكتاب والسنة وعلى مبدأ الامام الصادق . يجب على من يريد ان يفهم الفقه ان يعي المبادىء الانسانية قبل كل شيء . والا فهو أبعد ما يكون عن فقه الصادق وآيات الله ، وسنة الرسول (ص) .

أمضي على دين النبي

معنى الحي :

سؤال قد يبدو للوهلة الأولى غريباً . . . وهو ما معنى هذا حي ؛ وذلك ميت ؟ .

ووجه الغرابة ان معنى الحي معروف ، وكذلك معنى الميت . . . ومع التأمل يتضح ان هذا السؤال وجيه . . . وإليك البيان :

ان لكل فرد من أفراد الانسان واقعاً يعيش فيه ، وهو عمله بالذات ، وقد يقتصر هذا العمل على صاحبه ، ولا يتعدى اثره إلى غيره ، وقد يتجاوزه ؛ وينتفع به الآخرون . . . والأول حي بالاسم ، ميت بالفعل — وان اكل وشرب — ما دام لا يحس احد بوجوده ، والثاني حي بآثاره الباقية ، يمتد وجوده بوجودها ، وان صار تراباً وعظاماً .

ان محمداً (ص) الذي اقترن اسمه باسم الله في المعابد والمعاهد ، وفي الصلوات والدعوات في كل زمان ومكان ، ان محمداً باق ببقاء الله ، وكذلك اهل بيته الذين نزلت بهم آية المودة والتطهير احياء ما دام لكتاب الله . وسنة نبيه انصار واتباع . . . وكل من ترك اثراً من قول او فعل ينتفع الناس به مباشرة او بالواسطة فهو موجود . وكل من خرج من هذه الحياة كما دخلها اول مرة فهو ابتر وعقيم . وعبث زائد .

فمن غرس شجرة ، او بنى بيتاً ، او شق طريقاً ، او اخترع آلة ، او اكتشف نظرية ، او الف كتاباً ، او نشر مقالاً ، او القى خطاباً ينير العقول والافكار ، او يثير العواطف ، ويتجه بها نحو الخير ، كل اولاء ، ومن إليهم باقون ما دامت آثارهم تحيا وتتحرك من بعدهم .

الجزار والخباز :

وتسأل : ماذا تقول في الجزار والخباز وبائع الخضار .

ولا تعرف الإنسانية واحداً في تاريخها كله تمثلت فيه روح التضحية والفداء من أجل ما يعتقد ويدين كما تمثلت في الحسين (ع) الذي نطق الواقع على لسان ، وهو في طريقه إلى الاستشهاد : « امضي على دين النبي » .

لقد رحب الحسين بالإستشهاد ، وأقدم عليه دون تردد لا حباً بالموت ، وتبرماً بالحياة ، ولا فراراً من سأم ، ولا اضطراباً في النفس ، ولا طموحاً إلى بطولة وسلطان ، ولا خوفاً من الإتصاف بالجبن . . . لا دافع ولا هدف على الإطلاق إلا الإمتثال لمشيئة الله . والانقياد لأمر رسول الله الذي لا مفر من طاعته ، ولا محيد .

قال له أخوه محمد بن الحنفية : ما حداك على الخروج عاجلاً ؟ .

قال الحسين : أتاني رسول الله ، وقال : يا حسين أخرج ، شاء الله أن يراك قتيلاً .

قال محمد : انا لله ، وانا إليه راجعون . . . فما معنى حملك هذه النسوة معك ؟ .

قال الحسين : إن الله شاء أن يراهن سبايا .

وقال له ابن عباس : لا تخرج إلى العراق .

قال الحسين : إن الله أمرني بأمرٍ ، وأنا ماضٍ فيه .

قال ابن عباس : واحسيناه . . . أطلق ابن عباس صرخته الدامية هذه ، وهو لا يعلم انها قد تجاوزت حدود الزمان والمكان . وأنها ستحدث انقلاباً في الأفكار والأوضاع ، وتتخذ شعاراً للثورات والإنتفاضات ، ونشيداً للحرية والاستقلال ، وانها ستجري أبحراً من الدماء والدموع ، وتملأ الأجواء لهيباً من الآهات والزفرات ، وأن المواكب والمطابع والمنابر ستردّدها مدى الأجيال وإلى آخر يوم .

وبعد ، فإن الحسين (ع) يحب الحياة ، ويكره الموت . . . ما في ذلك ريب . . . وإلا لم يكن عظيماً ، لأن من تساوى في مقاييسه الموت والحياة لا يعدّ باذلا ومضحياً إذا أقدم على الموت ، وأي عاقل يتنازل عن حياته ، ويرضى بحزّ الرأس ، ورضّ الصدر والظهر وذبح الأطفال ، وسبي النساء إذا لم تكن العاقبة خيراً وأبقى . . . ولا شيء أفضل عاقبة من طاعة الله ، والتضحية وما أشبه من الذين ينتفع الناس بهم في حياتهم اليومية ، دون ان يكون لاعمالهم طبيعة الدوام والاستمرار ؟ .

الجواب :

ما من احد يؤدي دوراً في هذه الحياة الا ويترك اثراً نافعاً ، وان لم يبد ظاهراً للعيان . . . إن العامل ، أي عامل عضو حي من المجتمع ، به وبغيره تحصل البشرية على غاياتها . . . وكثيراً ما يقيض الله السعادة للآخرين عن طريق واحد من هؤلاء البسطاء ، او ينبه به غافلاً ، او يلهم به مفكراً ، أو يؤازر مصلحاً .

وكفى العامل البسيط اثراً أن يكوّن له اسرة صالحة ، فيربي ابناءه بالكثير من العرق ، والجهد المضني .

العمر القصير :

واقصر الناس عمراً من لا يرى هماً إلاّ همه : ولا مشكلة الا مشكلته ولا خيراً الا خيره . . . وقد يخلد هذا ، ويدوم له الذكر بما يتركه من اسواء وادواء . . . ولكنه يخلد في العذاب ، في اللعن والسباب ، تماماً كما خلد يزيد ونيرون .

العمر الطويل :

أما أطول الناس أعماراً ، وأكثرهم تأكيداً لوجودهم في كل زمان ومكان فكثيرون : منهم العلماء الذين اكتشفوا قوى الطبيعة ، وسلطوا عليها انسان القرن العشرين ؛ لينشيء منها حياة جديدة بعد أن تسلطت عليه واستعبدت اسلافه قروناً وأحقاباً .

ومنهم الذين يمنحون الناس التفاؤل . ويشجعونهم على المضي في العمل من أجل حياة أرغد وأسعد . وفي طليعتهم الأنبياء والأوصياء الذين أرشدوا الإنسانية ، واضاءوا لها سبيل الرقي والهداية .

ومنهم الذين يملكون الإستعداد للإستشهاد والتضحية بكل عزيز من أجل إحياء الحق ، وإماتة الباطل .

ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت : إن ايمان المؤمن ، ودين المتدين يقاس بالإستعداد فما هو من الدين وأهله في شيء ؛ وإن زكى جبنه وحرصه على الحياة بألف علة وعلة .

في سبيله ، لهذا وحده أقدم الحسين على ما أقدم ، ولم يتردد ، ويبرر المعصية والأحجام بمنطق الشيطان ، وتحريفه وتزيفه .

منطق إبليس :

قيل : ان إبليس التقى برسول الله (ص) ، فقال له : يا محمد ، إن الله قد وصفك بنبي الهداية ، ووصفني بإمام الغواية ، مع العلم بأن الأمر في يده . لأنه على كل شيء قدير ، فلماذا لا يلجيء عباده إلى الهداية ما دام قد أرادها منهم ؟ .

لقد تجاهل ابليس اللعين أن‌الله يخلق الكون بما فيه على قاعدة « كن فيكون » فيستند الفعل إلى قدرته مباشرة ، وإلى كلمته وحده لا شريك له ، أما أفعال العباد ، ومعاملة بعضهم مع بعض فأنه سبحانه لايتدخل بها إلا على أساس الإرشاد ، والأمر والنهي تاركاً للإنسان حريته الكاملة ، وقدرته المطلقة ، ليتحمل وحده أعباء الجهاد والعمل، ومسؤولية الإهمال والكسل ، ويتميز بذلك الخبيث من الطيب . وتظهر للعقول قيمتها ، وللنفوس غرائزها . . . ولو أن الله ألجأ عباده إلى الفعل إلجاء لانتقضت حكمة الخالق العليم ، وتعطل العقل السليم ، وبطل الشرع والتكليف ، وكانت أفعال الإنسان تماماً كالجريان في الماء ، والثمرة على الشجرة . . . وبكلمة إن الله سبحانه بالنسبة إلى الكون خالق ومبدع ، وبالنسبة إلى عمل الإنسان هاد ومرشد : لا مبدل لكلماته ، وهو الحكيم العليم .

وبهذا نجد تفسير قول الحسين (ع) : إن الله شاء أن يراني قتيلاً ، وشاء ان يراهن سبايا... أي امرني الله ان اجاهد ضد الظلم والفساد، ومعي النساء والاطفال ، فامتثلت ، وهو الحكيم العليم بما يترتب على امره . وعليه تكون

الأوضاع الإجتماعية هي المسئولة عن الشر . وليست الإرادة الإلهية ، والمصلحون الطيبون هم الذين يضحون ويستميتون من أجل تغيير الأوضاع وتحويلها إلى الخير والصلاح . كما فعل الحسين وأيضاً بهذا يتبين الجواب عن قول من قال: لماذا سلط الله يزيد وجيشه على الحسين وأهله . . . إن الله سبحانه لا يسلط ، ولن يسلط الأشرار على الأخيار . . . حاشا وكلا . . . بل نهى الأشرار عن الفساد والعدوان . وأمر الأخيار بنضالهم وجهادهم ، إن أصروا وتمردوا منذراً العاصي بالعقاب . ومبشراً الطائع بالثواب ، دون أن يتدخل بقدرته من أجل هذا أو ذاك :

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ
وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾.
٤ محمد

على دين النبي :

بأمر الله تعالى ، ودين النبي (ص) تفسر أعمال الحسين (ع) ، وكل حركة من حركاته . وخطوة من خطواته ، فدين النبي هو الهوية والماهية الحقيقية لوقعة كربلاء ، وفيه يكمن سر خلودها وبقائها ببقاء اسم محمد ، ورسالة محمد .

إن مضي الحسين إلى القتل على دين النبي يدلنا بصراحة لا تقبل التأويل على أن هذا الدين العظيم لا يعترف بأحد كائناً من كان إذا أحاط به الظلم والفساد ، ولم يحرك ساكناً حرصاً على نفسه وجاهه . . . أبداً أما ان الحسين لم يمض على دين النبي ، لأنه جازف وتهور ، وأما إن الساكت عن الحق يبرأ منه النبي ودين النبي ولا واسطة .

وتقول : إن هذا معناه الجهاد ، والجهاد لا يجب إلا مع المعصوم أو نائبه .

الجواب :

إن الجهاد على نوعين : جهاد الغزو بقصد الدعوة إلى الإسلام وانتشاره . . وهذا هو الذي يجب كفاية بإذن المعصوم أو نائبه ، ويختص بالذكر ، دون الأنثى ، وبالصحيح ، دون المريض .

النوع الثاني :

جهاد الدفاع عن الدين والحق ، وهذا يجب عيناً لا كفاية ، ومطلقاً غير مقيد بإذن المعصوم ولا نائبه ، تماماً كوجوب الدفاع عن النفس ، ويشمل الذكر والأنثى والمريض والأعرج والأعمى ، كلاً حسب استطاعته ومقدرته . (أنظر الجواهر وغيرها من كتب الفقه) .

المدعي الزائف :

وبالتالي ، فإن الصراع بين الخير والشر طبيعي لا مفر منه ، فإذا طغى الشر في مجتمع ولا مكترث فإن معنى هذا أن المجتمع لا عدو فيه للشر ، ولا ناصر يتحسس الخير ، ويهتم بالدين ، لأن العدو ينبغي أن رسول الله . . . ولو كان بينة وبين الله علاقة وصلة لأثمر شجرها ، وظهر أثرها . . . كلا ، إن الوهم هو الذي صورّ له هذه الصلة ، وأضفى عليها صفة الوجود أما مجرد الركوع والسجود فما هو من دين النبي في شيء إذا لم ينظر المصلي إلى الباطل بعيني ثائر مغامر .

وكم من متعبد تكشف عنه القناع ، وتبين ، حين جد الجد ، إن قطرة من دمه ، وذرة من جاهه ومصلحته خير من الف نبي ونبي . . . إن دين النبي

عمل وجهاد وكفاح ، إنه دماء وعيال وأرواح تبذل ثمناً للحق ، تماماً كما بذل الحسين . . . أما من يدعي دين النبي غير مستعد لأن يترجم دعواه ويثبتها بالأفعال . والتضحية بمصالحه الشخصية من أجل هذا الدين فهو دعي زائف .

وبعد ، فقد كان للإسلام دولة وسلطان حين كان يزيد وشهيد يمضي على دين النبي . . . أما اليوم فذل وهوان ، حيث ألف يزيد ويزيد . ولا شهيد واحد . . . بل ألوف العبيد تموت وتحيا على حب الدينار والدولار . يحارب مهما تكن النتائج . . . أما من يكتفي بقول : انا لله ، وانا إليه راجعون تاركاً الشر يسير على حاله بغية الحفاظ على مصالحه ، أما هذا فإنه يؤكد ، ولا ريب ما يلصق به من تهم ، ويذاع عنه من محاباة .

وتقول : ان للامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر شروطاً ، وأولها الأمل بالقضاء على المنكر .

ونقول : ليست المسألة مسألة شرط ومشروط ولا مكلف وتكليف شرعي ، وإنما المسألة في واقعها مسألة عداء للشر والباطل ، وتحسس بالدين والخير ، وعدم التحسس به ، فمتى وجد هذا العداء ، وهذا الإحساس طغت غريزة المغامرة على صاحبها غير ملتفت إلى الشروط والمشرط ، ولا يستسلم إطلاقاً ، بل يموت من أجل الحق واقفاً على قدميه بكبرياء وعناد وتحد . . . وكفى بهذا التحدي احتجاجاً وخروجاً على الباطل وأهله .

وغريبة الغرائب أن يدعي الواحد منا أنه على دين النبي ، ثم يغضب لنفسه وقريبه وصديقه ، ويصرخ باسم الله والدين صرخات أيوب المبتلى إذا مست أشياءه ، ولو من بعيد ، ولا يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، وشريعته

للقرآن وشريعته ، لا لأنه الحق فحسب ، بل ويحمل سر الغلبة وسلاحها .

وإذا جذب القرآن إليه كل قارىء وسامع فكيف بمن تصدى لتفسيره والكشف عما تلقاه محمد (ص) من ربه ، ثم حاول أن يربط آيات الله وكلماته بواقع العصر الحديث ؟ .. لقد جذبني « التفسير الكاشف إلى معاني القرآن ومقاصده وأهدافه ، وصرفني عن كل شيء ، وبالأصح أفقدني كل شيء حتى ذاكرتي ، ولم يدع لي إلا البصيرة التي أهتدي بها إليه وحده ... ولولاه لوضعت كتاباً جديداً حين رغب إليّ التاجر الأمين أن يطبع كتاباً من مؤلفاتي – كما أشرت في المقدمة – .

ولو اخترت لتفسيري الكاشف أن يكون تلخيصاً أو تبسيطاً لما جاء في التفاسير لأرحت نفسي ن عناء السهر والتأملات ، ولانتهيت منه ، أو من أكثره ... ولا شيء أهون عليّ من التخليص والتوضيح ... وأي شيء أيسر من الرواية بالمعنى ؟ .. ولكن حاولت جهدي أن يشعر القاريء بأن كلمات الله سبحانه تتوجه إليه من خلال عقله وقلبه ، وأنها سبحانه تتوجه إليه من خلال عقله وقلبه ، وأنها تصميم وتخطيط لأن يحيا هو وغيره .

لولا التفسير الكاشف

أحمد الله سبحانه على ما وفقني إليه من عرض فقه الإمام جعفر الصادق (ع) فتوى ودليلاً في ستة أجزاء... وشكراً لله جل ثناؤه على هذا التوفيق فرغت إلى تفسير كتابه العزيز .

ومن خصائص القرآن أن يجذب إليه كل قارىء وسامع ، دون أن يحس ويشعر ، حيث يجد فيه نور العقول ، وشفاء ، وراحة الصدور ... وما ان أستمع أعداء محمد (ص) لبعض آياته ، حتى أدركوا ما للقرآن من سلطان على القلوب والعقول ، وأيقنوا أنهم مغلوبون – محالة ، ما دام القرآن شاهداً فلجأوا إلى التهاتر ، وقال بعضهم لبعض :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ .

ولكن الغلبة في النهاية كانت حياة غنية وقوية لا يعوزها شيء ، ولا يهددها شيء وإن الحياة الكريمة هي حق إلهي لكل إنسان ، وإن من اعتدى عليها فقد اعتدى على حق الله بالذات ، وان أي تخطيط يضعه الإنسان لمجابهة أية مشكلة من مشاكل هذه الحياة فلا يؤدي إلى الحل الصحيح إلا إذا اعتمد على كتاب الله ، أو التقى معه ، لأن الإنسان ، أي إنسان يخطىء ويصيب أياً تكون منزلته ، أما الوحي فمنزه عن الخطأ .

حاولت جهدي أن يحس القارىء بان الإسلام نزل من السماء لأجله وأقل الناس جميعاً ، لا من أجل الأنبياء . ولا العلماء ، وإن هؤلاء جنود متطوعون للذب عن الدين ، لا للإرتزاق به . . . أيضاً حرصت كل الحرص أن يقتنع القارىء بهذا تلقائياً ، وهو ماض في قراءته . . . وليس هذا بالشيء اليسير .

فأولاً وقبل أن أخط بالقلم أرجع إلى التفاسير واحداً بعد واحد . . . وكانت عند شروعي ١٨ تفسيراً ، ثم ازدادت إلى ٢١ ، وربما بلغت مع الأيام ٣٠ ، أو أكثر . وبعدها أفرغ إلى تأملاتي في كل تساؤل يمكن أن يمر بذهن شاب من شبابنا حول معنى الآية ومدلولها ، ثم أتأمل في الإجابة بما يتناسب مع عقله وثقافته . . . وأيضاً أتأمل طويلاً في تطبيق الآية على سلوكنا العملي ليكون القارىء على يقين بأن الإسلام لا يعني بالمعاني المجردة ، والقيم في ذاتها . . . كلا ، وإنما قيم الإسلام تحس وتلمس كأية ظاهرة من ظواهر الحياة ، وأية ثمرة من ثمرات الأعمال . . . وأحسب أني بلغت بعض ما أردت . . . وعلى سبيل المثال أذكر تفسيري للآية التالية :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً
فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

وقلت في تفسيرها :

من عجيب الصدف أو أحسنها أن يتفق — من غير قصد — وصولي بتفسير القرآن الكريم إلى آيات الهجرة — مع أول السنة الهجرية لعام ١٣٨٨ ، وإسرائيل تحتل ارضنا المقدسة ، وأهلها يهاجرون منها فراراً من التنكيل والتقتيل الجماعي الذي مارسته إسرائيل ، وما زالت تمارسه .

وقد أوحت إلي هذه الصدفة بالمقارنة بين اعتداء المشركين في مكة المسلمين وإخراجهم من ديارهم، علي وبين الاعتداء الاسرائيلي – وبالاصح – الاعتداء الاستعماري على الأرض المقدسة ، واخراج اهلها من ديارهم . ثم انتقلت من هذه المقارنة إلى استخراج العبرة والعظة من جهاد النبي (ص) والمسلمين في هجرتهم ، وتدبير الخطط واحكامها الذي بلغ بالمسلمين إلى اوج النصر على عدوهم ، وتحطيم طغيانه وعدوانه . واوقف صناديد قريش الذين اخرجوا النبي من مكة ، اوقفهم بين يديه الاذلاء مسلمين ، يستمعون إليه وهو يقول لهم :

﴿ مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ ﴾

وقد يظن البعض ان الهدف الأول من هجرة النبي والمسلمين هو مجرد الهروب بدينهم من المشركين الذين تعرضوا للمسلمين بالاذى ، ومنعوهم من ممارسة الشعائر والأعمال الدينية ، تماماً كما يلتجيء العابد الزاهد إلى المسجد ليقيم فيه صلاته بعيداً عن الضوضاء والغوغاء . . . كلا ، لقد كانت هجرة المسلمين ابعد وأعمق من ذلك ، . . والدليل ما حققته من نتائج واهداف لقد كانت هجرة الرسول – بالاضافة إلى الهروب بالدين – خطة مرسومة ومدبرة تمهيداً للمعركة كانسحاب الجيش من ميدان القتال إلى موقع آخر من مواقعه للهجوم المعاكس والانقضاض على العدو بضربة قاضية لا تقوم له بعدها قائمة .

وبعد ان وصل النبي إلى المدينة آخى بين اصحابه ، وجمع القلوب المتخاصمة ، واذاب ما فيها من عصبية واحقاد ، وحين تم له ذلك بدأ يرغب المسلمين في الجهاد ، ويحثهم على الدفاع عن كيانهم وعقيدتهم ، ويضمن

الجنة لمن يقتل في سبيل الله ، والعزة والكرامة دنياً وآخرة لمن ينجو من القتل ولذا اخذت هذه التعاليم سبيلها إلى نفوسهم شرع بتجنيدهم وتأليف السرايا ، يبعثها هنا وهناك . . . وقادها بنفسه اكثر من مرة ، وحققت الاستقرار والأمن للمسلمين ، كما اقلقت راحة قريش وسلامتها . . . ثم تحولت السرايا إلى معارك كبرى ، والمسلمون يبذلون ارواحهم واموالهم ، حتى جاء نصر الله والفتح .

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ .

واحسب ان هذه الاشارة كافية لاستخراج العبرة التي يجب ان ننتفع بها في نكبتنا باسرائيل ومن ساند اسرائيل . . .

هاجر النبي (ص) من مكة المكرمة لاعتداء المشركين عليه وعلى اصحابه وهاجر الفلسطينيون من الأرض المقدسة لاعتداء الصهيونية والاستعمار عليهم وعلى نسائهم واطفالهم . وكانت هجرة المسلمين آنذاك ابتعاداً عن الوقوع في التهلكة ، وانسحاباً من ميدان المعركة لتجمع القوى ، والاستعداد للضربة القاضية على العدو . . . ويجب ان يكون خروج الفلسطينيين من ديارهم بهذا القصد والروح ، ولهذه الغاية بالذات ، لا بقصد اخلاء البين للصوص يسرحون فيه ويمرحون . . .

وبدأ النبي هجرته بالتآخي بين اصحابه . . . وعلى قادة العرب والمسلمين ان يبدأوا بالتآخي والتصافي بين القلوب . وان يوحدوا كلمتهم لمجابهة العدو ، تماماً كما فعل النبي قبل ان يجابه المشركين ومن حاد عن هذه السبيل فقد التقى مع اسرائيل ، وحقق امنيتها من حيث يريد او لا يريد .

وارسل النبي السرايا لتقلق أمن المشركين . وامد المسلمون هذه السرايا بكل ما يحتاجون ويجب على العرب والمسلمين ان يشجعوا الفدائيين من الفلسطينيين وغيرهم . ويمدوهم بالمال والعتاد ويتعاونوا معهم إلى اقصى الحدود. ليقلقوا راحة اسرائيل وامنها ... وعبأ النبي وجميع المسلمين للمعركة الفاصلة الكبرى . واستأصل الشرك من جذوره بعد ان رسخ قروناً في كل جزء من ارض الجزيرة العربية. وهذا ما يجب ان يفعله قادة العرب والمسلمين.

وإذا لم نعتبر بهذا الدرس من تراثنا وتاريخنا. ونكون جميعاً جنوداً لله والوطن فلسنا جديرين باسم العرب والعروبة . ولا باسم الاسلام والمسلمين . . . بل ولا باسم الانسان والانسانية بعد ان اصبح الجهاد في هذا العصر من أوجب الواجبات واهمها .

مفاهيم إنسانية في كلمات

المقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله الطيبين

وبعد ، فان هذا العصر عصر غربلة الافكار ، وتمييز النافع من الضار ، وبديهة ان الغربلة بمعناها الصحيح لا تتحقق الا بعد الاحاطة بكل فكرة تتصل بالموضوع ، وبعد المقارنة بينها من جميع الجهات تكون التصفية بقبول ما يقبل ، ورفض ما يرفض ، تماماً كما يفعل القاضي حين يجمع بين الخصمين ويستمع إلى كل ، ثم يحكم بما تستدعيه الاصول .

اما من يسرع إلى الحكم بان هذه الفكرة حقيقة جديدة ، وانها من مبتكرات العصر الحديث ، اما ان يقول هذا دون تحفظ ، ودون بحث وتنقيب فقد حكم قبل ان يثبت ، وتعدى حدود العلم والعدل .

وهذه الصفحات تهدف إلى ايجاد حافز في نفوس ابنائنا وشبابنا ، إلى الأناة والتثبت في احكامهم على ما يقرأون ويسمعون من افكار يحسبونها جديدة لأنها تلبي حاجة من حاجات الحياة ، حتى كأن تاريخهم وتراثهم جفاء ليس فيه شيء ينفع الناس ، وليس من شك انهم بذلك يسيئون إلى انفسهم ، ويقطعون كل وشيجة بينهم وبين قوميتهم ، ويفقدون كل صفة تدعو إلى احترامهم والاصغاء إلى اقوالهم وآرائهم .

واقسم قسم من لا يخشى الا ربه . ولا يخاف الا ذنبه اني قرأت الواناً من الكتب والافكار قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها . وما وجدت شيئاً ينتفع به الناس إلا وجدت له اساساً ومصدراً في تراثنا الإسلامي بصورة اوفى واجدى بخاصة في كلام أهل البيت . وبالأخص في كلمات الإمام علي ، وحفيده الإمام الصادق ، وسبق ان عرضت جملة من اقوال الإمام كانت في كتاب « علي والقرآن » ، اما هذه الصفحات فقد ذكرت فيها طرفاً من كلمات الإمام جعفر الصادق في حقيقة الدين ، ونظرية المعرفة . وتحديد الحق والخير والحرية والبلاغة ، وما إلى ذلك من اسس الحياة . وقارنت بين اقواله وبين النظريات التي يقال انها حديثة ، وقدمت الارقام والادلة على انه قد سبق إليها بمئات السنين .

تحدث الإمام الصادق عن مشكلات الحياة التي يحسها كل انسان ، وذكر حلولها ببساطة بالغة يفهمها ويؤمن بها الخاص والعام ، ذلك انها حلول تعبر عن الواقع ، وإذا كان للحقيقة من ميزة فهي الوضوح والبساطة ، والذي يلفت النظر ان احاديث اهل البيت تدل بصراحة على انهم لا يتكلمون عن مشكلات الحياة بوحي من حب الخير ، والاخلاص للانسانية فحسب ، بل ان لهم مناهج علمية لمعالجة مشكلة ، واستئصالها من الجذور ، كقول الإمام الصادق :

ثلاثة أشياء يحتاج إليها الناس :

الأمن والعدل والخصب .

وقوله :

إن يسلم الناس من ثلاثة كانت سلامة شاملة :

لسان السوء ، ويد السوء ، وفعل السوء .

وغير ذلك كثير .

ولابدع ، فان علوم أهل البيت هي علوم القرآن الذي فيه تبيان كل شيء وعلوم جدهم الرسول الذي لا ينطق عن الهوى ، وسيجيء يوم يتفق فيه الناس على ان كل ما قاله اهل البيت حق لا ريب فيه ، كما اتفقوا على ان شكل الأرض كروي بعد اختلاف طويل في شكلها . وإذا تكلمت في هذه الصفحات عن المفاهيم الإنسانية او الأخلاق عند الإمام الصادق، او عند احد الأئمة من اهل البيت فانما اتكلم عن الاخلاق عند الرسول الاعظم ، وكما هي في القرآن الكريم والسنة النبوية .

قال الإمام الصادق : « لا تقبلوا علينا خلاف القرآن ، فانا ان تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن ، وموافقة السنة ، انا عن الله وعن الرسول نتحدث ، ولا نقول قال فلان وفلان ، فتتناقض اقوالنا ، ان كلام آخرنا مثل كلام اولنا ، وكلام اولنا مصداق لكلام آخرنا ، فإذا اتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليه ، وقولوا : انت اعلم وما جئت به ، فان لكلامنا حقيقة ، وعليه نوراً ، فمالا حقيقة له ، ولا نور عليه فذلك قول الشيطان» .

وبالتالي ، فليست الكلمات التي اقدمها للقراء هي كل ما اطلعت عليه عن اقوال الإمام الصادق في هذا الباب ، وانما هي نقطة من بحر حكمه البالغة وتعاليمه الرشيدة ، ولكنها – على قلتها – تفي بالغاية التي اردت ، حيث يبصر القارىء من خلالها ان الإسلام غني بمبادئه وتعاليمه عن كل جديد غربياً كان او شرقياً وانه يصدر ولا يستورد ، ويعطي ولا يأخذ .

واتوسل إلى الله سبحانه بالمصطفى واهل بيته ان يسمح لي بمتابعة هذه البحوث في سلسلة [1] لا ينتهي بها المسير الا مع نفسي الاخير . والحمد لله أولاً وآخراً .

---

(١) هذا هو الكتاب الخامس من السلسلة ، والأول الله والعقل ، والثاني النبوة والعقل ، والثالث الآخرة والعقل ، والرابع علي والقرآن .

سبيل الامام إلى الكمال

« قيل له : على ماذا بنيت أمرك ؟ . . . فقال : علمت أن عملي لا يعمله غيري فاجتهدت وعلمت أن الله سبحانه مطلع علي فاستحيت وعلمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأننت . . . وعلمت أن آخر أمري الموت ، فاستعددت » .

يعلم السائل ان امر الإمام ومطلبه ليس الطعام والثروة ، ولا السلطان والشهرة ، يعلم السائل ان هدف الإمام هو الخير والكمال ، وان سبيله إلى الكمال قانون عام صالح للناس وللاجيال ، وانه يعمل به ، ويطبقه على نفسه قبل ان يعلنه ، فسأل الإمام ان يرشده إلى هذا القانون . قانون الحق والفضيلة .

فاجابه بانه يبني اعماله على اسس اربعة :

الأول : علمه بان ليس للانسان الا ما سعى ، وانه لا يحصد ما يزرع سواه ولا يجديه شيء إذا اهمل ما عليه من واجبات . . . ان من يشعر بكرامته . ويريد ان يكون شيئاً مذكوراً لا يتكل الا على الله واجتهاده .

أجل . لا غنى لأي انسان عن التعاون مهما بلغت عظمته ، ولكن التعاون شيء والاتكالية شيء آخر . ان الاتكالي يمحي نفسه من الوجود ، اما من

يتعاون مع غيره فهو كأي عضو من اعضاء الكائن الحي يستعين بقوة سائر الاعضاء . وفي نفس الوقت تستعين هي بقوته .

الثاني : الحياء من الله . والحياء منه سبحانه اصل الفضائل كلها فمن خافه واستحى منه لا يداهن ولا يرائي ولايكذب ولا يزني ولا يسرق، ولا يصغي الا إليه تعالى . ومن صغى إلى الله، وحده تكشفت له الحقائق ، وعمل بها بشجاعة وايمان . ومن خاف الناس فقد تخلى عن شخصيته ، وحرم نفسه من فضيلة الشجاعة والحق والصدق، واختار لها دنس الرياء والكذب والنفاق.

الثالث : الاطمئنان إلى ان رزقه مضمون لا يأكله غيره . وهنا يتجه هذا السؤال :

كيف لا يأكل رزق انسان سواه مع ان الذين يعيشون على اقوات الناس ودمائهم لا يحصى عديدهم ؟ ! والإمام الصادق نفسه قال : لم يجتمع عشرون الف درهم من حلال . وقال جده الإمام علي : « ما جاع فقير الا بما متع به غني . . . ما رأيت نعمة موفورة الا وإلى جانبها حق مضيع » .

والجواب : ان الإمام لم يرد بقوله هذا ان باب الظلم والسلب مسدود. وانما أراد أن هذا التنافس على الرزق الذي يحصل – في الغالب – بين ارباب المهن كمخاصمة تاجرين او عاملين، وما إلى ذاك يقع في غير محله . ولاباعث له سوى الجهل. ما دام كل يعمل ويسعى بالطريق المألوف. وبهذا نجد تفسير الحديث الشريف :

« ما أخطأك لم يكن ليصيبك .
وما أصابك لم يكن ليخطئك .
ولو اجتمع الناس على أن ينفعوك لم

ينفعوك إلاّ بشيء كتبه الله لك .
ولو اجتمعوا على أن يضروك لم
يضروك إلاّ بشيء كتبه الله عليك ﴾ .

وما دام الأمر كذلك فعلى كل انسان ان يعتمد على نفسه بعد خالقه . وان يتعارف ويتعايش مع غيره بالمعروف ويترك المشاحنات والخصومات .

الرابع : الاستعداد للموت ، وليس من شك ان من استعد للموت فقد خاف العاقبة ، وتثبت قبل ان يقول ويفعل . ويعمل لخلاص نفسه من المهلكات ولم يغتر بالشهوات والملذات وازداد كل يوم احساناً وصلاحاً .

الله واحد

« قيل له : ما الدليل على أن الله واحداً ؟ . . . فقال : ما بالخلق من حاجة إلى أكثر . . . » .

وقد اعتمد علماء الكلام هذا القول ، واتخذوا منه دليلاً على نفي الشريك عن الباري عز وجل . قالوا : إذا وجد إلهان ، فاما ان يكون كل منهما قادراً على الخلق والابداع مستقلاً عن الثاني ، فيكون وجود احدهما ، والحال هذه ، عبثاً لا حاجة إليه ، والاله منزه عن العبث ، واما ان يكون عاجزاً بمفرده بحيث لا يستطيع الخلق إلا بمعونة شريكه . ويستحيل ان يكون العاجز إلها ، فتعين ان الخالق واحد لا شريك له. او قل ان ذات الاله بنفسها تستدعي التفرد بالقوة والسلطان والايجاد . والا امتنع وصفها بالألوهية .

وقال له رجل : اذكر لي دليلاً على اثبات الصانع .

فقال له : اخبرني عن حرفتك .

قال : انا رجل اتجر في البحر .

فقال : لو ركبت ، فانكسرت السفينة ، وبقيت على لوح واحد من الواحها ، وجاءت الرياح العاصفة هل تجد في قلبك تضرعاً ودعاء ؟

قال : نعم .

فقال الامام : فالهك هو الذي تضرعت له في ذلك الوقت .

لقد كتب الفلاسفة وعلماء الكلام الصفحات في اثبات الخالق ، وفي قول الامام هذا غناء عن كل ما ملأ الرؤوس والمجلدات من الاقيسة والمجادلات . لان النفس منذ تكوينها مفطورة على الاعتراف بخالقها فطرة الله التي فطر الناس عليها . ومن المذاهب الفلسفية الشائعة في هذا العصر ان معرفة الله لا تعتمد على الحس ولا على الفكر ، وانما هي وعي يقع في القلب مباشرة ، وبدون واسطة .

وقال غاندي : ان الله هو ذلك الذي يجل ، ويسمو عن التحديد ، وهو الذي لا نعرفه ، ولكن نحس ونشعر به ان قوة غير منظورة تكمن في باطننا وهي اقرب إلينا من الظفر إلى لحم الاصبع ، ان الله موجود في كل واحد منا .

مبتدع ضال

« قال : من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال .. » .

إذا وجد عالمان ، وكان احدهما اعلم من الآخر فعلى غير الاعلم ان يرشد الناس إلى من هو اعلم منه ، على شريطة ان يثق بدينه وعدالته ، اما إذا كان غير امين فيحرم الإرشاد إليه ، والعمل بقوله، وان بلغ من العلم ما بلغ . قال الإمام الصادق : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً ان الله يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل ان يغفر للعالم ذنباً واحداً ، ومن تعلم وعمل لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً .

الزهد

« قيل له : ما حد الزهد ؟ قال قول الله سبحانه : لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما أتاكم . . .

ان العاقل لا يقول لشيء كان ليته لم يكن : ولا لشيء لم يكن ليته كان . وكان بزرجمهر لا يرى فرحاً ولا حزيناً فسئل عن ذلك . فقال : ان الغائب لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحبرة . وجا في الحديث :

﴿ لا تَقُلْ لَوْ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ﴾ .

وقرأت فيما قرأت أن تاجراً فيامريكا احترقت امواله كلها ؛ وكانت تبلغ الملايين ؛ فجاءه بعض معارفه يعزيه ؛ فوجدوه كعادته ؛ كأن لم يكن شيء ، ولما سأله عن عدم اكتراثه ومبالاته ، قال له : إن الحزن على ما فات لا يجدي نفعاً ، أونا أفكر بجمع الثروة من جديد ؛ وهذا أهم شيء لدي .

البلاغة

« قال : من عرف شيئاً قل كلامه ، وإنما سمي البليغ بليغاً ، لأنه يبلغ حاجته بإيجاز . . . .
وقال : ثلاثة فيها البلاغة القرب من المعنى والبعد عن حشو الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير . . .
ليست البلاغة بحدة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة » .

يخلط كثير من المتعلمين بين مفهومي الادب والبلاغة ، ويرونهما شيئاً واحداً ، مع ان الفرق بعيد جداً بين معنى كل منهما ، فلفظة أدب مرت بادوار عديدة . كانت في الجاهلية تدل على كمال النفس ، فالاديب من كان على خلق كريم ، ومنه الحديث الشريف :

﴿ أدّبَني ربّي فأحسَنَ تأديبي ﴾

ثم استعمل لفظ الأديب في العصر الأموي في فئة المعلمين ، وقيل للمعلم « مؤدب الصبيان » ، ثم اطلقت في العهد العباسي على من يروي طرفاً من الشعر والمثل واللغة والنوادر .

أما اليوم فيعبر بلفظ الأديب عن الخطباء والكتاب الذين يتكلمون عن الحياة العامة واحداثها ، ويضفون عليها لوناً من خيالهم واحساسهم ، ويحكمون عليها بما يرون من خير او شر ؛ ويوجهون الناس إلى ما يريدون . وقد لا يهتم الأديب بشيء من حياة الناس ؛ وانما همه أن يصوغ قطعة فنية شعراً او نثراً يجد فيها السامعون المتعة واللذة .

اما لفظة البليغ فما زالت كما كانت منذ وضع علم البلاغة تدل على ان المتكلم قادر على التعبير عما يريد بلفظ عربي فصيح مع الايجاز والوضوح . وعدم الخروج عن الموضوع ، واوجز تحديد للبلاغة ما قاله الإمام الصادق :

﴿ الدَّلالَةُ بِالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ ، أوْ إصابَةُ الْمَعْنَى وَقَصْدُ الْحُجَّةِ ﴾ .

فكل من اصحاب المعنى الذي يريد بيانه بايجاز ووضوح فهو بليغ ، سواء أعاد هذا المعنى على الناس بالخير والمنفعة . او لم يترتب عليه اي أثر ملموس غير اللذة والمتعة .

أجل ، ان الادب يلازم البلاغة ، ولا ينفك عنها بحال ، اما البلاغة فقد تنفرد عن الادب . إذ من الممكن ان يعبر الانسان عما يريد بايجاز ووضوح . ويصيب المعنى ، ومع ذلك لا تكون له معرفة الاديب وثقافته . اذن فكل اديب بليغ ، وليس كل بليغ اديب .

الحرية والسعادة

« قال : خمس خصال من لم تكن فيه واحدة منها فليس فيه كثير مستمع : الوفاء والتدبير ، والحياء ، وحسن الخلق ، والخامسة تجمع هذه الخصال كلها ، وهي الحرية ... وخمس خصال من فقد واحدة لم يزل ناقص العيش زائل العقل مشغول القلب وهي صحة البدن ، والأمن ، والسعة في الرزق والأنيس الموافق . قيل له : وما الأنيس الموافق ؟ قال الزوجة الصالحة والولد الصالح ، والخليط الصالح .. وتجمع هذه الخصال كلها الدعة ... »

لو ان كاتباً اجتماعياً كتب مؤلفاً ضخماً في السعادة لما وجد غير هذه الاسس الأربعة ، ولانتهى إلى نفس ما انتهى إليه الإمام من التحديد والنتيجة ان الدعة – وهي السكينة والراحة – نتيجة طبيعية لصحة البدن ، وخفض العيش والانيس الموافق ، والسلام الدائم ، فمن أجلها يعمل كل انسان ، وعنها يدافع ، ومنها يتخذ مقياساً لتقدم الشعوب ووعيها ، وعدالة الحكام واخلاصهم ، ومهما اختلف الناس في تفكيرهم واديانهم وتقاليدهم فهدف الجميع واحد : الصحة . الامن . العيش الرغيد .

وقد يقال :

ان علاقة الراحة بالصحة والامن والعيش بديهية لا تحتاج إلى شرح وتوضيح ولكن اية علاقة للوفاء والتدبير وحسن الخلق والحياء بالحرية ؟ ! وما هو الوجه لقول الامام بانها تجمع هذه الخصال ؟ !

والجواب :

انالحرية يراد منها تارة التحرر من الشهوات والاهواء ، واخرى التحلل من التقليد والتبعية ، وثالثاً الخلاص من القوة والسيطرة المعتدية ، واي معنى اريد من هذه المعاني الثلاثة فان الإنسان يفقد شخصيته وارادته إذا فقد الحرية لان من تتحكم به العواطف والانفعالات ، او يسيطر عليه الغير يستحيل عليه التدبير والوفاء ، وحسن الخلق والحياء ، يستحيل عليه التدبير ان يملك من امره غير الخضوع . والتسليم .

ومن اجل هذا اعتبر الإمام الصادق الحرية ام الفضائل والعبودية ام الرذائل وأصل المشكلات الاجتماعية والشخصية .

ونستطيع القول :

لو ان الشباب اطلعوا على تعاليم الصادق ، وتدبروها لما فكروا بالتحليل منقيود الدين ، ولتأكدوا أن الدين يتصل اتصالاً قوياً وفعالاً بواقع الحياة ، ويستهدف خير الانسانية وسعادتها ، وان كل ما فيه النفع والصلاح فهو من الدين في الصميم . ليس في الدين مادة دنيوية وروح اخروية ، وانما فيهخير وشر ، ونافع وضار ، وحسن وقبيح ، فكل نافع هو ديني مادياً كان او روحياً .

وبالتالي ، نوجه إلى شبابنا هذا السؤال :

لقد قرأتم مئات الصفحات في الحرية والسعادة للغربيين وغير الغربيين فهل وجدتم خيراً من أقوال الامام الصادق في تحديد مفهوم الحرية والسعادة ؟ ! هل قرأتم قولاً يعبر عن شعوركم ابلغ واصدق تعبير كقوله هذا ؟ !

لا حقيقة
إلا في العمل

« قيل له : إن قوماً يعصون الله ويقولون : نرجو مغفرة الله . . . فقال : كذبوا ، إن من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيء هرب منه . . . » .

إذا قلت : هذا خير ، وهذا شرير ، فالمفروض انك اعتمدت لحكمك هذا على صفة من صفات المحكوم عليه بالخير ، او الشر ، فما هي تلك الصفة ؟ هل هي الكلام ؟ او النية ، او العمل ؟ .

ويدلنا قول الإمام الصادق

﴿ من رجا شيئاً طلبه ﴾ .

أن العمل وحده يجب ان يكون مصدر الحكم ، وكذا قول جده امير المؤمنين :

﴿ يدعي أنه يرجو الله كذب ، والعظيم . . . ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله ؟ ! كل من رجا عرف رجاؤه في عمله ﴾ .

وهذا انكار صريح لوجود أي شيء في النفس كحقيقة ثابتة إذا لم يصدر

عنه اثر حسي يرى بالعين ، او يلمس باليد ، فمن ادعى الرغبة في شيء ولم يعمل ما له مع القدرة وتوفر الاسباب فهو كاذب في دعواه ، اجل ، قد يتخيل انه يرغب ويأمل . ولكن هذا وهم وتصور ، إذا لم تجسم الرغبة في العمل الملموس .

ولست بحاجة إلى القول بان هذا هو الرأي العلمي الشائع في هذا العصر ولكن لابد لي من الاشارة إلى ان الدين قد سبق العلم الحديث إلى انه لا وجود لحقيقة الانسان الا في عمله . وعلى هذا يسوغ لنا ان نحكم ونحلف بالعظيم كما حلف امير المؤمنين ان من يظهر الصلاح والاخلاص للدين والوطن كذاب منافق ، إذا لم نعرف صلاحه واخلاصه في عمله . قال الإمام الصادق : المقيم على الذنب ، وهو يستغفر كالمستهزيء . وقال : المؤمن قليل الكلام كثير العمل ، والمنافق كثير الكلام قليل العمل .

في عام ١٩٥٦ رأينا بعض الحكومات المتسمة باسم الإسلام تناصر فرنسا وانكلترا واسرائيل ، وتقف إلى جانبهما في مؤتمر لندن ضد مصر في الاعتداء على بور سعيد ، ورأينا الهند تؤيد حق مصر في تأميم القناة بهذا المؤتمر ، مع ان الهند ليست اسلامية ، ولكنها عبرت بعملها هذا عن ايمانها بحق كل شعب بحريته واستقلاله ، كما ان تلك عبرت بموقفها العدائي عن تنكرها لهذا الحق وللاسماء والمظاهر من اثر غير الكذب والخداع .

الأمن والعدل والخصب

« قال : ثلاثة أشياء يحتاج إليها جميع الناس . الأمن والعدل والخصب ... » .

قال بعض الكتاب من الشباب :

ان الدين في طريق الزوال ، وسيموت كما ماتت الاساطير والخرافات ، أي ان لفظة الدين ترادف لفظة الاسطورة والخرافة ، بزعمه .

ونحن نؤمن بان الدين الذي ينادي به تجار الحروب ، والعاملون للسلب وافقار الشعوب ، سيموت لا محالة ، اما دين محمد واهل بيته ، اما الذي يقف مع من يعمل ويناضل من اجل العدل والأمن والخصب فانه باق ببقاء السموات والأرض .

هذه هي دعوة الاسلام ومطلبه وغايته ، الايمان بالحق ، والعمل للامن والعدل والخصب ، ولا خير في العلم والفلسفة ، ولا في الحكم والسياسة ، ولا في الافلام والصحافة ، ولا في اي شيء إذا لم يحرر الانسان من الخوف والظلم والفقر .

ان ارقى الدول اليوم تحاول ان تضع قوانينها على هذه الأسس الثلاثة ، فهي وحدها تحل المشكلات الاجتماعية وتستأصل الادواء من جذورها ، فبالخصب يقضى على الحاجة والعوز ، وبالأمن توجه ميزانيات الدول إلى الحقل

والمدرسة والمصنع ، والمستشفيات ، وبالعدل فصان الحقوق ، وتنظم الحياة . ما اعظم الاسلام ، وانفعه من دين .

ولقد شعر الناس في كل مكان انهم بحاجة إلى الأمن فعقدوا المؤتمرات ورفعوا الأصوات مطالبين بتحريم الاسلحة والحروب الذرية وغير الذرية . ولم يستطيع الاقطاب تجاهل اصوات الملايين . فاضطروا إلى ان يفكروا مكرهين او مختارين بعقد ميثاق للسلم ، او تحريم السلاح الذري تمهيداً لنزع السلاح الشامل .

ولست أجد خيراً من هذه المناسبة لابين حقيقة ربما خفيت على كثيرين :

لقد عرفت اناساً يتطلعون إلى الامن والعدل والخصب لجميع الناس ويندفعون إلى الخير بفطرتهم . ومقتضى دينهم وتربيتهم . ويتمنون ان لا يظلم احد احداً . ولا يتحكم انسان بانسان ، وان يعيش الجميع في أمن ورخاء ، وان يبتديء الانتاج من المعمل . وينتهي إلى الاسواق والبيوت . لا إلى ميدان الحرب والقتال . حيث تلتهمه النيران . وعشرات الملايين يلتهمهم الجوع ويتلهفون ويلهثون وراء الغذاء والكساء .

احب هؤلاء الطيبون الامن والعدل حب مبدأ وايمان ودين واخلاص في ظرف ينقسم فيه العالم إلى كتلتين غربية وشرقية تختلفان نظاماً وسياسة ، وتضم الكتلة الغربية تجاراً ، وارباب مصانع يعملون للربح . ويسيطرون على الحكم ولا يشبعهم الا تكديس الثروات في خزائنهم وتسرب الأموال إلى بنوكهم في كل حدب وصوب . وبديهة ان نظاماً يشجع الاستغلال والاحتكار لا يمكن ان يحيا ويستمر الا بالحرب ، او الاستعمار ، او بهما معاً ومن هنا رأينا بعض الدول الغربية تؤيد فكرة الحرب ، ولما رأت الشعوب ضد هذه

الفكرة اخترعت الحرب الباردة ، ليظل الانتاج متجهاً إلى المعركة لا إلى المطبخ .

اما الكتلة الشرقية فقد رأيناها تعارض فكرة الحرب وقد يكون الباعث لها على ذلك مجرد العداء للغرب ونظامه الرأسمالي ، لا حباً بالسلم ، وقد يكون رغبة في توجيه ثروتها إلى سد حاجاتها الضرورية ، لا إلى الآلات الجهنمية وقد يكون غير ذلك من الدوافع والبواعث السياسية ، وسواء أرادت الحق او الباطل فالمهم انها تعارض فكرة الحرب .

وهنا يلتقي الطيبون انصار « الامن والعدل والخصب » مع محبي السلم ، ويفترقون عن تجار الحروب ، ولكن جاء هذا الافتراق ، وذاك اللقاء صدفة من غير قصد ، ولو ان من عمل للسلم عمل للحرب لانعكست الآية . والتقى الناس معه دون سواه ، اذن لم تكن مناصرة الناس للأمن والعدل بغضاً بالغرب ولا حباً بالشرق . وانما ايماناً واخلاصاً لله والصالح العام .

هذي هي الحقيقة التي تثبت نفسها بنفسها ، ولكن المغفلين يجهلونها ، وارباب الاهواء يتجاهلونها ، ويكيلون التهم جزافاً لانصار العدل والفضيلة ، وهم اذ يفعلون ذلك يناصرون الظلم والعدوان : من حيث يريدون أو لا يريدون ومهما يكن فان الذين لا هدف لهم الامن والعدل والخصب سيستمرون في طريق هذه الامنية تقرباً إلى الله ، ورغبة في الخير لا يثنيهم قيل السفهاء ، ولا تهم الادعياء .

ومرة ثانية نكرر القول : ان حب الخير بدافع الدين والعقيدة شيء . ومناصرة الكتلة الشرقية على خصومها بدافع السياسة شيء آخر . ان ديننا نحن المسلمين وتاريخنا وتراثنا يفرض علينا ان نعمل للامن والعدل والخصب

وان نتقبل ونتعلم من القريب والبعيد كل ما ينتفع به ، ويؤدي بنا إلى غاية نبيلة ، وان نرفض كل ما يتنافى مع عقيدتنا ومقدساتنا وتقاليدنا شرقياً كان أو غربياً .

وبالتالي . فهل الإمام جعفر الصادق من انصار الكتلة الشرقية ؟ ! . . .

أخبرني من تظهر عليه دلائل الصدق ان رجلاً اخبره بان بعض السفارات تخصص مبلغاً من المال للتجسس ، ومبلغاً آخر تستأجر به افراداً ، وتسمى لهم اشخاصاً ، وتأمرهم بالتشهير بهم وافتراء الأكاذيب عليهم ، وبهذا ترمي هدفين وتفريق الصفوف ومنعها من التكتل ضد الباطل .

الشيعة والتقوى

« قال : إن الله جمع ما يتواصى به المتواصون من الأولين والآخرين في خصلة واحدة هي التقوى ، قال عز وجل : « ووصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ان اتقوا فبالتقوى جماع كل عبادة صالحة ، وبها وصل من وصل إلى الدرجات العلى وعاش من عاش مع الله بالحياة الطيبة ، والأنس الدائم ، قال سبحانه : « إن المتقين في جنات ونَهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر . . . وقال الإمام الباقر : والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه . . . وقال الإمام علي التقوى رأس الأخلاق . . . » .

وعن جابر الجعفي ، قال : خدمت الإمام محمد الباقر بن علي بن الحسين ثماني عشرة سنة ، ولما أردت الخروج ودعته ، وقلت له :

افدني يا بن رسول الله .

قال : أبعد ثماني عشرة سنة يا جابر ؟ !

قال جابر : نعم ، يا سيدي ، انكم بحر لا ينزف ، ولا يبلغ قعره ،

قال الإمام : بلغ شيعتي عني السلام ، واعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله ، ولا يتقرب إليه أحد إلا بالتقوى ، يا جابر من أطاع الله واحبنا فهو ولينا ، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا . جعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون .

ويتبين معنا من هذه الأقوال أن معنى الدين والأخلاق والتشيع عند أهل البيت يرجع إلى شيء واحد ، إلى التقوى ووازع الأعمال الصالحة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الشيعة ، وتراجم رجالهم وجدنا أنهم كانوا يعرفون بالإخلاص والتضحية ، والتواضع والخشوع ، والثورة على الباطل وأهله ، والأمانة والوفاء ، وذكر الله والعبادة ، وتلاوة القرآن والتهجد والمناجاة والسخاء وتعهد الاخوان والجيران ، وصدق الحديث . وكف الأذى عن الناس .

اقرأ التاريخ ، فانك واجد من الشيعة في كل عصر رجالاً تتمثل فيهم عظمة الدين والخلق الكريم ، ومن أجل ذلك تنكروا للسلطان الجائر ، فمنهم من ثار عليه بالسيف ، ومنهم من هرب منه ، ومنهم من امتنع عن التعاون معه بالرغم من المغريات . لقد أبى الشيعة في جميع الأدوار والعهود أن يتحالفوا مع السلطة ، كما تحالف غيرهم ، وهذا هو السر في ابتعاد علماء النجف — على وجه الاجمال — عن الدولة ورجالها ووظائفها . ان اعتزالهم عن الحكم والحكومات إن هو إلا امتداد لتاريخهم وسيرة أئمتهم وسلفهم .

كتب المنصور إلى الإمام الصادق : لم لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟

فأجابه الإمام : ليس لدينا شيء من الدنيا نخافك عليه ، وليس لديك شيء من الآخرة نرجوك به .

فكتب إليه المنصور ثانية : تصحبنا لتنصحنا .

فأجابه الإمام : من أراد الآخرة لا يصحبك ، ومن أراد الدنيا لا ينصحك .

العزة لأهل الحق

« قال : ما ترك الحق عزيزاً الاذل وقال الإمام علي : الغالب بالشر مغلوب » .

إن العزة والكرامة لأهل الحق في منطق الدين والعقل ، ولا كرامة لمبطل كائناً من كان .

وقد يقال : ليس من شك أن الأديان لا تقيم وزناً لغير المحق ، ولكن أي جدوى في ذلك طالما الناس لا تكرم إلا أهل المناصب والثروات ، وتسير في ركاب الأقوياء ، أما الحق فيكرمه الفلاسفة والكتاب في أوراقهم ، ويعظمه الوعاظ على المنابر ، ويصوغه المشرّعون مواداً في القوانين ، ولا شيء غير ذلك ، فلم نر واعظاً ولا فيلسوفاً ولا مشترعاً ولا أديباً يعمل بالحق إذا خالف هواه ، وأمن العقبة ، إذن فقول الإمام ما ترك الحق عزيزاً إلا ذل به الذل في الآخرة ، لا في الدنيا .

الجواب :

أولاً : ان الكرامة الأخروية هي الكرامة الحقة ، أما وجاهة الدنيا فحلم زائل ، ويجب أن يخشاها العاقل ، لأنها — في الغالب تؤدي إلى الهلاك ، وتبتعد بصاحبها عن مواطن الحق والعدل .

ثانياً : ان الذين يكرمون المبطلين من أهل الجاه والمال هم أشرار الناس

الذين يبيعون دينهم وأوطانهم لكل من يدفع الثمن . أما الأشراف فهم الذين ثاروا في كل جيل على الحكام الظالمين وعلى المترفين المرابين ، واستشهدوا في سبيل الحرية والإنسانية .

ان الحق هو المثل الأعلى عند الأبرار ، ولا وزن في نفوسهم للجاه والمال ، فالغالب بالشر مغلوب ، وان طوقته المبطلون بالسلاسل والأغلال .

قال االصحابي الجليل عمار بن ياسر ، وهو يحارب معاوية مع الإمام في صفين : والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنّا على حق ، وانهم على باطل .

وما نسيت هذه الكلمة منذ قرأتها ، وما أثر في نفسي شيء مما قرأت وسمعت ورأيت أكثر منها . كل شيء قد تحقق لعمار ما دام محقاً . . . فليس المهم عنده أبداً أن ينتصر على خصمه ، وإنما المهم أن يكون محقاً وكفى . . . ان الرابح الظافر من سلم له دينه وإيمانه ؛ أما الحياة فهي إلى زوال ، وان طال الأمد .

كتب معاوية إلى الإمام يعيره بأنه قيد إلى بيعة أبي بكر ، كما يقاد الجمل المخشوش .

فأجابه الامام : قلت : اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع ، ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت . وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه . أو مرتاباً في يقينه ، وهذه حجتي عليك وعلى غيرك .

المشورة

« قال : لا تشر على من استبد برأيه ولا على وغد ، ولا على متلون ، ولا على لجوج ، وخف الله في موافقة هوى المستشير .... » .

من استبد برأيه لا يصغي إلى غيره ، والوغد واللجوج لا رأي لهما ولا ينتفعان برأي ، أما المتلون فلا يثق بأحد قياساً للناس على نفسه ، واني لأعرف أفراداً لا يتصورون الصدق والإخلاص في مخلوق ، وان قامت الأدلة والبراهين ، لأن ذلك مستحيل في حقهم فهو إذن مستحيل في حق غيرهم أيضاً .....

يحكى أن رجلاً كان ينبش القبور ، ويسرق أكفان الموتى ، وعندما قرب أجله أوصى أولاده أن يحرقوه بعد الموت ، كي لا يسرق اللصوص كفنه ، كما كان يفعل هو .

اما موافقة هوى المستشير فانها خيانة لمبدأ الحياة والإنسانية : فمن سكت عن المخطىء ، ولم يواجهه بخطئه ، ويدحض أراءه المغلوطة فقد أساء إليه وإلى المجتمع إذا ظن فيه الخير والهداية . قال الإمام الصادق : من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يردعه عنه ، وهو قادر عليه فقد خانه ... وما لقي العبد خالقه بعمل أفضل من النصح لله في خلقه .

العلم والعمل

« قال الإمام الباقر أبو الإمام الصادق : لا يقبل عمل إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل ، ومن عرف دلته معرفته على العمل ، ومن لم يعرف فلا عمل له . . . » .

يرى البعض أن مفهوم العلم مستقل عن العمل ، وانه لا رابط بينهما في الخارج . فمن الممكن أن يكون الإنسان عالماً إذا حفظ كلمات العلماء . واستطاع أن يحدد بعض المفاهيم . ويقول : هذا حكم العقل والمنطق ، ولو لم يصدر عنه أي عمل بحيث يكون هو والجاهل سواء من الناحية العملية .

أما الإمام فانه يربط بين المعرفة والعمل ، ويتخذ من كل منهما مقياساً حقيقياً للآخر . وهذا تعبير ثانٍ عن النظرية القائلة بأن المعرفة لا تنفصل عن النشاط العملي .

ولو قال هذا القول طالب من طلاب هذا العصر لما كان في قوله أية غرابة بعد أن تدخل العلم في كل كبيرة وصغيرة في حياتنا العامة والخاصة . أما أن تقال هذه الحقيقة في عصر لا صناعة فيه إلاّ باليد . ولا زراعة إلاّ على الحيوان . ولا مواصلة إلاّ على الجمل وما إليه ، اما أن تقال هذه الحقيقة منذ ١٢ قرناً أو أكثر فان قائلها ليس من رجال الجيل القديم ، ولا الجيل الحديث

فحسب بل يعيش في كل عصر وجيل . ان العلم ، أي علم إذا لم يمد الإنسان بالقدرة والحياة فهو عقيم في نظر أهل البيت .

ولا بد من التنبية إلى أن العمل الذي أثنى عليه الإمام ، وجعله مقياساً للعلم إنما أراد به العمل الذي يعود على الإنسانية بالخير والمنفعة، أما العلم الذي يصنع قنابل الهلاك والتدمير بالجملة ، ويسوق الألوف إلى المصانع والمناجم تحت الأرض ، ويعرض حياتهم للخطر من أجل أصحاب الملايين ، أما هذا العلم فالجهل خير منه ألف مرة (1) .

(1) قرأت فيما قرأت أن بعض الآلات الحربية يبلغ وزنها ٤٧ طناً ، وان ثمنها بلغ أكثر من وزنها ذهباً خالصاً .

التسول

« قال : لو عرف الناس ما في المسألة لم يسأل أحد أحداً ... » .

يرى الإمام الصادق أن التسول قبيح بطبعه ، وان السؤال ذل، ولو أين الطريق كما قال جده أمير المؤمنين . وقد نهى الرسول عن التسول بأساليب شتى .

قال : اتخذ الله ابراهيم خليلاً ، لأنه لم يرد أحداً ، ولم يسأل غير الله عز وجل ، وروي عنه انه ضمن لجماعة من الأنصار على الله الجنة إذا لم يسألوا احداً شيئاً وجاءه رجل ذات يوم فقال : يا رسول الله علمني عملاً لا يحال بينه وبين الجنة ، فقال له : لا تغضب ، ولا تسأل الناس . وارض لهم ما ترضى لنفسك . وقال : من استغنى اغناه الله ، ومن فتح على نفسه باب المسألة فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر لا يسدها شيء . ان يد السائل هي السفلى إلى يوم القيامة .

وقال الإمام الصادق : ما من عبد يسأل الناس من غير حاجة . فيموت حتى يحوجه الله إليها ، ويثبت له النار . وقال من سأل من غير فقر فانما يأكل الجمر . . . من سأل الناس ، وعنده قوت ثلاثة ايام لقي الله ، وليس في

وجهه لحم . . . وقال : ليس من شيعتنا من يهر هرير الكلب (١) ويطمع طمع الغراب ، ويسأل الناس بالكف .

ولنا ان نستنتج من هذه الأقوال ان التسول يذهب بالكرامة ، وانه ضرر على المجتمع ، وعنوان لانحطاطه وتأخره . . . ان الانسان خليفة الله في ارضه ، وامينه على دينه ، وحامل سره ، اودعه من القوى والاسرار ما يجعله اشرف واعظم من الشمس والقمر ، ومن الكون باسره ، هذا العظيم الشريف يمد يد المذلة ، ليلتقط اوساخ الناس وفضلات الموائد ! . . لذا رأينا الحكومات الصالحة تعمل جاهدة للقضاء على التسول وتوجد العمل لكل قادر ، وتضمن العيش لكل عاجز .

وقد يتساءل : إذا كان التسول مذموماً وقبيحاً في الدين ، فكيف حث الإسلام على الصدقة ، ونهى عن رد السائل المتسول ؟ ! أليس هذا تشجيعاً للرذيلة ، واغراء بالقبيح ؟ ! .

الجواب :

ان الإسلام لم يأمر بالصدقة المستحبة كعلاج للفقر والعوز ، بل لسد حاجة مؤقتة لا يمكن سدها بغير العطف والاحسان ، وماذا يصنع المريض الذي لا يجد الآن ثمن الدواء ، والجائع الذي لا يجد الرغيف ؟ ! ماذا يصنع هذا المسكين إذا لم يجد المحسن ؟ ! هل ينتظر حتى توجد المشاريع ، وتخصص الميزانيات ، وتتغير الأوضاع والقوانين ؟ !

---

(١) المراد انه ليس بسفيه . يقال : هلك من لا هرار له . أي من سفيه له .

ولنفترض ان سفينة تحطمت ، واوشك ركابها على الهلاك ، فهل نبادر إلى اسعافهم ، والعمل على خلاصهم من الغرق ، او نعرض عنهم ، وننصرف إلى صنع سفينة امنع واقوى من التي تحطمت ؟ !

وهكذا شأن الصدقة المستحبة اشبه باسعاف الغريق . وبالتالي فان الإسلام إذ ينعي لى التسول فانما ، ينعى على الأوضاع التي يتولد منها الفقر والعوز والسؤال .

والغريب ان المتسول يسأل الناس الحافاً باسم الدين ، والنبي واهل بيته ، ويستشهد بأقوالهم في مدح المتصدق ، ثم يتجاهل ما قالوه في ذم المسألة والسائل ! . والبعض يسأل الناس باسم جده علي ، وعلي ابى ان ينزل ضيفاً على احد الانصار في المدينة يوم الهجرة ، كما فعل المهاجرون جميعاً ، وعمل عند يهودي يسقي بستانه بتمرة واحدة عن كل دلو ! . . .

وغريبة الغرائب ان يوجد من المتسولين في بلد نبي الرحمة ما لا يوجد في اي بلد آخر ، هذا ، والذهب ينبع من ارضه بلا حساب ولا نهاية . . .

ترك الشر فضيلة

عن الإمام الصادق عن آبائه ان النبي اوصى علياً بوصايا عديدة ، منها قوله :

﴿ يا علي أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد ... إن الله أحب الكذب في الصلاح ، وأبغض الصدق في الفساد ... ومن ترك الشر لغير الله . سقاه من الرحيق المختوم . فقال علي : لغير الله ! قال : نعم ، والله صيانة لنفسه يشكره الله على ذلك يا علي ثلاثة لا تطيقها هذه الأمة : المساواة للأخ في ماله ، وإنصاف الناس من نفسه ، وذكر الله على كل حال وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عز وجل وتركه ... ﴾ .

ونستنتج من هذه الوصية الحقائق التالية :

١ - ليس في الاخلاق حقيقة مطلقة ، ومبدأ ثابت لا يتغير ولا يتبدل مهما تكن الظروف والنتائج ، بل كل ما يترتب عليه الخير يكون فضيلة ،

وكل ما يترتب عليه الشر يكون رذيلة . فالصدق حسن ما دام نافعاً ، والكذب قبيح ما دام ضاراً ؛ فإذا ما اضر الصدق . ونفع الكذب انعكست الآية . ومن هنا قال الفقهاء : يجوز الكذب إذا توقف عليه ردع الظالم عن ظلمه ، ويحرم الصدق إذا ادى إلى الفتنة والنميمة ، او هلاك نفس بريئة ، ومثلوا بما لو طاردت السلطة المعتدية احد المصلحين ، واختفى عنها فراراً من البغي والعدوان ، فعلى من يعلم بمكانه ان ينكر معرفته به ؛ لو سئل عنه ، قال الامام الصادق : من سئل عن مسلم فصدق ، وادخل عليه مضرة كتب من الكاذبين ومن سئل عن مسلم فكذب ، فادخل عليه منفعة كتب عند الله من الصادقين .

٢ — ان اي عمل فيه شيء من الانسانية فهو محبوب عند الله ، سواء أقصد الفاعل ثواب الله او لم يقصد ، لان الخير ينصرف بطبعه إليه سبحانه ، فمن ترك الشر لذات الشر ، وتجرد عن انانيته فقد ارضى الله عن نفسه ، واستوجب الشكر ، تماماً كمن يدفع الحق لذات الحق لا خوفاً ولا طمعاً .

قال غاندي :

﴿ إن الله أعظم ديمقراطي عرفه العالم ﴾

فليس من الضرورة لان تكون صالحاً ان تنوي امتثال أوامر الله ونواهيه فيما تفعل وتترك — في غير العبادات طبعاً — فكل من سار على طريق الخير والانسانية فقد سار على طريق الله سبحانه ، هذا مع العلم بان الجاحد لا يستأهل الثواب يوم الحساب ، كما فصلنا ذلك في كتاب « الآخرة والعقل » .

أما قوله :

﴿ أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد ﴾ .

فهو ابلغ تعبير عن فداحة الظلم ، وانه خطيئة لا يعد لها شيء .

٣ — ان التسبيح والتهليل ، والصيام والصلاة ، كل ذلك ، وما إليه لا يجدي عند الله شيئاً إذا لم يتورع المرء عن المحارم ، ويكف عما يعرض له من الشهوات . قال الإمام الصادق : من احب ان يعلم ما يدرك من نفع صلاته ، فلينظر ، فان كانت قد حجزته صلاته عن الفواحش والمنكر فانما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز .

وروي ان نبي الله موسى مر برجل ، وهو ساجد ، فتركه ومضى ، ثم عاد فوجده ساجداً ، فقال له موسى : لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها . فاوحى الله إلى موسى : لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلته حتى يتحول عما اكره إلى ما احب .

وإذا كان الهدف من العبادة طاعة الله فان ترك القبائح والمحرمات من افضل الطاعات ، بل ليس من الطاعة في شيء ان تعبد الله فيما لا يتصادم مع هواك ، ثم تتجاهل ارادته فيما لا يتفق مع ما تشتهي وتريد . ان ابليس سجد سجدة واحدة اربعة آلاف سنة ، كما جاء في الحديث ، ولكن ابى ان يسجد لحظة واحدة لآدم ، لان هذا السجود لا يتفق مع غروره وكبريائه . ومن هنا قال الإمام الصادق لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده ، فانه شيء قد اعتاده ، فلو تركه استوحش ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه واداء امانته .

العلم والعقل والنفس

« عن الإمام الصادق أن النبي ص قال : العلم رائد ، والعقل سائق ، والنفس حرون ... » .

لا يكون العلم رائداً بالمعنى الصحيح إلا إذا كشف عن الواقع ، فالأفكار التي ترتسم في ذهنك من القراءات والدراسات وغيرها لا تسمى علماً إذا لم تكن انعكاساً عن الواقع . ومن هنا قال أهل المنطق : ان الدليل الذي يثبت الواقع يسمى دليلاً علمياً اما الذي لا يثبته فيسمى جدلياً او سفسطائياً او شعرياً .

اما العقل فانه الداعي لعمل الخير ، والزاجر عن الشر ولكن النفس كثيراً ما تتغلب على العقل ، وتندفع مع رغباتها صاغية لصوت العقل ودعوته . ان العاطفة تلعب دوراً رئيسياً في افعالنا ، اما العقل فدوره ثانوي ، وكذلك الدين .

لذا قال الإمام : والنفس حرون .. ان اثر العقل ينجلي في الخطب والنصائح ، والمقالات والكتب ، اما في الافعال فأثره ضئيل جداً ، والسلطان علينا للعاطفة ، وكثير من الناس يعتقدون ان افعالهم من وحي العقل والدين ، وهؤلاء المساكين قد ذهبوا ضحية الجهل ، كما ذهبوا ضحية الاهواء ، وفسروا الميول والشهوات بمنطق العقل والدين .

وللإمام الصادق كلام غير هذا، يدل بصراحة على ان من لا يختار الأفضل لا عقل له ، فقد سأله سائل عن حد العقل ، فقال : ما عبد به الرحمان ، واكتسب به الجنان . قال للسائل : فالذي كان في معاوية . . . فقال الإمام تلك النكراء . . . تلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل .

ومن تتبع كلمات الصادق يرى انه يربط مفاهيم الألفاظ بالعمل . فاية لفظة لا يكون لها مدلول ملموس فهي من نوع الكلام الفارغ . او مفسرة بمدلول آخر ، كتفسير عقل معاوية بالشيطنة . فلفظة حق وخير وجمال وعلم وعقل وواجب . وما إلى هذه لها معان قائمة في الخارج تدرك وتوصف بالحس والمشاهدة ، تماماً كلفظة كتاب وقلم . وقد أكد الإمام هذا المعنى بعبارات شتى منها قوله: احسن من الصدق قائله. وخير من الخير فاعله .

وغريب حقاً ان يغفل المسلمون شيبهم وشبابهم عن هذه الكنوز العليا التي كانت سبباً في عزهم ومجدهم ، وان يزعم شاب يدعي الثقافة والوعي انها من مبتكرات العصر الحديث . ومهما تقدم المتعمقون والمتخصصون في هذا العصر ، وفي كل عصر فانهم لم يبلغوا شأو أهل البيت في علومهم وافكارهم ولن يستطيعوا أن يأتوا بجديد لا يعرفه الإمام علي واولاده واحفاده الاطهار . ولو اتيح للقارىء من يمهد له الطريق إلى الكتب القديمة ، ويزيح عنها ستار الغموض والتعقيد ، ويجنبها المصطلحات والأغراب ، ويبرزها واضحة ناصعة لعرف الناس من هم أهل البيت . . . اقول هذا ، وانا مؤمن بانهم لم يكلموا الناس بكل ما لديهم من معارف وعلوم .

السلامة الشاملة

« قال : إن يسلم الناس من ثلاثة كانت سلامة شاملة : لسان السوء ، ويد السوء ، وفعل السوء » .

هذه السلامة الكاملة الشاملة للاسود والأبيض في الشرق والغرب ، وللثقافة والحضارة في كل مكان وزمان لا تتم إلا إذا كف كل انسان لسانه ويده وفعله عن السوء .

وكأن الإمام يعيش في هذا العصر يستمع إلى الاذاعات والصحف والنشرات تلفق الأكاذيب والافتراءات . وتكيل الشتائم لكل من يخالفها في الرأي ، ويخرج عن طاعة اربابها المأجورين ، واسيادهم المستغلين . تخرج الكلمة من فم المذيع ، او من قلم الصحفي فتبلغ اقصى البلاد . فيسفك بها دماء النساء والاطفال . وتنهب بها الثروات والأموال .

قال بعض العلماء : ان ميدان العقل يختص بالمعقولات واليد بالملموسات ، والاذن بالمسموعات . والبصر في المنظورات ، اما اللسان فيشمل هذه كلها ، ويتصرف فيها جميعاً ، فان استعمل في النفاق والرياء عم الفساد والبلاء .

وقد شاهدت افراداً يلفقون اقاويل يرفضها العقل ، ويكذبها الوجدان والعيان ، بل شاهدت من يكذب نفسه بنفسه ، ويقدم الارقام من اقواله وافعاله على انه مفتر كذاب .

وقد دل القرآن والحديث على ان الكذاب لا يؤمن بالله . قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : هل يكذب المؤمن ؟ ! قال « لا » . ان الله يقول :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ
لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ .
النحل ١٠٥

وقال :

﴿ لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ العَبْدِ
حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلا يَسْتَقِيمُ
قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ ﴾ .

ورب قائل : لقد رأينا من يكذب ، ويفتري ، ومع ذلك يؤمن بالله ، ويصوم ويصلي : فكيف نفى القرآن عنه الإيمان ؟ !

الجواب :

ان هذا ايمان معار يخيل لصاحبه وللناس انه ثابت ، وقد قال الصادق :

﴿ من لم يكن فعله موافقاً لقوله فإيمانه
مستودع ﴾ .

وكان معاوية يصلي ، وفي نفس الوقت يموه على اهل الشام بان علياً كان يترك الصلاة . خرج شاب من جيش معاوية في صفين يضرب جيش علي بسيفه ، ويلعن ويشتم ، فقال له هاشم المرقال : اتق الله ، فانه سائلك عن هذا الموقف . فقال الشاب : اني اقاتلكم لان صاحبكم علي بن طالب لا يصلي . . . علي الذي قاتل المشركين ، وعلى رأسهم معاوية وابوه من اجل

الصلاة . وقتل . وهو ساجد لله في محرابه . علي لا يصلي ، ومعاوية يصلي ! . . .
وقال شمر للحسين يوم الطف : ان الله لا يقبل منك الصلاة . . . الله لا يقبل الصلاة من سيد الشهداء ، ويقبل من شمر قتل ريحانة الرسول وشباب اهل الجنة وقال ابن زياد : الحمد لله الذي قتل حسيناً ونصر يزيد . . . وما اكثر الذين يسيرون على دين معاوية ، ومبدأ شمر في هذا العصر !

والخلاصة ان سوء اللسان يعم الكذب والغيبة والنميمة والسباب والفحش والاستهزاء ، وما إلى ذلك مما يسيء إلى علاقات الناس بعضهم ببعض ، اما سوء اليد والفعل فيعم السرقة والسلب والنهب والربا والاحتكار والظلم وخنق الحريات والحروب وبيع السلاح وشرائه بقصد العدوان والسيطرة على المستضعفين .

ان هذه الكلمات الثلاث التي نطق بها الإمام تحمل حقائق بعيدة الغور ، يستطيع العارف باسرارها ان يضع فيها مجلداً ضخماً . ان السلامة الشاملة هي امنية الشعوب كل الشعوب ، ومن اجلها تتكاتف وتناضل ، وتعقد المؤتمرات ، وستحقق لا محالة . ستقطع السن السوء وايدي السوء ويقضي على مثيري الفتن ، ومغتصبي الحقوق .

ويقولون : متى هذا الوعد ؟ قل : ان نصر الله قريب . . . الا تستمع إلى الصيحة بالحق ترتفع من كل مكان ؟ ! ؟

العلم والخير

« عن الصادق أن النبي ص
قال : العلم رأس الخير كله ،
والجهل رأس الشر كله » .

لا اريد ان اشرح هذا الحديث بما للعلم من منافع . وما فيه من قوة رافعة للحياة في شتى ميادينها . وانه سجل للانسان عظمة ما كان ليبلغها لولا العلم هذا . وهو بعد في أول الطريق يبتديء دائماً من حيث انتهى ، فمن الأرض إلى القمر . ومنه إلى الشمس . ومنها إلى المريخ . ومنه إلى ما لا يحده خيال ، ولا نشك انه سيتحكم في طاقة جميع الكواكب ، كما تحكم بقوى الأرض ، وسخر امكانياتها لنعيمه وسعادته ؛ لا أريد ان ابسط القول في شيء من ذلك لانه لا يكشف للقاريء عن جديد .

وإنما أريد التنبيه إلى هذا الرابط بين العلم والخير ، بين العلم والقيم فالإسلام بموجب هذا الحديث يرى أن كل ما يصلح بلي‌به النبات ، ويثمر به الشجر ، وتكثر به المواشي والدواجن فهو خير . . . وإن تقدم الصناعة في زيادة الغذاء والكساء ، وتوزيعهما على المستهلكين خير . . . وإن معرفة الأمراض ، وكيفية علاجها والوقاية منها خير . . وإن تسهيل المواصلات وتيسير نقل السلع من بلد خير . . . كل هذه وما إليها مما يسد حاجة من حاجات الإنسان ، ويخفف من اتعابه وأوصابه فهو خير في عقيدة الإسلام إذن الأغنياء بالعلم وأدواته الفنية هم الأغنياء بالمثل والقيم الروحية إذا لم يحيدوا بالعلم عن طريقه الأصيل .

إن التفسخ والإنحطاط الخلقي إنما يكون بالسرقة والإغتيال والرشوة والدعارة ، وهذه غالباً ما يكون سببها الفقر والعوز ، وبالعلم يمكن التغلب على عواقب الفقر وشروره .

إن مصائب الناس لا يزيلها العطف والصدمات ، ولا النصائح والمواعظ ، ولا بركة المعممين والمقلنسين ، ولا سياسة المتزعمين ، وأدب المتأدبين ، وإنما يزيلها العلم ، ومن هنا قال الرسول الأعظم : « العلم رأس الخير كله » .

وغريب جداً أن يتخوف الفلاسفة الاخلاقيون في هذا العصر من تقدم العلم ، ويقولون : أن ارتقاءه قد مكن للانسان قوة عجيبة جعلته يستخف بجميع القيم الاخلاقية التي حفظت المعالم المدنية ، والحضارة الإنسانية ، ويصح هذا القول إذا كان العلم محتكراً في يد الأشرار المستعمرين ، أما وقد أصبح العلم موزعاً بين القوى ، والوعي الإنساني يزداد يوماً فيوماً فالحضارة والمدنية في حصن حصين ، وعما قريب سيقضي هذا الوعي على الذين يحاولون الإنحراف بالعلم عن طريقه القويم ، لقد وجد العلم ليقضي على آلام الإنسان ، ولم يوجد الإنسان ليقضي عليه العلم . إن العلم خير ونور ، فإذا حاول منحرف أن يبتعد به عن هذه الحقيقة ، ويستعمله في الضغن والحقد فلا يتسع له المجال طويلاً ، ثم يعود العلم إلى طبعه ووضعه . لذا قال عالم مجرب : طلبت العلم لغير الله فابى أن يكون إلا الله .

وبالتالي فإذا قال الرسول الأعظم : العلم رأس الخير فإنما يريد العلم الذي يلبي حاجة الحياة ، يريد العلم الذي يستجيب لرغبات الناس ، ويسهل العسير من مشاكلهم ، يريد من العلم ما أراده بقوله :

﴿ الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ﴾ .

إن الله سبحانه قد عظم شأن العاملين لخدمة الإنسانية ، وقربهم منه ، ورفعهم مكاناً علياً ، قال الإمام الكاظم :

﴿ إن لله عرشاً لا يسكن تحت ظلّه إلاّ من أسدى لأخيه معروفاً ، أو نفّس عنه كربة ، أو قضى له حاجة ، أو أدخل إلى قلبه سروراً ﴾ .

وقال الإمام زين العابدين :

﴿ من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ ﴾ .

ولست أعرف ديناً من الأديان ، ولا مبدأ من المبادىء أشاد بالخدمة الإنسانية كالإسلام فهي المهنة الشريفة ، والسبيل إلى السعادة الأبدية ، وماذا بعد قول الإمام زين العابدين :

﴿ فبحاجة الله بدأ ﴾ ؟ ! .

وإذا كانت إغاثة الفرد بهذه المنزلة عند الله فمنفعة الملايين أفضل وأعظم . يقول علماء الأصول : أن للفظ دلالتين : إحداهما بالمنطوق والأخرى بالمفهوم ، فقوله تعالى :

﴿ وَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ .

يدل على تحريم التأفف والتبرم في وجه الأبوين بنفس اللفظ الذي تنطق به ، ويدل على تحريم الشتم والضرب بما يفهم فتحريمه أولى ، إذن ، كلما كانت الخدمة الإنسانية أعم وأشمل كان أجرها عند الله أعظم وأفضل .

الرجل الطيب

« قال : نعم الرجل من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل ، إذا اقدر لم يأخذ أكثر من حقه . . . » .

اعتاد كثير من الناس ان يقيسوا قيمة الرجل بمدى علاقته بهم ، وسلوكه معهم ، فالطيب من سايرهم فيما يهوون ، واثنى عليهم بما يحبون ، ولو كان كاذباً ومرائياً ، والخبيث من خالفهم في الرأي ، ولم يناصرهم على الضلال ، وقال وفعل بما يدين ، فهم المقياس الأول والأخير للحق ، والميزان العادل للفضيلة ، اما كتاب الله وسنة نبيه ، اما العقل والوجدان ، كل هذه وما إليها ليست بشيء ما دامت لا تتفق مع ما يشتهون ويريدون .

وما اشبه هؤلاء بفئة من السفسطائيين التي تزعم ان الموجودات الطبيعية تتبع الاعتقاد وجوداً وعدماً ، فإذا اعتقد شخص ان الأرض فوق السماء ، واعتقد آخر ان الأرض تحت السماء ، واعتقد ثالث انهما متوازيان فيكون الأمر كذلك بالقياس إلى كل واحد ، وتكون الأرض فوق السماء وتحتها وموازية لها في آن واحد .

اما المقياس الصحيح للرجل الطيب عند الامام الصادق فهو الذي تتوافر فيه ثلاث صفات :

الأولى : ان يقول بالعدل فيمن يحب . ويعامله بالحق . ولو كان ذا قربى . اما إذا غض الطرف عن سيئاته ودافع عنها ؛ لانه رحم او صديق فقد رفع نفسه فوق العدالة . وسار على نهج معاوية الذي نصب ولده يزيد خليفة مع عدائه لله وللانسانية .

الثانية : ان يكون له من قوة الايمان ورباطة الجأش ما يردعه عن فعل الحرام . وقول الزور حتى ساعة الغضب ، وان يتجرع الغيظ حرصاً على دينه ؛ كمن يشرب الدواء المر أملاً بالشفاء من الآلام . اما من لم يتورع عن الكيد والدس . والنيل بالباطل من اهل الفضل او ممن صارحه بالحق فهو الذي عناه الله بقوله تعالى في سورة البقرة ٢٠٦ :

﴿ وَإذا قيلَ لَهُ اتّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العِزّةُ بِالإثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادِ ﴾ .

قال الإمام لولده الحسن :

﴿ وتجرع الغيظ فإني لم أرَ جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذَّ منها مغبة ﴾

وقد عمل الحسن بوصية ابيه . لما مات الحسن حمل بنعشه مروان بن الحكم . فقال له الحسين : اتحمل بنعشه . وكنت تجرعه الغيظ ؟ ! . . . فقال مروان : كنت افعل ذلك بمن حلمه يوازي الجبال .

الثالثة : ان يعترف بما عليه من واجب . ويؤديه عن طيب نفس ؛ ولا يطلب ما ليس له . ويرفع نفسه فوق ما هي . وعلى هذا المقياس فنحن

اخبث من عليها ، لان كل واحد منا يطلب اكثر من حقه ، ولا يؤدي بعض ما عليه .

وبالتالي ، فان الرجل الطيب لا يثنيه عن الحق شيء ؛ ويسير على وتيرة واحدة في جميع ادواره واطواره : في خوفه وامنه ، ورضاه وغضبه ، وعسره ويسره .

كذب سمعك وبصرك

« قال : المؤمن أصدق على نفسه من سبعين مؤمناً ... وقال له قائل : يبلغني عن الرجل من اخواني ما أكره ، فأسأله ، فينكر ، وقد أخبرني عنه الثقات . فقال كذّب سمعك وبصرك عن أخيك ، فإن شهد عندك خمسون قسامة فصدقه وكذبهم ... تأول ما تستنكره منه سبعين تأويلاً ... وقال الإمام علي : لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً ، وأنت تجد لها من الخير محملا . » .

ما هذا المنطق ؟ ! يكذب سبعين مؤمناً ، ويصدق واحداً ، بل يكذب سمعه وبصره ، ويصدقه ، وكيف يثبت الإسلام الانساب والاموال ، بل يثبت جريمة القتل بشاهدين ، ولا يثبت كلمة واحدة بسبعين ؟ !

وليس ثمة ما يدعو إلى الغرابة والدهشة إذا علمنا ان الإسلام يحرص كل الحرص على ان يعيش الناس بعضهم مع بعض في أمن ووئام ، وان يتبادلوا الثقة ، ويعاونوا الصالح العام ، ليس من غرابة إذا علمنا ان الانسان لا يمكن ان يحل مشكلاته مع غيره إلا بالطرق السلمية ، وترك الوعيد والتهديد. ولا ان يشق طريقه إلى التقدم الا بالالفة وترك الحزازات والمشاحنات.

ومن أجل هذا دعا الإسلام إلى التجاهل والتغافل عما يؤدي إلى الشغب والخصام . وأمر باليقظة والحذر من اصحاب المصائد والمكائد الذين يسعون في الأرض الفساد ، فلا تكون حياتنا كلها تهاون وتسامح ، او كلها تحقيق وتدقيق ، بل نتسامح مع اخواننا وجيراننا حيث يكون التسامح فضيلة ، ونغضب حيث يكون الغضب مرضاة لله ولرسوله .

قال الجاحظ : قد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين ، فقال : صلاح جميع المعايش والتعاشر ملء مكيال ، ثلثان فطنة ، وثلث تغافل . وإذا تأملنا في قول الإمام نجد الجاحظ « المجرب » على حق في قوله :

﴿جمع صلاح الدنيا بحذافيرها بكلمتين ﴾ .

فليست الدنيا شيء وراء التعايش والتعاشر ، وليس الحق والخير والعدل الا ان يعيش الناس عيشة ترضي الله ، لا نزاع فيها ولا خصام ، بل تعاون واخاء ، ولا بد للتعاون من العلم والحزم ، وللاخاء من التساهل والتسامح . يحيط بالانسان في هذه الحياة حوادث ومؤثرات متنوعة ، فلو سار معها على وتيرة واحدة لكانت حاله كحال من يصف دواء واحد لكل داء !. .. اما من يحذر الماكر الخدّاع ، ويتسامح مع الناس البسطاء فانه يكون طبيباً وحكيماً في جميع حالاته . قال السيد المسيح :

﴿ كونوا حكماء كالحيات ، بسطاء كالحمام ﴾ .

ما اروع الإسلام ! . . . فانه يعطي الدليل في كل حكم من احكامه على انه دين الحق والحياة ، فلقد اثبت الدماء والاموال بشاهدين فقط ، ليردع المعتدين ، ويصون لكل ذي حق حقه . ولم يثبت كلمة الشحناء والبغضاء بسبعين ، بل ولا بالسمع والبصر ، ليبقى على العلاقات الطيبة بين الناس .

الحق يجمع
والباطل يفرق

« قال : إن سرعة ائتلاف الأبرار إذا التقوا ، وان لم يظهروا التودد بألسنتهم كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار ... وان بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف ، وإن طال اعتلافها على مزود واحد » .

يجلس إثنان إلى طاولة القمار ، وهما في صفاء ووئام ، وقبل ان يفترقا بعلو الصياح ، ويشهر السلاح ، ويجتمع اثنان او اكثر على مائدة الخمر والشراب فلا يفترقون حتى ينتهوا إلى شر ، ويختلف اللصوص على توزيع الغنيمة بعد ان تعاونوا على اختلاسها ، وهكذا السياسة فانها في عصرنا كاللصوصية والخمر والميسر ، تجمع في البداية ، وتشتت في النهاية ، فقد اتفقت الكتلة الشرقية والغربية على هتلر حين اراد ان يبتلع الاثنتين ، ولما انتهى امره قامت بينهما الحرب الباردة ، ولم تقعد ، واتفقت امريكا وفرنسا وانكلترا على استعمار الشرق ، ونهب ثرواته ، ثم تناحروا فيما بينهم على قسمة المنهوب ، وتسابقوا إلى السيطرة على الأسواق ، اذن لا جامع ولا وحدة بين المبطلين ما دام كل يهدف إلى منافعه الشخصية .

ان التحالف بدافع المصالح الشخصية لا يعبر عن شيء واقع يمت إلى

الصداقة بشبه ، ان الصداقة مشتقة من الصدق ؛ فهو اساسها ومصدرها ، اما هدفها فالتعاون على ما فيه خير الجميع انها دعامة اجتماعية ، وعامل جوهري من عوامل التطور . فإذا انتجت النفع والربح لطرف ، والتأخر والانحطاط للطرف الآخر . كما نراه في تحالف بعض دول الشرق مع الغرب ، إذا كان الأمر كذلك فهي سيطرة وتبعية ، واستغلال واستثمار .

لقد كشف اهل البيت عن حقيقة الصداقة ، وحددوها للمؤاخاة في الله والبعد عن كل شائبة ، فتحب اخاك لا حباً شخصياً ، بل حباً مبدئياً ، تحبه لما فيه من صفات الكمال ، كالعلم والصدق والاخلاص والوفاء . ويبادلك هذا الحب لنفس السبب ، وعندئذ تكون الصداقة محكمة الاساس لا يتصدع بناؤها ، ولا تنفصم عروتها ، لأنها متصلة بروح الله اتصال شعاع الشمس بالشمس . وبهذا يتبين معنا السر للصداقات المؤقتة التي تختم بالشر . وعداوة الدهر ، لقد كانت صداقة شيطانية . فنجم عنها ما يرضي الشيطان ، ويغضب الرحمان .

وبالتالي ، فما اروع قول الامام ، وان طال اعتلافها على مذود اي معلف واحد ، فانه يصور النفعيين باقبح صورة .

« قال : إذا تلاعن اثنان فتباعد منهما ، فإن ذلك مجلس تنفر منه الملائكة . . . وقال : إذا خرجت اللعنة من فم صاحبها ترددت ، فإن وجدت مساغاً وإلا رجعت على صاحبها . وكتب إلى أصحابه إياكم والسب ، فإن الله يقول : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله . . » .

السب واللعن

وحسبك بهذا دليلاً على براءة الشيعة من تهمة السب واللعن ، وقد عثرت على حديث للامام الرضا حفيد الامام الصادق يكشف فيه النقاب عن سر هذه التهمة ، قال :

ان مخالفينا وضعوا اخباراً في فضائلنا ، وجعلوها على اقسام ثلاثة : احدها الغلو ، وثانيها التقصير في امرنا ، وثالثها التصريح بمثالب غيرنا . فإذا سمع الناس الغلو غالوا فينا . وإذا سمعوا مثالب غيرنا باسمائهم ثلبونا باسمائنا . وقد قال الله تعالى :

﴿ وَلا تَسُبّوا الّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبّوا اللهَ ﴾ .

الانعام ١٠٨

سبوا ولعنوا ، ثم لم يجدوا مبرراً لانفسهم الا ان ينسبوا السب واللعن

إلى الشيعة كذباً وافتراء . ولسنا نعجب مما نقرأه في الوريقات الصفراء عن الشيعة . لاننا نعلم انها بوحي من اهواء السياسية ، غير ان العجب كل العجب ممن يؤمن بها اليوم ، ويتخذ منها مصدراً لاحكامه وآرائه .

قال رجل من الشيعة للامام الصادق : يا ابن رسول الله ان الناس ينسبوننا إلى عظائم الأمور ، وقد ضاقت بذلك صدورنا . فقال له : ان رضا الناس لا يملك ، والسنتهم لا تضبط ، وكيف تسلمون مما لم يسلم منه انبياء الله ورسله واوليائه ؟ ! الم يقولوا : ان ايوب ابتلي بذنوبه ، وان داود عشق زوجة اوريا ، واحتال على اوريا حتّى قتله وتزوج امرأته ؟ ! الم ينسبوا موسى إلى انه عنين ؟ ! بل الم ينسبوا جميع الأنبياء إلى الكذب ، وانهم طلاب دنيا ؟ ! الم يقولوا عن مريم بنت عمران : إنها حملت بعيسى من يوسف النجار ، وان محمداً شاعر مجنون ، وانه هوى امرأة زيد بن حارثة ، ولم يزل بها حتّى استخلصها لنفسه؟! بل الم يقولوا في الله سبحانه ما لا يليق بعظمته ؟ !

الولد البار

« قال : عقوق الوالدين من الكبائر ، ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه ، فيحد النظر إليهما ، وأن يقول لهما ، أف . ولو علم الله عز وجل شيئاً أهون منه لنهى عنه يشير الإمام إلى الآية الكريمة « فلا تقل لهما أف » . وقال له رجل من شيعته : إن لي أبوين على غير ما أعتقد ، فقال : كن براً بهما ، كما لو كانا على ما تعتقد » .

كلنا يعلم ان من حق الولد على والده التعليم والانفاق. وان الآباء يلاقون في سبيل ابنائهم اشد الصعوبات . ولكن الكثير منا يجهل مكانة الآباء ومنزلتهم عند الله . وقد افاض اهل البيت في بيان حقوق الابوين على الأبناء، ووجوب شكرهم وطاعتهم الا فيما يغضب الله سبحانه ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

واكتفي هنا بنقل فقرات من دعاء الامام زين العابدين المذكور في الصحيفة السجادية . وقد روى هذه الصحيفة الزيدية والاثنا عشرية. وهي أثمن تراث اسلامي بعد القرآن على الاطلاق . وما قرأها انسان من اي لون كان الا نقلته إلى اجواء يشعر معها بنشوة لا عهد لاهل الأرض بمثلها. ومنذ اطلعت عليها احسست بدافع قهري يسوقني إلى التفكير في كلماتها ، والكتابة

عنها ، والدعوة إليها . ونشرها بين جميع الطوائف ، فكتبت عنها فصلاً في كتاب « مع الشيعة الامامية » بعنوان مناجاة ، وآخر في كتاب « اهل البيت » بعنوان من تسبيحات الامام زين العابدين ، وثالثاً في كتاب « الإسلام مع الحياة » بعنوان العز الظاهر والذل الباطن . ورابعاً في كتاب « الآخرة والعقل » بعنوان الله كريم . واهديتها إلى عدد من شيوخ مصر وفلسطين ولبنان ، وإلى غبطة البطريرك الماروني بولس المعوشي ، ورأيته بعد الاهداء بأيام ، فشكرني على الهدية فقلت له : ما الذي استوقف نظركم فيها ؟ فقال قرأت دعاء الامام لابويه فترك في نفسي اثراً بالغاً .

ومن الذي يقرأ قول الامام :

﴿ اللّهمَّ اجْعَلْني أهابُهمَا هَيْبَةَ السُّلْطَانِ العَسوفِ ، وَأبرّهمَا بِرَّ الأمِّ الرَّؤوفِ ، وَاجْعَلْ طَاعَتي لِوَالِدَيَّ وَبِري بِهِمَا أقرَّ لِعَيْني مِنْ رَقْدَةِ الوَسْنَانِ ، وَأثْلَجُ لِصَدْرِي مِنْ شربَةِ الظّمْآنِ حتّى أوْثِرَ عَلى هَوَايَ هوَاهمَا ، وَأقدِّمَ عَلى رِضَايَ رِضَاهمَا ، وَاستكثرْ برّهمَا بي ، وَإنْ قلَّ ، وَاستَقِلَّ بِرّيَ بِهِمَا ، وَإنْ كثرَ ﴾

من الذي يقرأ هذا القول ، ولا يترك في نفسه اعمق الآثار ؟ ! . . .

يهابهما هيبة السلطان العسوف مع مخالطته لهما ، ودنوه منهما ، وعلمه بأنهما أرأف به من نفسه . انها هيبة التعظيم والتوقير ، لا هيبة الخوف من الحساب والعقاب ، هيبة الابوة التي لا يقدرها الا العارفون . كانت فاطمة بضعة من النبي ، واحب الخلق إلى قلبه ، ومع هذا كانت تقول : ما استطعت ان اكلم رسول الله من هيبته .

ولا شيء عند الأبوين اغلا واثمن من بر الابن بهما ، على الرغم من انه وفاء لبعض ما لهما من ديون . انهما يسعدان بهذا البر سعادة الغارس بثمرات غرسه ، بل سعادة العالم باكتشاف اسرار الكون . وبهذه السعادة نفسها يشعر الابن البار إذا تأكد من سعادة ابويه به ، ورضاهما عنه . ثم اقرأ معي هذه الكلمات للامام :

﴿ اللّهمَّ وَمَا تَعَدَّيَا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ ، أَوْ أَسْرَفَا عَلَيَّ فِيهِ مِنْ فِعْلٍ ، أَوْ ضَيَّعَاهُ مِنْ حَقٍّ ، أَوْ قَصَّرَا بِي عَنْهُ مِنْ وَاجِبٍ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَهُمَا ، وَجُدْتُ بِهِ عَلَيْهِمَا ، وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فِي وَضْعِ تَبِعَتِهِ عَنْهُمَا ، فَإِنِّي لا أَتَّهِمُهُمَا عَلَى نَفْسِي ، وَلا أَسْتَبْطِئُهُمَا فِي بِرِّي ، وَلا أَكْرَهُ مَا تَوَلَّيَاهُ مِنْ أَمْرِي يَا رَبِّ ، فَهُمَا أَوْجَبُ حَقّاً عَلَيَّ ، وَأَقْدَمُ إِحْسَاناً إِلَيَّ ،

وَأعْظَمُ مِنَّةً لَدَيَّ مِنْ أنْ
أقَاصَّهمَا بِعَدْلٍ ، أوْ أجَازِيهِمَا
عَلَى مِثْلٍ ، أيْنَ إذَنْ يَا إلَهِي
طولَ شغْلِهِمَا بِتَرْبِيَتِي ؟ !
وَأيْنَ شِدَّةُ تَعَبِهِمَا فِي حِرَاسَتِي؟
وَأيْنَ إقْتَارَهِمَا عَلَى أنفسِهِمَا
لِلتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ . هَيْهَاتَ مَا
يَسْتَوْفِيَانِ مِنّي حَقّهمَا ، وَلا
أدْرُكُ مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَهمَا ،
وَلا أنا قَاضٍ وَظِيفَةَ خِدْمَتِهِمَا ﴾.

الحق ما كان لك ، والواجب ما كان عليك ، وكلاهما ثقيل الوطأة ، ومن هنا تفسد العلاقات بين الناس ؛ تقصر فيما يلزمك اداؤه فتمنع مما لك استيفاؤه ، ولكن هذا المنطق لا يجوز تطبيقه بحال على علاقة الابن بالابوين ، فلو افترض ان الابوين تعديا وقصرا في واجبك فان حقهما عليك طبيعي لا يسقطه شيء ، وكبير لا يعادله شيء ، فلقد تحملا الضيق والشدة لتكون في سعة ، والتعب والعناء لتكون في راحة ، والذل والهوان من اجل سعادتك ، وكم رأينا من الآباء ـــ على مكانتهم الدينية ـــ يجرأون على ارتكاب الحرام واقتحام المعاصي من اجل ابنائهم ؟ ! . وبعد هذا كله يتهم الابن اباه في امر من اموره ! . .

ان شباب الجيل المثقف يرون لهم كل حق على الآباء ، ولا واجب عليهم

لاب وام ، واقدم مثلاً واحداً على ذلك من حياة الكاتب الشهير احمد امين المصري ، قال في كتابه « حياتي » :

« كنت امشي على رجلي من بيتي في المنشية إلى الأزهر . واعود من الازهر احمل ما يبهضني حمله ، وكان ابي يعلمني في كتاب . فاصبحت اعلم أولادي في رياض الاطفال . ولا يعجبهم ان يركبوا في الدرجة الأولى في الترام والأوتوبيس ، ويطلبون سيارة خاصة . وكان ابي يضربني على الشيء التافه الصغير فاحتمل ولا اثور ولا اغضب . فصار ابنائي يغضبون من الكلمة الخفيفة . والعتاب المؤدب ، وكنت لا أؤاخذ أبي على حرماني من الضروريات فصار ابنائي يؤاخذونني على حرمانهم من الاسراف في الكماليات . . . » .

وأولاد أحمد أمين هؤلاء منهم من يحمل شهادة الاختصاص في الحقوق ومنهم ليسانسيه في الهندسة . وربما كانوا أخف وطأة على أبيهم من كثير من الاولاد . ونحن مع اعترافنا بان الزمان قد تغير ، وان كل شيء مرده إلى القوانين العامة لحركة التاريخ . واسبابه الاجتماعية فاننا لا نجد سبباً لهذا الغلو الذي نراه اليوم في عقوق الابن لابيه ، ونظره إليه على انه بقرة حلوب . وآلة صماء لتحقق مآربه ، لا سبب لذلك الا الاتكالية ، والا ضعف الهمة ، والا التأنث والتخنث . لذا نجد العصامة والبطولة في بيئة العوز واليتم حيث لا يجد الابناء سبباً للاعتماد على الآباء . ينعى شبابنا على الجمود والرجعية ، وهل من جمود اسوأ من اتكال مخلوق على مخلوق مثله ؟ ! وهل من رجعية أقبح من التبعية ، والسير في ركاب كل من سلب وغلب ، والاندفاع مع الاهواء والمنافع الشخصية .

وبالتالي ، فان لفظ اب يوحي معنى الاحترام والحب ، وكل ابن مسئول عن تعظيم ابيه ، والاخلاص له امام الله والناس والضمير .

« قال : ليس بين الله وبين أحد من خلقه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، لا من دون ذلك من خلقه كلهم إلا طاعتهم له ، فاجتهدوا في طاعة الله إن سركم أن تكونوا مؤمنين حقاً . . . » .

« وقال الإمام علي : إن محاسن الأخلاق صلة بين الله وعباده . . . » .

الشفاعة

نقل الشيعة الامامية عن أئمتهم احاديث كثيرة المعنى تجاوزت حد التواتر ومع هذا نجد من يفتري الكذب على الحق ، وينسب دون خجل ولا حياء إلى الشيعة انهم يعتبرون أئمتهم آلهة او انصاف آلهة .

ان الشيعة يعتقدون ان العمل الصالح هو السبيل إلى مرضاة الله ، وان الصلة بين الله وعباده محاسن الاخلاق كما قال الامام علي ، اما الأئمة في عقيدة الشيعة فهم المفزع في الدين ، والملجأ في معرفة الاحكام ، والحلال والحرام .

وتجدر الاشارة هنا إلى ان المسلمين كافة اتفقوا على ثبوت الشفاعة لنص القرآن عليها ، ثم اختلفوا : هل تكون للعاصين ، او للمطيعين فقط ؟

قال المعتزلة : ان شفاعة النبي (ص) تكون للمؤمنين المطيعين فقط ،

وذلك بأن يطلب لهم زيادة الثواب ، اما العاصون من المسلمين فلا تنالهم الشفاعة ابداً ، واستدلوا بقوله تعالى :

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ، وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ .

غافر ١٨

وقال الشيعة والاشاعرة والمرجئة : ان رسول الله يشفع للعاصي من امته ، وقد جمعوا بين ما دل في القرآن على نفي الشفاعة كالآية السابقة . وما دل في ثبوتها ، كقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ .

الأنبياء ٢٨

جمعوا بينهما بعدم الشفاعة للكفار ، وثبوتها للمؤمنين .

والذي أراه واعتقده ان النبي (ص) لا يشفع لمن ظلم انساناً ، واعتدى على حق من حقوق الناس ، ولا لمن خرج عن الايمان بقول أو فعل ، ويشفع لمن ظلم نفسه ، وتهاون في حكم من الأحكام بينه وبين ربه ، ولم يعتد على احد ابداً بقول أو فعل ، ويشهد لذلك الحديث الشريف « لا ينال شفاعتي رجلان : سلطان عسوف غشوم ، وزناء مارق في الدين » والزاني خارج عن الايمان ، كما جاء في الحديث المتفق عليه بين السنة والشيعة ، وهو « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، فإذا فعل ذلك خلع عنه الايمان كخلع القميص » .

وقد تكلم علماء المسلمين من السنة والشيعة ، وأكثروا حول معنى هذا

الحديث ، وعدوه من المتشابهات والمشكلات ، لانه يدل صراحة على ان الزاني خارج من الايمان ، مع ان المسلمين جميعاً يعاملونه معاملة المسلم من الزواج والتوارث ، والصلاة على جنازته ودفنه في مقابرهم ، ولم أر تفسيراً تركن إليه النفس .

والحقيقة ان من نطق بالشهادتين ، وقال :

﴿ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﴾ .

له اعتباران : احدهما يعود إلى معاملتنا نحن له في الدنيا . والثاني يرجع معاملة الله له في الآخرة ، اما نحن فيجب ان نعامله معاملة المسلم من الزواج والتوارث ، وما إلى ذاك ، مهما تكن افعاله ، ويشهد بذلك معاشرة النبي (ص) مع المنافقين المظهرين للاسلام مع علمه بكذبهم ونفاقهم ، وقوله من قال :

﴿ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ﴾ .

اما معاملة الله له في الآخرة فحكمه حكم من لم يؤمن بالله ، ولا بالرسول ولا باليوم الآخر ، كما صرح الحديث من ان الزاني :

﴿ خَلَعَ عَنْهُ الإيمَانَ كَخَلْعِ القَميصِ ﴾ .

وعلى هذا يكون معنى الحديث الشريف ان الزاني مسلم في الظاهر ، له ماله ، وعليه ما عليه في هذه الحياة ، وكافر في الواقع ، وعند الله يحاسب بحسابه ، ويعاقب بعقابه .

شهداء العقيدة

« قال : إن المؤمن لو قتل ، ثم نشر ، ثم قتل ، ثم نشر لم يتغير قلبه . . . وقال : الحر حر في جميع أحواله ، وان نابته نائبة صبر ، وان تداكت عليه المصائب لم تكسره ، وان أسر أو قهر ، أو استبدل باليسر عسراً . . . » .

ان تاريخ الشهداء تاريخ عقيدة ، وتمسك بالمبادىء ، ولولا دماء الشهداء لم يكن للاسلام عين ولا أثر ، وهكذا كل عقيدة كتب لها البقاء . قال غوستاف لوبون في كتاب الثورة الفرنسية : لقد ساعد الاضطهاد على انتشار مذهب البروتستان ، ونتج عن قتل كل واحد اعتناق للمذهب الجديد ، وقد اوجب القتل والحرق بالنار ازدياد عدد البروتستان اكثر من الكتب والخطب .

ويصح هذا القول في مذهب التشيع ، فلولا مذبحة كربلاء واستشهاد حجر بن عدي ، ورشيد الهجري ، وعمر بن الحمق ، وكميل بن زياد وغيرهم لما كان لاهل البيت من هذا الولاء الذي تدين به الملايين ، اما دور العلماء والخطباء في تأييد المذهب فانه كبير ، ولا شك ، ولكنه يكون اعظم وابلغ تأثيراً إذا كان تمجيداً لدماء الشهداء بانفسهم ، وقدموا رؤوسهم ، ولم يقدموا دينهم ، وما ذاك الا لانهم اصغوا إلى نداء الحق اكثر من اصغائهم

إلى منافعهم الذاتية . واغراضهم الشخصية . ان المنافع تبلى وتزول . اما الحق فهو ثابت لا يتغير . وكذلك المؤمنون المخلصون لا تتغير قلوبهم . وان قتلوا ثم نشروا ، ثم قتلوا ، ثم نشروا لانهم المظهر الصحيح لعظمة الحق ورسوخه . وتبرز هذه الحقيقة في اكمل معانيها بقول مسلم بن عوسجة للحسين يوم الطف : « اما والله لو علمت اني اقتل ، ثم احيا ، ثم احرق ، ثم احيا ثم اذرى في الهواء . يفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك . ويقول زهير ابن القين : « وددت اني اقتل ، ثم انشر ، يفعل بي هكذا الف مرة ، وان يدفع الله عنك القتل بذلك .

والملاحظ ان اصحاب العقيدة والايمان في كل عصر يلاقون اشد العنت والبلاء من السفهاء الاراذل . ذلك انهم لا يداررون ولا يمارون . ويجهرون بالحق ، ولا تأخذهم فيه لومة لائم . ولا شيء اثقل على المبطلين من كلمة الحق واهل الحق ، فما رأوا محقاً الا ارغوا وازبدوا ، وابرقوا وارعدوا ، وملأوا الدنيا صياحاً وضجيجاً ، لانه لا يباركهم على ضلالهم ، ولا ينسج على منوالهم .

ومن قبل تعرض الانبياء للنباح والانياب السامة ولاقذر الاتهامات ، فحزنوا وضاقت صدورهم بخصوم لا دين لهم ولا ضمير ، فعزاهم الله سبحانه وامرهم بالصبر وعدم المبالاة . قال عز وجل مخاطباً نبيه العظيم :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

الحجر ٩٧

أي سر في طريقك ولا تكترث ، فشأنك التسبيح والسجود لله ، وشأنهم النهش والنباح ، وكل يعمل على شاكلته .

وخاطبه مرة اخرى بقوله :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لا يَكْذِبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

الانعام ٣٣

فهم لا يكذبون الرسول بالذات : وليست لهم اية عداوة مع شخصه ، وانما هم اعداء الحق الذي يؤمن به ، ويدعو إليه . وتعبر هذا الآية بجلاء عن واقع نشاهده ، ونلمسه كل حين ، وتجيب عن تساؤل طالما كررناه بدهشة وحيرة بيننا وبين انفسنا : لماذا يتعمد « هؤلاء » الاساءة إلينا دون ان نتعرض لهم بسوء ؟ ! فكشف الآية عن السر ، وانه عداء الرذيلة للفضيلة ، والجهل للعلم ، والامانة للخيانة . . .

عرفت موظفين يعملان في دائرة واحدة من دوائر الحكومة ، احدهما مرتش خائن ، والآخر نزيه امين ، وكان هذا الأمين اثقل على الخائن من قاتل ابيه ، لا يدع الدس عليه ، والكيد له بحال ، لا لشيء الا لان وجوده بجانبه يلفت الانظار إلى مساوئه ، ويسبب افتضاحه واحتقاره .

وهكذا يبتلي الطيبون الاخيار بالسفهاء الاشرار ، وعلى قدر تمسك اهل الحق بالحق وتشددهم فيه يتهيأ ويتعبأ المبطلون والمحترفون ، وبهذا نجد تفسير قول الصادق :

﴿ أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم
الذين يلونهم الأمثل فالأمثل ﴾ .

وختاماً اكرر القول مرة ثانية ان ما قدمته إلى القراء في هذه الاوراق لا يعد شيئاً بالقياس إلى آثار الامام الصادق . وكلماته الموجودة فعلاً بين ايدي الناس ، والمبثوثة في كتب التفسير والحديث والتشريع والاخلاق والسير والتراجم وغيرها ، وان ما ذكرته في تفسير بعض ما نقلت منها ليس شرحاً ولا تفسيراً ، بالتعليق على الهامش ، او بتعريف علم تستغرق ابحاثه المجلدات ، تعريفه وانما هو شبه بالفاظ لا تتجاوز عدد الاصابع . وبديهة ان الانسان انما يستطيع الكلام فيما يعلم . وبديهة ان الانسان انما يستطيع الكلام فيما يعلم . وما خطر علمي حتى يحيط بمقاصد اهل البيت ؟ ! . . . وكيف اطمع في بلوغ هذه الغاية ، وانا على يقين انه لو تصدى جميع العلماء — على كثرتهم وتنوع علومهم — إلى دراسة ما ترك اهل البيت من آثار لوجدوا مورداً خصباً وينبوعاً لا ينزف ولا يدرك غوره ، ولا مضوا السنين الطوال في دراساتهم ، وخرجوا للناس مئات المجلدات في شتى العلوم والمعارف ، ثم لا يبلغون من فيضهم الا قليلاً ينكر هذه الحقيقة الا من ذهل عن نفسه وجهله بمنزلة علي وابنائه واحفاده الأئمة الاطهار ، سلام الله وصلواته عليه وعليهم .

بين الله والإنسان

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

أنا وأنت :

أنا أكتب ، وأنت تقرأ . وكل منا يتأثر بالآخر . ويؤثر به ، أنا أتأثر بك ، لانك بايمانك . وحسن اقبالك على ما اكتب خلقت فيّ الشعور بأني مسؤول عنك ، وان عليّ ان انصحك وأدلك على الحق والخير . وان وقتي الذي احرص عليه كل الحرص ، وعملي الذي لا يعرف التوقف والركود هو لي ولك . ونحن فيه شركاء .

وانت تتأثر بي . لأني بسهولة التعبير . والبعد عن التعقيد المنفر . والحرص على الحقيقة استطعت — بحمدالله — ان اثير رغبتك في قراءتي ومتابعتي . واحملك من حيث تريد او لا تريد على انتظار ما تخرجه لي المطابع بين فترة ، وفترة . . .

قال حكيم قديم :

﴿ من لم يكتب ولم يقرأ خسر العمر كلّه ﴾

فإذا عكفت انا على الكتابة . وانت على القراءة ربحنا معاً العمر كله . . . وبديهة ان الكاتب يكتب حين يجد القارىء . تماماً كالخطيب يخطب حيث

يوجد الجمهور . والقاريء انما يقرأ ، حيث يجد الفائدة والمتعة ، كالظمآن يشرب الماء ، حيث يجده عذباً فراتاً .

وأنت تعرفني – ايها القاريء – بكتابي هذا وغيره ، وأنا لا اعرف عنك شيئاً ، ولكني احبك كثيراً ، لا لأن قرائي يزدادون بك واحداً . بل لاني بقراءتك أحصل على تأشيرة الدخول إلى الجنة واياك إذا انتفعت بما قرأت . واخذ بك في سبيل الهداية والرشاد . واسأل الله لك ولي العمل بما نعلم .

واحسب ان الله سبحانه قد أراد لك ولي الخير . . . أراد الخير لك ، حيث صرفك عن الخمر والميسر ، والكتب الجنسية . والقصص الخلاعية ، والروايات الاجرامية إلى هذا الكتاب . وما إليه مما يتجه بك إلى الله سبحانه . ويغرس في نفسك بذور الايمان والخير والفلاح .

وأراد لي الخير ، حيث ابعدني عن الخمول والكسل إلى الكتابة والتأليف في العقيدة والفضائل والفقه والاخلاق . . . وقد دلتني التجارب الكثيرة المتكررة ان الانسان لو جمع علوم الاولين والآخرين . وبلغ من الذكاء ما بلغ ، وتوفرت له الرغبة والعافية والرفاهية لايستطيع القيام بأي عمل فضلاً عن تأليف كتاب ، أو وضع مقال إذا لم يحالفه التوفيق والعناية الإلهية .

الغرض من هذا الكتاب :

ليس الغرض من هذه الصفحات التسلية والترفيه عن النفس القاريء ، ولا الكشف عن نظرية جديدة لا يعرفها الاولون . وانما الغرض ان يتذوق القاريء حلاوة الايمان وعذوبته بالتوجه إلى الله . والثقة به ، والتوكل عليه والرجاء لثوابه ، والخوف من عذابه . الغرض ان يصبح القاريء فاضلاً متسامياً في اخلاقه ، صالحاً تقياً في اعماله ، صادقاً في نواياه ومقاصده .

ولا شيء يحقق هذه الفضائل ، ويضمنها للانسان كتعاليم أهل البيت (ع) ومقاييسهم التي ترتكز على كتاب الله وسنة جدهم رسول الله (ص) . ولاجل هذا اقتطفت جملاً من مناجاة الامام زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية ، ومضيت في شرحها ، وتحليلها مع الفطرة دون تعسف وتكلف . ولو تهيأت لي ثقافة اشمل ، وذوق اكمل لكشفت عن جوانب منها اسمى واعظم ، على اني اعتقد جازماً بأن اي انسان كائناً من كان لا يستطيع ان يبلغ الغاية من اسرارها وكنوزها .

أقسام الكتاب :

سبق ان كتبت ونشرت كلمات متفرقة حول مناجاة الامام زين العابدين (ع) ، ثم احسست بالرغبة في جمعها بكتاب لتكون الفائدة أتم وأكمل ، ولكني رأيتها لا تتجاوز خمسة او ستة فصول ، فكتبت نحو عشرين فصلاً جديداً ، لم انشر منها شيئاً من قبل . واضفتها إلى تلك ، واخرجتها مجتمعة في هذا الكتاب . وقسمته إلى ثلاثة اقسام : البرهان على وجود الله ، وبقاء الروح بعد الموت بأسلوب جديد يخالف الأسلوب الذي اتبعته في مؤلفاتي السابقة ، القسم الثاني . يشتمل على الفصول التي لم تنشر من قبل في صحيفة او كتاب ، القسم الثالث جمعت فيه ما سبق ان نشر ، مع العلم بأن الثاني والثالث من المناجاة ، وان الاقسام الثلاثة يربطها رابط واحد ، ويجمعها جامع واحد .

نصيحة :

إذا أردت هداية من تحب ، او تخشى على دينه وخلقه من تيارات الفساد والالحاد فاحمله بكل سبيل على قراءة هذا الكتاب . فان فيه حوادث ووقائع من حياة الناس تحمل الانسان تلقائياً على الإيمان بالله ؛ وخلود الروح وبقائها حية بعد الموت ،

هذا ، إلى ان فصوله الاخرى تبعث الانسان على العمل بوحي هذا الايمان من حيث لا يحس ولا يشعر .

والله سبحانه المسؤول ان يوفقنا جميعاً إلى طاعته ؛ ويشملنا برحمته . انه خير مسؤول . وصلى الله على محمد وآله الأطهار .

القسم الأول

في وجود الله وخلود الروح



كيف آمنت

استجبت – اول ما استجبت – إلى دين آبائي وأجدادي تماماً كما استجبت إلى لغتهم ، وعاداتهم ، وكل ما يتصل بحياة البيت الذي عشت فيه من قيم ومعايير ومثل .

لقد آمنت تلقائياً دون ان يكون لي الخيار في القبول ، او الرفض ، وفي التبديل ، او التعديل . . . ولست أقصد بالاستجابة – هنا – التقليد ، بل أقصد معنى وراء التقليد ، واكثر منه ، وأقصد معنى يشبه الامتصاص والتقمص إن صح التعبير . . . لأن التقليد يؤاخذ عليه صاحبه . ويلام . والطفل لا يؤاخذ بشيء ولا يلام على شيء .

كانت أمي ، وهي من بيت علم ودين ، تردد في كلامها كثيراً اسم الله ومحمد وعلي وفاطمة وحسن وحسين . فإذا تحركت حركة تخافها عليّ ، او عطست ، وما أشبه قالت : الله . . . وإذا نظرت إليّ امرأة تخشى من عينها رفعت صوتها بالصلاة على محمد وآل محمد .

ولم يقف الأمر بوالدتي عند هذا الحد ، بل كانت تلقنني أسماء الله والنبي والأئمة الأطهار ، تماماً كما هو شأن الأمهات المؤمنات . . . ومنذ القديم أدرك شاعر امامي انه مدين لامه بهذا الولاء ، فأنشأ يقول طالباً لها من الله العفو والغفران :

لا عذب الله أمي انها شربت حب الوصي وغذتنيه باللبن
وكان لي والد يدعى أبا حسن فصرت من ذا وذي أهوى أبا حسن

أما والدي فقد كان لا يهتم بشأن من شؤوني كما يهتم بتنشئتي على الدين والولاء لأهل البيت (ع) . . . فقد كان عالماً من علماء الدين مهمته وهمه غرس التقوى والولاء في النفوس مؤمناً بهذه المهمة كل الإيمان : مخلصاً لها كل الاخلاص ، وكان رقيق الشعور ، مرهف الحس ، سخي الدمعة ، وتروى عنه في ذلك حكايات ، منها انه حضر مجلساً لتعزية أبي عبد الله الحسين (ع) . وما ان افتتح القاريء كلامه بقوله :

﴿ صلى الله عليك يا رسول الله ،
صلى الله عليك يا أبا عبد الله ﴾ .

حتى أخذه الحزن ، وأجهش بالبكاء ، فقال له أحد الظرفاء من أهل المجلس :

﴿ طوّل روحك ، حتى نعرف
الحق على من ؟ . . ﴾ .

وإذا كانت مهمة أبي غرس الولاء في النفوس فبالأولى أن يهتم بطفله ، ويبذل كل جهد لغرس هذا الولاء وتنميته في نفسه . . . وما زلت أذكر ان أول بيت حفظته من الشعر هو للشيخ الأزري من قصيدته الأزرية الشهيرة وهذا هو :

ملك شد أزره بأخيه فاستقامت من الأمور قناها

وأبي هو الذي أغراني بحفظه بقطعة من النقود ، وكان لي يومذاك ست من العمر . وأعتقد جازماً أن حفظي الأول لهذا البيت في مديح علي أمير

المؤمنين : وسيد الوصيين . وترداددي لكلامه ، وأنا ابن ست سنين كان له أبلغ الأثر في حياتي المقبلة ، فقد كان ولا شك مفتاح الخير ، وسر التوفيق رغم اني حفظته كالببغاء ، تنطق ، ولا تدرك .

وإن لم يكن لأبي عليّ سوى هذه اليد الكريمة العظيمة التي جعل الله فيها خيراً كثيراً لوجب عليّ أن أبره وأشكره . . . فعليك من الله الرحمة يا أبتاه ، وخصك بالمغفرة والرضوان ، وحشرك مع الأئمة الأطهار أنت وجميع الآباء والأمهات الذين يغرسون في نفوس أبنائهم الحب والولاء للنبي وآله الهداة .

وكان أبي — أحسن الله إليه — يأمرني إذا شربت الماء أن أقول : الحمد لله ، ولعن الله من ظلمك يا أبا عبد الله ، ومنعك شرب الماء ، وكان يردد على مسمعي صباح مساء أسماء الأئمة الاثنا عشر ، حتى اطمأن إلى حفظي لها على الترتيب . كما كان يصحبني معه إلى مجالس التعزية ، وزيارة المشاهد المشرفة ، وصلاة الجماعة .

وما زلت أذكر أنه حضر في ذات يوم أحد المجالس لتعزية الحسين (ع) في قرية العباسية . فتجمع أطفال القرية ، وجلسوا في الطرف ، فحاول أحد الحاضرين أن يطردهم ، فزجره أبي ، وقال له : دعهم يتمرنوا ويعتادوا .

وكان من نتيجة هذه التربية أن صار الدين والولاء في نفسي كطبيعة أصيلة ، لا شيء مكتسب ، وحين بلغت سن المراهقة والتمييز كنت أعتقد أن الحق والعدل لا يوجدان إلا في القرآن ، وعند النبي وآله الكرام .

وتأكد هذا الشعور أكثر فأكثر بعد أن ذهبت إلى النجف الأشرف لطلب العلم . . . فما وقع بصري ، وأنا فيها إلا على شعائر الدين ، ومظاهر الولاء . . .

فمن الأذان إلى الصلوات والعبادات ، إلى تلاوة القرآن ، والأدعية والأوراد ، ومن الزيارات إلى مجالس التعزية والوعظ والإرشاد ، وحلقات الدرس عند الأتقياء الأبرار .

إلى هنا ، ولا سبب لإيماني إلا عقيدة آبائي التي ولدت عليها ، وإلا البيئة التي عشت فيها ، وبعد أن اتسعت مداركي ، واستطعت أن أتفهم وأهضم أدلة المتكلمين والفلاسفة الآلهيين ، وبعد أن تقدمت في الدراسة ، واطلعت على تلك الأدلة أصبح إيماني عن بينة وعلم بعد أن كان عاطفياً محضاً ، أو تقليداً أعمى .

إن وسائل الإيمان معدة لكل طالب وراغب ... إن الله سبحانه إذا أرسل إلى عباده رسولاً ، وأمرهم بإطاعته واتباعه وجب أن يعززه ، ويؤيده بالأدلة القاطعة على نبوته ، فبالأحرى إذا دعاهم إلى الاعتراف بربوبيته أن يفتح لهم أبواب العلم بها ، ويمهد السبل إلى معرفتها ، وقد يسر الله سبل الإيمان به ، حتى كادت تلحق بالبديهيات ، للذين لم ينحرفوا عن جادة العقل السليم ، والفطرة الصافية .

ولا تنحصر هذه السبل بأدلة المتكلمين والفلاسفة ، بل يجدها الناظر في العالم بجملته ، وفي نفسه ، وفي الجماد والنبات ، والحيوان ، وفي كل ذرة في الأرض والسماء ، وفي كل خلية وجزء من جسم حي ، وغير حي ... يجد هذه الأدلة كل إنسان ، سواء أكان عالماً ، أم جاهلاً ، صالحاً ، أم طالحاً ، على شريطة أن يكون من طلاب الحقيقة ، لا من مدعيها جهلاً وغروراً .

ومن هنا ، ولأجل توفر هذه الأدلة والبراهين على وجود الخالق لا عذر

عند الله جل وعز لمن يجحده وينكره كائناً من كان . أما الأصول الأخرى فيعذر فيها المخالف إن عجز عن النظر والاستدلال . أما إذا قدر فأهمل . أو نظر نظرة ناقصة غير كاملة فهو غير معذور بحال .

وبكلمة أن القادر المقصر مسؤول . والعاجز القاصر لا شيء عليه . إن الله سبحانه يؤاخذ الناس بقدر ما وهبهم من العقل والاستعداد. ولا يكلفهم فوق ما يطيقون .

ومهما يكن ، فان موافقة الآباء والأمهات فطرة في الإنسان ، أو أشبه بالفطرة ينساق وراءها من غير شعور . ولا يتحرر منها إلا من اتسعت مداركه ، وتقدم في الوعي والعلم ؛ على أن تحرر العلماء على خطر ؛ حيث يرى أكثرهم أن الحق والعدل فيما كان عليه أبواه دون غيرهما . . . ولكن إذا أراد الله سبحانه بعبده خيراً هيأ له الأسباب عالماً كان أو جاهلاً ، شاباً أو شيخاً . . . وليس من شك أنه جل وعز لا يخيب من أخلص النية ؛ وتجرد لطلب الحقيقة .

في ذات يوم جاءني شاب في مقتبل العمر ، وقال : إني في طريق الهداية ، وكنت قبلاً من الضالين ، وقد أتيتك لأقتنع نهائياً . أو أحب أن أسمع من فمك .

فقلت له : هل أنت طالب ، أو انتهيت من دراستك ؟

قال : في هذه السنة حصلت على الثانوية . وعزمي على المتابعة والتخصص .

قلت : تخصص بماذا ؟

قال : في الطب .

قلت : ان من الإنسان الأسود والأبيض والأصفر ، والطويل والقصير ، والذكي والبليد ، والذكر والأنثى ، أليس كذلك ؟

قال : أجل ، بالبديهة .

قلت : لو اجتمع العلماء والأطباء ، وفحصوا وحللوا بويضة المني التي يتولد منها الإنسان هل يستطيعون التمييز بين بويضة الأسود والأبيض ، وبويضة الطويل والقصير ، والذكر والأنثى ؟ بحيث يتنبأون ان هذه البويضة يتكوّن منها الأسود ، وتلك يتكوّن الطويل ، وهكذا . . .

قال : كلا .

قلت : إذن ، لا سبب إلا إرادة الله ومشيئته .

قال : ان كثيراً من العلماء والفلاسفة يحصرون سبب المعرفة بالتجربة ، ولا يؤمنون بغيرها ، ويعدون دليلك هذا ، وما إليه مجرد نظرية ، والنظرية لا تكون عامية ، حتى تثبتها التجربة .

قلت : لا بد للتجربة من دليل يدل على صحتها ، وأيضاً لا بد أن يكون هذا الدليل غير التجربة ، لأن الشيء لا يكون دليلاً ومدلولاً من جهة واحدة ، وفي آن واحد ، ولا دليل على الأخذ بالتجربة إلا العقل ، وعليه فلا يكون سبب المعرفة منحصراً بالتجربة ، فان هناك العقل ، وهو أقوى منها ، لأنه الدليل على صحتها ، ولولاه لم تكن شيئاً مذكوراً .

ثم ان الذين لا يؤمنون بالتجربة يناقضون أنفسهم بأنفسهم ، حيث ينفون وجود مدبر لهذا الكون دون أن يستندوا في نفيهم هذا إلى التجربة ،

أو إلى شيء يركن إليه [1] هذا ، إلى أن التجربة والعلم أعجز من أن يحيط بالكون وما يزخر به من عجائب وأسرار ، فضلاً عما وراءه إذن لا بد من العقل والوحي لمعرفة ما لا يناله الحس والتجربة .

ثم ذكرت للشاب ما حضرني من أقوال الفلاسفة والعلماء ، منها أن رجلاً قال لسقراط : لماذا لا نرى الله ؟ .

فقال له سقراط : وأنت أيضاً لا ترى روحك التي تتسلط على أعضائك فهل معنى هذا أن تقول : ان أفعالك صادرة عن اتفاق . وبدون إدراك ؟ . .

ومنها ما قاله أحد العارفين : لو افترض أن الرجل وجد صدفة فهل وجدت المرأة التي توافق الرجل صدفة أيضاً ، لتعمر الأرض بالسكان ، ويدوم فيها النسل ؟ .

ومنها قول فولتر :

﴿ إذا كان أمام الفكرة في وجود الله عقبات ، فإن في الفكرة المضادة حماقات ﴾ .

وقلت له فيما قلت : ان تقدم العلم أفاد الدين كثيراً بخاصة فيما يعود إلى إثبات الخالق ، حيث أصبح بوسع الإنسان أن يستعين على ذلك بالوسائل العلمية . ويعرف هذه الحقيقة من يقرأ كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » .

---

(١) وقد رأينا علماء الطبيعة يؤمنون بشيء عن طريق التجربة بزعمهم . وبمرور الأيام ثبت بالتجربة أيضاً أنهم على خطأ ، ومثال ذلك انهم قالوا : الفضاء مملوء بالأثير الذي لا يرى ، والآن وبعد النظرية النسبية آمنوا بأن الفضاء فارغ من الأثير وغير الأثير « مجلة المجلة المصرية عدد أيلول سنة ١٩٦٢ » .

وختمت كلامي بأن الإسلام لم يدعو إلى الإيمان تقليداً ، بل نعى على الجهال والمقلدين . ودعا إلى التفكر . وإنعام النظر أولاً وقبل كل شيء ، ثم الإيمان بوحي العقل والضمير ، ولا أحد ينكر على الإسلام دعوته هذه ، أو ينكر ضرورة الاحتكام إلى العقل والفطرة ، إن كان من أولي الألباب :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾
القمر ٤٠ .

فخرج الشاب ، وهو إلى الإيمان أقرب ، ولله الحمد . وفضلاً عن الأدلة العامة على وجود الله سبحانه فان هناك تجارب وحوادث شخصية تحصل لكل إنسان لو تنبه إليها ، وبحث عن سببها الحقيقي لم يجد سوى إرادة الله ومشيئته .

وقد حصل لي أكثر من تجربة خاصة في التدليل على أنه لا راد لما أراد جل وعز .

من ذلك أني كنت عازماً على شيء ، ولا عائق أو حاجز يصدني عنه ، وما أن هممت ، حتى غاب عن ذهني ما قصدت إليه كأنه لم يكن .

وفي ذات يوم ذهبت إلى بيت رجل أعرفه ، ويعرفني : قصدته لأكلفه بأمر يهمني ، ولما دخلت عليه رحب . واستقبلني بما أحب . ولكني نسيت الغرض الذي زرته من أجله . والغريب أنه عرض عليّ خدماته ، وقال : إني على استعداد لكل ما تأمر . فغاب عني كل شيء ، وقلت : شكراً ، وخرجت . . . وبعد خروجي ذكرت ما كان من أمري فعجبت ، ولم أجد تفسيراً إلا إرادة الله ومشيئته .

وكم عزمت على أمر عزماً لا يصدني عنه إلا الموت ــ فيما كنت أحسب ــ وإذا بالعزم يتبخر بدون سبب ظاهر ، والسلام على أمير المؤمنين ، حيث قال :

﴿ عرفت الله بفسخ العزائم ﴾ .

ومن ذلك أنه لو قال لي قائل – وأنا يتيم أبحث عن لقمة العيش ببيروت –: ستذهب إلى النجف ، وتكون فيها طالباً ناجحاً . لقلت : إنه يسخر مني .

وأيضاً لو قال لي – وأنا في النجف أعيش فقيراً بائساً – : ستذهب إلى لبنان ، وتبني لك بيتاً ، وتعيش بلا ديون وعناء . لقلت : أضغاث أحلام .

ولو قال لي بعد أن تم هذا : ستكون مؤلفاً ناجحاً ، يقبل القراء على ما تكتب ، وتعيد طبع ما تؤلف ثانية ، وثالثاً ورابعاً ، في أمد قصير ، وتتسابق دور النشر إلى مؤلفاتك ، وتدفع لك أتعاب التأليف سلفاً ، وأكثر من المعتاد . لقلت : خيال أطفال .

وقد تم ذلك كله ولله المنة والحمد ، حمداً يبلغ رضاه ، وشكراً يليق بعظمته وعلاه . . . وبالتالي ، فلا تفسير لشيء من ذلك إلا إرادة الله ومشيئته جل وعز . . .

الله وأنت

الإيمان بالله قديم :

إن جميع الآراء والمعتقدات ، والمبادىء والنظريات وجدت بعد وجود الإنسان بزمن قصير أو طويل إلا معتقداً واحد فقط لا غير . فانه وجد مع الإنسان منذ اللحظة الأولى لإدراكه ومعرفته . ولم يفارقه بحال ، وسيبقى معه أبد الآبدين . وهذا المعتقد هو الإيمان بالله ، فما نقل مؤمن ولا جاحد ان فترة من الزمن مرت بالإنسانية دون أن يوجد فيها واحد غير مؤمن . . . مع العلم بأن جميع الآراء والمعتقدات . أو أكثرها حتى البديهيات [1] قد حدثت بعد وجود الإنسان بزمان ، ما عدا الإيمان بالله . فانه كان . وما زال الهدف الذي يتجه إليه الإنسان بفطرته في جميع أدوار التاريخ . والاختلاف إنما هو في الأسلوب . وفي تصور الذات والصفات اما أصل الفكرة فقديمة بقدم الإنسان نفسه .

ومن هنا كان مبدأ الإيمان بالله أقدم من العلوم والفلسفات ، ومن الآداب والفنون ، وفي الوقت نفسه هو مبدأ عالمي تعتنقه الملايين في كل

---

(١) ان كثيراً من الحقائق لم تبلغ درجة الوضوح إلا بعد التجربة المتكررة كقولنا : وجود الدخان يدل على وجود النار ، ووجود النهار يدل على طلوع الشمس ، وما إلى ذلك فانه لولا التجربة لما كان بديهياً ، أجل ، هناك حقائق بديهية بالذات ، لا بالواسطة ، كقولنا : هذا إما موجود ، وإما معدوم .

زمان ومكان ، وفي كل عنصر ولون . وقد يوجد إنسان لا يؤمن بالله في قارة من القارات . أو في زمن من الأزمان . أو في لون من الألوان . أما أن لا يوجد مؤمن واحد إطلاقاً فلم يقل به قائل . أو يهزل به هازل .

العالم مع الدليل :

العالم واحد من ثلاثة اما أن يثبت عنده الدليل على وجود الشيء فيعتقد بوجوده . واما أن يقوم الدليل على عدمه فيعتقد بالعدم . واما أن لا يكون دليل على الإيجاب والسلب فيشك . ولا يعتقد بشيء ، فعليه والحال هذه ، أن يبحث ويفحص عن الدليل . . . اما من يجزم بالعدم لا لشيء إلا لعدم الدليل على الوجود فهو جاهل . . . لأن عدم الدليل ليس بدليل على العدم الواقع . إذ قد يوجد ، ولم نطلع عليه .

وإليك هذا المثال : إذا دخلت داراً . ورأيت فيه إنساناً جاز لك أن تقول : في الدار إنسان . وإذا دخلته . ولم تر أحداً . ولم تسمع صوتاً صح منك القول : ليس في الدار إنسان . وإذا لم تدخل الدار قط فليس لك أن تثبت أو تنفي . وإنما عليك أن تبحث وتسأل العارفين . فاذا اثبتَ وجود الإنسان ، أو نفيته من الدار . والحال هذه ، فأنت جاهل متسرع .

ومن هنا لم يدع احد وجود بينة علمية على عدم وجود الله . لان اقامة هذه البينة اكثر من محال — ان صح التعبير —اذ لا شيء خطير او حقير يدل على ان الله غير موجود ، إذا لم نقل بأنه يدل عليه بالذات — اذن — لا أحد احمق ممن ينفي وجود الله ، او يدعي وجود البينة على النفي . . . حتى المشكك المتوقف لو ألقى نظرة واحدة بتأمل وامعان على أي شيء يمر بعالمه لتحول شكه إلى يقين ، وتردده إلى ايمان بالله القدير العليم .

أيها المشكك :

ايها المشكك المتردد في وجود الله الق نظرة واحدة على ما شئت من هذا العالم خطيراً كان أو حقيراً . وتأمله جيداً . فسيكشف لك عن وجود الله بجلاء . على شريطة ان تأخذ على عاتقك مسئولية البحث بجد وعناية . . . ولا جشمك التأمل في الخطوط العريضة. والادلة العامة على وجود الله من خلق السموات والأرض . ولا اعمال الفكر في الاقيسة المنطقية . والالزامات العقلية. كما فعلت في كتاب « الله والعقل » وكتاب « فلسفة المبدأ والمعاد » . لا أجشمك شيئاً من ذلك . وانما ارغب إليك ان ترجع إلى تاريخ حياتك . وتلقي نظرة على ما مر بك من احداث خاصة . فسترى اشياء واشياء لا تجد ذا تفسيراً الا بوجود الله وارادته تباركت اسماؤه . . . فانه جل وعز قد اعطى كل نفس ادلة خاصة على وجوده لا يشاركها فيها احد. تماماً كبصمة الابهام. وملامح الوجه التي تميزه عن الناس اجمعين . حتى عند والده وولده. هذا ، بالاضافةإلى الأدلة العامة التي يشترك فيها العقلاء على السواء .

من الأدلة الخاصة :

وبقيت امداً غير قصير ابحث عن هذه الأدلة والأمثلة في حياة الناس . واتتبع الكتب والصحف . حتى اطلعت على الكثير :

منها ان شاباً من صعيد مصر تزوج فتاة ، وبعد الزواج بتسعة اشهر ولدت طفلين . وبعد فترة قصيرة حملت ووضعت طفلين آخرين . فأصبح في البيت اربعة اطفال في اقل من سنتين . وسرعان ما حملت للمرة الثالثة . وكان الزوج فقيراً رقيق الحال . فاستشاط الأب غضباً . وخاف ان تلد طفلين . ويحتوي

بيته على ستة اطفال . . . فأقسم بالطلاق إذا ولدت هذه المرة اثنين . وبكت المرأة بكاء حاراً خوفاً من الفراق . ولكنها ما اتمت اشهر الحمل . حتى ولدت ثلاثة اطفال [1] .

وأصبحت اليمين لغواً ، لأنها وقعت على اثنين ، فجاءت المرأة بثلاثة . . . وماذا صنع الرجل بعد هذه التجربة ؟ . . انه عاد إلى رشده ، ورجع إلى ربه وقال : انك يا إلهي لاتضاد ولا تعاند . فاستغفرك . واتوب إليك . وكان من نتيجة انابته وتوبته ان اغدق الله عليه ألواناً من الرزق والخير . من حيث لا يحتسب .

و « منها » : ان فتاة غريبة ، اسمها « ماي باولز » [2] خلقت كسيحة لا تستطيع المشي . وقد احبها ابن الجيران ، وتقدم لخطبتها ، وأسرعت الفتاة لامها تزف البشرى . ولكن الأم اغرقت في البكاء ، لان الاطباء قالوا لها : ان ابنتها إذا تزوجت فلن ترزق بأولاد ، وانها ستعيش طوال عمرها عاقراً . . . فقالت الأم لابنتها : يجب أن تصارحي الشاب بهذه الحقيقة .

وقالت الفتاة : ولكني سأصلي كل ليلة ، وأطلب من الله ان يمنحني اولاداً.

قالت لها الأم : لا تتعلقي بآمال كاذبة ، لقد أكد أكبر الاخصائيين انك ستعيشين عاقراً ، ومن السذاجة ان تتشبثي بالسماء . يجب ان يعرف خطيبك الحقيقة كاملة .

وصارحت الفتاة الشاب برأي كبار الاخصائيين ، فأصر على الزواج .

---

(١) كتاب مقارنة الأديان لأحمد شبلي ج ٣ .

(٢) جريدة الأخبار المصرية عدد ٢٤ أيار سنة ١٩٦٤ .

وبعد ان تم كانت الكسيحة تدعو ربها في كل ليلة ، وتقول : إلهي حرمتني نعمة المشي ، فهل يرضيك ، ان تحرمني نعمة الأمومة التي تتمتع بها ملايين الامهات اللائي يمشين على اقدامهن ؟ . اتعطي غيري النعمتين . ولا تعطيني واحدة منهما .

واستمرت تدعو هذا الدعاء من اعماق قلبها مدة اربعة عشر عاماً لا تكل ولا تمل ، ولا تفتر ولا تقنط وتيأس . وبعد هذه السنوات الطوال وضعت ثلاثة اولاد في حمل واحد . وعاشوا جميعاً بكامل الصحة والعافية .

و « منها » : ان رجلاً لبنانياً هاجر قبل الحرب العالمية الأولى إلى اميركا طلباً للرزق كغيره من اللبنانيين ، ولدى وصوله إليها لم يجد وسيلة للعيش الا ان يحمل بعض الأدوات الخفيفة كالمحارم وفرشاة الاسنان ويتجول في الأسواق والشوارع . يعرضها على المارة ، ولكنه اخفق في مهنته . حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفي ذات يوم مر به خوري ، فعرض عليه ان يشتغل خادماً في الكنيسة لقاء دولارين في اليوم ، فطار فرحاً ، ولبى شاكراً .

وبعد يومين اكتشف الخوري ان الرجل امي لا يقرأ ولا يكتب ، فطرده ، وقال : ظننتك متعلماً . . . فعاد المسكين إلى مهنته الأولى . . . ولكنه بمرور الأيام استطاع ان يفتح حانوتاً صغيراً . ثم اتسعت تجارته ، حتى اصبح من اصحاب الملايين . والمساهمين في اعظم البنوك واغنى الشركات .

وصادف ان دعي إلى اجتماع هام عقده الرأسماليون الكبار ، ومدراء البنوك . فحضر معهم ، وبعد ان اتخذوا قرارات تتصل بمهنتهم عرض عليه الرئيس ان يوقع ، فقال له : انا امي ، فتعجب الجميع ، وقالوا له : هذا لا

يكون ابداً . . . فقال : لو كنت أقرأ وأكتب لكنت الآن كناساً في الاديرة والكنائس ، ولما تسنى لي الحضور معكم .

« ومنها » ان شاباً متوسط الثقافة والثراء تزوج من فتاة احلامه ، وبعد ان رزق منها طفلة حملت ووضعت طفلة ثانية . ولم يحسن الأب استقبال الثانية ، وحملت للمرة الثالثة [1] ، ووضعت طفلة كذلك ، واظهر الرجل من سخطه ما كان قد كتمه فيما سبق ، ولم يرض بما قسم الله ورزق ، وحملت المرأه للمرة الرابعة ، ولكنها وضعت ذكراً . فقامت الزينات ودقت الطبول . واتجهت العناية بالطفل دون البنات ، ولكن لم تمض الأيام ، حتى تبين ان في الطفل داءً لا دواء له ، وكان الابن مصدر شقاء الأب ، ومبعث ألمه ، وتمنى ألف مرة ومرة لو اراحه الله منه . . . اما الفتيات فكنّ لأبيهن وامهن مصدر اليمن والسعادة .

(١) حين كان السيد الكاشاني الشهير ، بلبنان سألته : كم لك من الأولاد ؟ قال : عندي عشر بنات ، وقد أسميت العاشرة « العاشرة » . وغير بعيد أن يكون السبب في تسمية رابعة العدوية بهذا الاسم انها كانت رابعة أخواتها .

أعط الزمن فرصة [1]

أدارت له الدنيا ظهرها في عناد وإصرار !

كل أبواب الرزق أغلقت في وجهه . كان النحس يلازمه كظله ! الذهب يتحول في يده إلى تراب. كل عمل التحق به فشل فيه . كل محاولة للوصول إلى النجاح انتهت بالخيبة ! كان يعيش بلا طعام ولا حب ولا أمل ! وتحطمت أعصابه ونقل إلى مستشفى المجاذيب . ولكن الأطباء خيبوا أمله . قالوا له إنه ليس مجنوناً ، وأخرجوه من المستشفى ، وأضاعوا منه فرصة النوم على سرير وتناول وجبات الطعام مجاناً في موعدها !

وأقتنع بأنه جرب كل شيء وفشل في كل شيء ! شعر أن الدنيا لم تعد تتسع له . أحس أنه يزحم الدنيا بلا مبرر ، وأن من واجبه أن يقلل زحامها ويختفي منها !

وأمسك مسدسه ، ودخل فوهته بين شفتيه ، وضغط على الزناد ! ولم تنطلق الرصاصة !

وضغط بقوة مرة أخرى على زناد المسدس ، فلم تنطلق الرصاصة !

وأغرق في الضحك ! لقد فشل في كل شيء حتى في الانتحار !

---

(١) من كتاب دعاء لعلي أمين صاحب جريدة الأخبار المصرية .

وخطر له في تلك اللحظة ان يعطي الزمن فرصة أخرى ! لقد عانده الزمن عدة سنوات . حاربه في رزقه وحطم آماله وداس على كبريائه . ومع ذلك فلينتظر بضعة أسابيع . فقد يتذكره الحظ . فيعود إليه ويدق بابه !

وتذكره الحظ وهو يعدو حول الدنيا ! أصبح بعد سنوات أشهر رجل في العالم . وأصبح بعد سنوات أخرى من أصحاب الملايين !

هل تعرف اسم هذا الرجل الذي كان قد قرر الانتحار ؟ ان اسمه موريس شيفالييه المغني الفرنسي الذي يعيش في ذاكرتك وهو يضحك دائماً ! .

إن هذا الرجل الضاحك الناجح عاش سنوات وسط الدموع والفشل ! ويئس في لحظة من اللحظات كما ييأس ملايين الشبان ! ولكنه أعطى الزمان فرصة . . . فعاد له الحظ ودق بابه ! .

أعط أيضاً الزمن فرصة أخرى !

صانع المصادفات [1]

وقعت سيارة في حفرة ؛ وراح سائقها العجوز يحاول دفعها دون جدوى !

ومر في تلك اللحظة أحد رجال الدين ورأى السائق وهو يتصبب عرقاً . فسأله : هل أستطيع أن أساعدك !

وأجاب السائق : هل عندك طريقة لإخراج السيارة من الحفرة ؟

ففكر رجل الدين قليلاً ثم قال : اتجه إلى السماء . . . وقل « يا رب » !

وأغرق السائق في الضحك وقال : وهل سيرسل لي الله ملاكاً من السماء ومعه « ونش » ؟

فقال رجل الدين : ان الله قادر على كل شيء !

وانصرف رجل الدين ؛ وعاد السائق يحاول دفع السيارة من الحفرة التي وقعت فيها . . .

ورفضت السيارة أن تتحرك !

ولما تعب السائق التفت إلى السماء وقال : يا رب ساعدني !

(١) المصدر السابق .

ولم تفتح أبواب السماء ! لم يهبط من بين السحب ملاك بالباراشوت يحمل ونشاً !

وعاد السائق يحاول دفع السيارة . . . وهي ترفض الحركة ! وفجأة مرت عربة لوري تحمل ونشاً لحمل السيارات المعطلة !

وتوقفت أمام السيارة المعطلة ، ونزل سائقها ، ورفع السيارة من الحفرة !

وركع السائق العجوز على ركبتيه وقال والدموع في عينيه : شكراً يا رب ! لم كن أتصور أن « الخدمة » في السماء بهذه السرعة !

وأرسل السائق العجوز قصته إلى الصحف ؟ ! واهتمت إحدى الجرائد الانكليزية بها وأرسلت تحققها سألت رجل الدين إن كان قد أرسل عربة الإنقاذ فنفى ذلك . وسألت المنقذ إن كان أحد اتصل به وأبلغه عن حادث السيارة . فأكد أنه مر أمامها بمحض الصدفة !

وقد يكون مرور عربة الإنقاذ مجرد صدفة ؟

ولكن من الذي يصنع هذه المصادفات ؟

من الذي يتحكم في « الصدفة » وينظمها ويرتبها ؟

إنه الله !

وبعد ، فان كل انسان لو تنبه ، وراجع سيرته ، وتاريخ حياته لوجد حوادث وحوادث قد مرت به لا تفسر بنظرية دارون . ولا بنظرية نيوتن ، ولا بنظرية انشتين ، ولا بشيء الا بارادة الله ومشيئته .

وتقول :إذا أرجعنا الحادثة الطبيعية إلى سبب غير طبيعي فان معنى ذلك انها معجزة .

قلت فلتكن معجزة خاصة لا عامة لجميع الناس ، بل اقامها الله سبحانه لتكون حجة على صاحبها بالذات إذا جحد وانكر . هذا بالإضافة إلى الادلة العامة ، ومنها ما اشار إليه انشتين بقوله : « هذا التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة ، وما يخفي من عقل جبار لو اجتمعت كل افكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل اقرب القول فيه انه لا شيء » .

ونختم الفصل بما ذكره الدكتور محمد غالي في مجلة « المجلة » المصرية عدد ايلول سنة ١٩٦٣ ص ٧٥ ، قال : ان اينشتاين العالم الشهير . وصاحب نظرية النسبية كتب بخط يده انه حصل له حادث هام ، وهو في الرابعة او الخامسة من عمره . ذلك ان اباه اعطاه بوصلة ليلهو بها . فلاحظ الطفل الاتجاه الثابت لابرتها التي تعود إليه مهما ادارها ، فاكتشف بفطرته الصافية ان شيئاً وراء ذلك » .

ومعنى هذا ان التكرار على وتيرة واحدة يبطل المصادفة وان قانون السببية غريزة . حتى في نفوس الاطفال . . . وإذا استنتج الطفل ان وراء نظام البوصلة الصغيرة منظم فأحرى ان يستنتج العاقل من نظام العالم وجود المنظم .

وإذا صرفنا النظر عن الادلة العامة والخاصة على وجود الله فلا ينبغي ان نذهل او نتجاهل ان الايمان بالله معناه الايمان بالحق والخير والجمال ، والعدالة والرحمة والحكمة ، وان الكون صادر عن قصد وارادة ، وان الانسان مسئول عن اعماله امام قادر عادل ، وان عدم الايمان بالله معناه عدم الايمان بشيء من ذلك . . . فاختر لنفسك ايهما شئت .

الانسان روح لا جسد

أصلان أساسيان :

ترتكز الأديان السماوية على دعامتين : وجود الله ، وخلود الروح ؛ ومعنى خلود الروح بقاؤها حية بعد انحلال الجسد وفساده ، وهذان الاصلان هما الحجر الاول في اساس الدين وعنهما تتفرع سائر الاصول والمبادىء . حتى الايمان بالأنبياء والرسل ، والكتب المقدسة ، إذ الايمان بأن لله رسولاً وكتاباً يفترض مسبقاً الايمان بوجود الله جل وعز :

﴿ لأن ثبوت شيء لشيء فرع ثبوت المثبت له ﴾ .

وإذا يؤمن الانسان بالله ، او آمن به ، وانكر خلود الروح لم يكن مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً .

الدليل :

أما الدليل على هذين الأصلين ، أي وجود الله ، وخلود الروح فقد دخل في مراحل شتى ، وتطور مع اسباب المعرفة . . . فقد كان اول ما كان الفطرة والوحي ، ثم الفلسفة والعقل ، والاقيسة المنطقية التي نقرأها في رسائل الفارابي وكتب ابن سينا ، وابن رشد والطوسي الغزالي والشيرازي . وغيرهم من الفلاسفة وعلماء الكلام . ولا شيء منها يمت بسبب إلى المعرفة التجريبية والعلم المعملي ، أي المأخوذ من المعمل والأرقام المادية المحسوسة الملموسة .

التجربة :

أما الآن ، وبعد ان اصبحت التجربة هي السبب المعتمد للمعرفة عند علماء الطبيعة فهل تدل التجربة على وجود الله ، وخلود الروح ، او انها اجنبية عنهما وعن الدلالة عليهما ؟ .

وإلى الأمس القريب كان جواب علماء الطبيعة على هذا السؤال ان الدين بمعناه التاريخي والتقليدي يناقض جميع الحقائق العلمية ، لانها تقوم على التجربة ومشاهدة الطبيعة واشيائها ، وضمن حدود الزمان والمكان على العكس من مبادىء الدين التي ترتكز على الغيبيات ، وما فوق الطبيعة ، وتتجاوز حدود الزمان والمكان . . . ومع هذا التباين يستحيل ان يكون احدهما طريقاً لمعرفة الآخر .

وهذا القول كما ترى ــ لا يعدو الغيب ، لانه نظرية مجردة عن التجربة والمشاهدة ــ اذن ــ هو ابطال للغيب بمنطق الغيب . وللمعرفة النظرية بالمعرفة النظرية ، وبالتالي استدلال على انكار الشيء بنفس الاعتراف به ، تماماً كما لو قلت : هذا الشيء معدوم ، لانه موجود ، وباطل لانه صحيح .

وبعد أن أعرض علماء الطبيعة، وانكروا أن يكون العلم والتجارب سبيلاً لمعرفة وجود الله، وخلود الروح عادوا، واعترفوا مؤمنين بأن التجربة العلمية قد اثبتتهما ودلت عليهما بطريقة لا تقبل الشك ، ذلك ان عدداً كبيراً من العلماء المبرزين قد اجروا الكثير من البحوث على منهج علمي سليم ، فأدت بهم إلى الايمان بهذه الحقيقة ايماناً مستمداً من التجارب التي حققوها بأنفسهم .

ومنذ عهد قريب ظهر كتاب اسمه « الله يتجلى في عصر العلم » فيه مقالات

لأكثر من ثلاثين عالماً من علماء الغرب الكبار يثبتون فيه وجود الله بالمعرفة العلمية ، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ولخصت الكثير منه في فصل من فصول كتاب « فلسفة المبدأ والمعاد » بنفس العنوان . اما خلود الروح وبقاؤها بعد الموت فقد ألف فيه العلماء الجدد كتباً كثيرة تعد بالآلاف لا بالمئات ، وبكل لغة ، يقتنع بها من لا يؤمن بالوحي ، ولا بالفلسفة ، ولا بشيء الا بالتجربة وحدها . وبكلمة ان هذه الكتب الحديثة تناسب كل انسان لان براهينها علمية ، ومؤلفيها من افضل رواد العلوم المادية الذين اثبتوا اصالة في مجال التجريب ، ومثلوا مستوى خاصاً من القدرة عليه . (اقرأ كتاب الانسان روح لا جسد) الذي نشير إليه فيما يلي :

العلم الروحي الحديث :

ليس المراد من العلم الروحي الحديث علم النفس الذي يعبر عنه بالسيكولوجيا وانما المراد منه ما يشمل ثبوت الحياة بعد الموت ، واتصال الاحياء والأموات وسمي علماً. لان العلماء قد استعملوا فيه نفس البحث والاسلوب الذي استعملوه في ظواهر الطبيعة ، وادى إلى نتائج علمية ملموسة تماماً كنتائج العلوم الطبيعية ، ووصفوه بالحديث . لان البحث العلمي في خلود الروح لم يكن معروفاً من قبل . وان كان الايمان به قديماً بقدم الانسان . وبعد ان تمكن العلماء من استعمال الوسائل العلمية ، والادوات الفنية لمعرفة هذه الحقيقة اعتبروا العلم بها علماً جامعياً ، واشادوا له الكليات ، واقاموا المعاهد والمؤسسات ، وخصصوا له الجمعيات والهيئات . والجرائد والمجلات .

كتاب جديد :

آمنت من التجارب المتكررة التي مررت بها في حياتي ان العلم ، الرغبة والعافية والرفاهية. كل هذه وما إليها ليست بشيء إذا لم يحالفها التوفيق من الله سبحانه ، وإليك قصة هذه التجربة الأخيرة ، او قصة هذا الفصل من اولها :

وضعت هذا الكتاب على تصميم سابق . وهو حمل القارىء تلقائياً ، وبدون اقيسة عقلية . وأدلة ادبية . . . على الايمان بالله . وخلود الروح . والعمل في سيره وسلوكه بوحي من هذا الايمان . واستطعت ان اجمع الفصل السابق طائفة من حوادث فردية مبعثرة هنا وهناك لا تفسير لها الا بوجود الله وحين اردت الشروع بهذا الفصل ، والاستدلال على خلود الروح . وبقائها بعد موت الجسد فكرت ماذا اصنع ؟ هل اذكر الادلة العقلية والادبية التي ذكرتها في مؤلفاتي السابقة واكررها بتعبير آخر ؟ . وهذا خلاف التصميم الذي يهدف إلى اشعال شمعة جديدة في هذه السبيل .

وبقيت في حيرتي هذه إلى ان فتح الله الطريق من حيث لا احتسب . . . ذلك ان من عادتي ان اقرأ الصحف الصباحية والمسائية بانتظام ، اللبنانية منها والسورية والمصرية ، وفي مساء ٦ – ٩ – ٦٤ اضطررت إلى زيارة صاحب كريم مصطاف في حمانا ، وكنت قد خصصت هذا الوقت بالذات من كل يوم لقراءة صحف المساء ؛ وعدت إلى بيتي من الزيارة ، في وقت متأخر ، وقلت في نفسي : « بلاش » صحف في هذه الفترة . . . وهل هي صلاة مفروضة ؟ . ولكن سرعان ما احسست بحافز من داخل يلح علي بالذهاب

حمدون [1] لشراء الصحف . ولم البث ان استسلمت له . وكان الخير في هذا الاستسلام ، حيث قرأت فيها عن كتاب ظهر حديثاً في نحو ٧٠٠ صفحة . اسمه « الانسان روح لا جسد » فخيل إليّ اني سأجد فيه بغيتي . وإنه يخرجني من حيرتي ، وعلى الأقل يفتح لي الطريق . او يسلط الاضواء عليه ، والمؤلف هو الدكتور رؤوف عبيد استاذ في كلية الحقوق . جامعة عين شمس بالقاهرة . وقد عكف على وضعه وتأليفه خمسة عشر عاماً . وكان المؤلف من قبل يرى ان خلود الروح خرافة وهراء ، كما جاء في مقدمة الكتاب . ولكنه بعد الاطلاع الكافي . والعناء الطويل اقتنع بأن بقاء الروح حية بعد الموت حق لا ريب فيه ، فألف هذا الكتاب لاثباته بالبرهان العلمي خدمة للحقيقة .

وتكلمت الصحف المصرية عن هذا الكتاب . واشادت ببحوثه العلمية الدقيقة ، وبما قدمه من البينات والوقائع . وهنأت المؤلف على فوزه ونجاحه ، ومما قاله الاستاذ المعرف احمد الصاوي في جريدة الاخبار ٦ — ٩ — ٦٤ : « أهنيء الدكتور رؤوف عبيد في اصدار هذا الكتاب القيم بما بذله خلال ١٥ سنة من الصبر الجميل، والعكوف على درس كل ما كتب ونشر في عدة لغات في شئون الروح متتبعاً حتى آخر لحظة في يومنا هذا ما صدر في شرق او غرب . ولم يدع شاردة او واردة الا سجلها في كتابه الضخم الفخم » .

قرأت هذا ، فعشقت الكتاب ، وتشوقت إلى قراءته بالوصف والخبر ، وبعد عناء البحث والفحص حصلت على نسخة منه . فألفيته كما قال الاستاذ الصاوي . وإلى القراء هذه المقتطفات :

(١) اصطاف في هذه السنة ٦٤ في بلدة قريبة من بحمدون ، اسمها القرية ، مصغر قرية .

علم الروح يصبح جامعياً

ان دراسة العلم الروحي الحديث لا تقوم على الحدس والتخيل . ولا على الوحي والنقل . ولا على العقل المجرد فقط . بل هي جزء لا يتجزأ من دراسة قوانين الطبيعة ، والمادة الصلبة . وتحولها إلى طاقة . وتحول الطاقة إليها . ودراسة النظرية النسبية . ومعادلاتها الرياضية . ودراسة نظرية الاهتزاز وامواج الاثير ، بل ان دراسة خلود الروح وبقائها بعد الموت تقوم أيضاً على علوم جديدة ناشئة ، مثل الفيزياء الروحية ، والكيمياء الروحية ، والفلسفة الروحية ، وعلم تأثير العقل على المادة ، وغير ذلك لذا يجد الباحث العلمي في الارواح مشقة كبرى . ان لم يزود بمقدار كاف من الثقافة في فروع شتى من العلوم الحديثة .

بعض الأسماء :

ومن ابرز العلماء الذين اكتشفوا خلود الروح ، وآمنوا به كحقيقة واقعة « وليام كروكس » رئيس المجمع العلمي البريطاني . و « وليام باريت » الذي انشأ جمعية البحث الروحي في بريطانيا . « ولورد رايلي » استاذ الطبيعة التجريبية في جامعة كمبريدج ، و « اوليفر لودج » وهو من اقوى علماء الطبيعة في القرن العشرين ، والدكتور « جون هتنجر » ، والدكتور « الكساندر كانون » ، و « بيير كوري » اشهر علماء الراديوم اطلاقاً ، والعالم الالزاسي « شارل هنري » الذي كان يدير معمل فسيولوجيا الانفعالات بالسوربون ، و « دادسو نيفال » عضو اكاديمية الطب ، والاستاذ بالكوليج دي فرانس ، ورئيس المعهد العام للسيكولوجيا ، والدكتور « جان لرميت » الاستاذ بكلية

الطب بباريس ، إلى غير هؤلاء من مئات العلماء والمفكرين والادباء الذين جاء ذكرهم في كتاب « الانسان روح لا جسد » وقد انتهوا جميعاً من تجاربهم في المعمل إلى الاثبات العلمي لخلود الروح . والحياة بعد الموت .

بينات ووقائع :

ونقل الدكتور عبيد في كتاب « الانسان روح لا جسد » اتصالات شتى مع ارواح الاموات ، ودعمهما بالأرقام التي لا تقبل الشك . نقلها عن مؤلفات لاشهر علماء الغرب ، وابرز رجالاته في ميدان العلم . ولا يتسع هذا الفصل لذكرها او ذكر شيء منها ، ومن ارادها فليرجع إلى الكتاب . او إلى ما اشار إليه من المراجع الموثوق بقيمتها العلمية .

وايضاً اشار الدكتور عبيد إلى زميل له في القاهرة يخدم الآن بكل اخلاص قضية علم الروح الحديث ، وهو الدكتور علي عبد الجليل راضي المدرس بكلية العلوم ، وله عدة مؤلفات قيمة مثل « العالم غير المنظور » او « ارواح مرسلة » و « سفير الأرواح العليا » و « اضواء على الروحية » كما نقل إلى اللغة العربية كتاب « ثلاثون سنة بين الموتى » للطبيب الامريكي « كلال ويكاند » وقصة « أول فرعون » .

وجاء في كلمة الاستاذ الصاوي التي اشرنا إليها ان الدكتور راضي ارسل إليه رسالة قال فيها :

ان لديه الآن كتاباً اسمه « تعالي مملكة الله » وهو عبارة عن رسائل تلقاها من احد الاموات المؤلف الانكليزي « اثر جريفس » . وقد مضى على هذا الكتاب حوالي عشرين سنة — نحن الآن في سنة ١٩٦٤ — ومما

جاء في هذا الكتاب بلسان روح الميت ان الانكليز سيطردون من مصر وقناة السويس ، وان اليهود سيحتلون فلسطين ، ثم يطردون منها .

وقد تحقق ذلك ، ومن هذا يتبين ان الروح تبقى حية بعد مفارقتها الجسد . وان بامكانها ان تشهد بالعدل عما يحدث في المستقبل . وهكذا تدعم المعاهد والجامعات الحديثة في اوروبا وامريكا رسالة الانبياء الذين وجهوا البشرية إلى الايمان بالله وخلود الروح .

وليس من العلم في شيء ان ينكر المكابر الحقيقة لمجرد ان الدين يثبتها ، وانه لا يريد ان يقرأ ، يسمع اي شيء يتصل بالدين . حتى ولو اثبته العلماء بالبرهان ، والحس والعيان ، ومهما يكن . فان تضافر الادلة العلمية على خلود الروح كفيل بأن يجعل اقوال المنكرين والمعاندين هشيماً تذروه الرياح .

وصف الحياة بعد الموت

تناول وصف الحياة بعد الموت كتب تعد بالمئات . وضعها اعلام العلم في اوروبا وامريكا . ذكر اسماءهم ومؤلفاتهم الدكتور عبيد في كتاب « الانسان روح لاجسد » :

واول ما يلفت النظر هو التوافق والتطابق الملموس إلى ابعد مدى في الاوصاف التي جاءت في المؤلفات الحديثة عن عالم الروح . رغم كثرتها . وتعدد المؤلفين . واختلاف ازمنتهم . وتباين اللغات التي كتبت بها . ولو كان ما قالوه باطلاً لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . وان دل هذا التوافق على شيء فانما يدل على ان اكتشاف تلك الصفات كان بالعلم لا بالوهم . وبالحس لا بالحدس . وان الذين اكتشفوها قد سلكوا طريق الحيطة والحذر . كما ان هذا التوافق في الصفات بين العلم والدين دليل واضح على ان الدين من خالق الكون والانسان . لا من وضع الإنسان . ونذكر فيما يلي طرفاً من تلك الاوصاف التي اتفق عليها اقطاب العلم الحديث :

١ — ان الارواح في الآخرة لا تتخيل ولا تتصور اشياء وهمية ابداً لا في اليقظة . ولا في المنام . بل تحيا حياة الحق والواقع في جميع شؤونها وحالاتها ، وكل ما تقوله وتفعله وتتصوره حق لا ريب فيه .

٢ — ان مدن الجنة متفاوتة في جمالها . ولكنها على كل حال اجمل من

مدن الدنيا إلى حد ان سكان الدرجة الثالثة يتحدثون عن المدن الكبرى مثل لندن وباريس ونيويورك وكما لو كانت حقيرة تافهة، وبناياتها عبارة عن فيلات تحيط بها حدائق مترامية الأطراف . . . وليس هناك صخب ولا ضجيج يصم الآذان ولا غبار ودخان .

٣ – ان السفر في الجنة لا يحتاج إلى وسائل النقل كالطائرة والباخرة والسيارة ، فكل من اراد السفر إلى مكان يوجد فيه حالاً دون ان يحس ويشعر ، ولذا لا أثر هناك لمشكلة عرقلة السير .

٤ – ان العقل في الجنة يكون في أوج نشاطه وانطلاقه ، وله تأثير عجيب في كل شيء ، بحيث يكيف المادة في الصورة التي يشاء بلا واسطة المعمل والأدوات الفنية .

٥ – ان الأزهار والاوراد والفواكه والاشجار توجد بدون بذر وغرس وحرث وسقي ، وتبرز إلى الوجود تلقائياً تامة كاملة بمجرد ان يريدها الانسان لذلك ، وهكذا القصور والفيلات لا يحتاج وجودها إلى مهندس وبناة وعمال ، بل توجد بالارادة فقط ، وإلى هذا يشير الحديث القدسي : « يا عبدي اطعني تكن مثلي ، تقل للشيء كن فيكون » أي اطعني في الدنيا تكون لك هذه المكانة في الآخرة .

٦ – ان اهل الجنة لا يجوعون ابداً ، وهم بالتالي لا يحتاجون إلى الطعام ، ولكن إذا احب احدهم ان يأكل فيمكنه ذلك ، ويوجد الطعام المختار بمجرد الارادة وبدون حاجة إلى طبخ ونفخ ، وبهذا نطقت الآية ١١٨ من سورة طه :

﴿ إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيهَا
وَلا تَعْرَى ﴾ .

٧ — للاجسام هناك نفس مظهرها الخارجي الذي كان لها في الدنيا ، والشاب يبقى على شبابه ، والشيخ يرجع إلى صباه . ويتفق هذا مع الحديث الشريف :

﴿ لَيْسَ فِي الجَنَّةِ شَيْخٌ وَلا عَجُوزٌ ﴾ .

٨ — يلتئم شمل الاسرة من جديد ، وإذا رغب اثنان في العيش معاً فلهما ذلك ، والصلات الزوجية هناك تختصر على عاطفة الحب فقط .

٩ — لا يوجد في الجنة زلازل ولا براكين ولا اعاصير ولا امطار وعواصف . وتوجد رياح ناعمة هادئة ، وغيوم خفيفة تحمل الطل ، والمياه كثيرة وعذبة . ومن خواصها أن البلل لا يحدث بملامستها .

١٠ — لا يحتاج الانسان هناك من اللغات واللهجات : إذ يستطيع ان يعرف افكار الآخر ، وكل ما يدور بخلده بمجرد ان يراه وينظر إليه .

١١ — كل نفوس اهل الجنة طاهرة مقدسة ، يجمعها الحب . ويربط بينها التقوى والورع .

١٢ — لا رياء في الآخرة ، ولا كذب ، ولا نفاق ، بل الظاهر والباطن سواء ، بل لا باطن هناك من الاساس .

١٣ — لا تجارة ، ولا شيء اسمه النقود ولا عملة صعبة أو سهلة ، والشيء الوحيد الذي ينظم علاقات الناس بعضهم مع بعض هو التعاطف والصفاء والتآلف .

١٤ — توجد في الجنة حيوانات تشبه حيوانات الدنيا ، ولكن المفترسة

منها تفقد رغبتها في الافتراس والتوحش لانها ليست بحاجة إلى الطعام ، وهي هناك لمجرد الزينة .

أما أهل النار فان كلاً منهم يعاقب حسبما كان قد ارتكب من ذنب . ويتميز عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا بأمور :

« منها » : ان المجرم لا يستطيع معرفة الوقت الذي ينتهي فيه عذابه . كما هي الحال في المسجون عندنا ، وكل الذي يعرفه انه يتألم من اجل الذنب الذي اقدم عليه مختاراً . وجهله هذا بأمد العذاب يضاعف من آلامه . حيث تبدو له ابدية لا نهاية لها .

و « منها » : ان الجريمة تبقى ماثلة في ذهن المجرم أمام عينيه بدون انقطاع وله في ذلك عذاب أليم .

و « منها » : ان كل نفس هي وحدها المسئولة عن اخطائها . ولا تحمل وزرها نفس اخرى إلا إذا كانت سبباً في دفعها إلى الخطيئة .

و « منها » : ان من عذاب المتكبر ان يرى نفسه احقر الجميع . وان من كان يحتقره قداصبح اعلى منه مكانة تحيط به اسباب المجد والابهة . وهذا عين ما جاء في الحديث الشريف . من ان المتكبر يحشر غداً على صورة نملة تداس بالأقدام .

و « منها » : ان يضاف إلى عذاب المجرم نفس الآلام والمصائب التي تهرب منها في الدنيا بفعل الحرام ، وارتكاب المعاصي .

وبعد ان ذكر العلماء هذه الأوصاف وغيرها لاهل الجنة والنار قالوا ان الله رحيم ما في ذلك ريب . ولكن رحمته جل وعز تشمل من

وأناب من جريمته ، لا من استمر وأصر عليها ؛ لأن رحمته بصيرة تعرف طريقها إلى من هو اهل لها وليست بعمياء تخبط خبط عشواء .

وعلى تعدد البحوث العلمية وكثرتها فقد اجمعت بكلمة واحدة على اوصاف أهل الجنة والنار التي جاءت بعينها في كتاب الله وسنة الرسول وآله الكرام (ص) . . . وهكذا نرى بوضوح ان خلود الروح بجميع ملابساته يستند إلى العلم والعقيدة معاً . وان البحث العلمي والتجارب الواقعية التي قام بها اساطين العلماء في هذا العصر قد ادت إلى النتيجة التي بشر بها انبياء الله ورسله . وتظهر هذه الحقيقة اكثر وضوحاً إذا قرأت كتاب « الانسان روح لا جسد » للدكتور عبيد ، فان كل ما ذكرته في هذا الفصل هو تلخيص منه بتصرف في الشكل والصورة . لا في المضمون والمحتوى .

وبالتالي فإن هذا الكتاب يقدم البينات والارقام المادية على ان كثيراً ممن انكر وجحد الدين تعصباً للعلم بزعمه قد اذعن في النهاية واستسلم للحق . كما اذعنت له . واستسلمت كنيسة القرون الوسطى بعد ان انكرت العلم تعصباً للدين بزعمها . والسر لهذا الاذعان والاستسلام من الفئتين ان مباديء الدين واصوله هي حقائق واقعية . تماماً كالحقائق العلمية ، وان نتائج العلم واقعية أيضاً كاصول الدين . وان العلم والدين متآزران متعاضدان بخاصة في الاصول الأولى التي تقوم عليها العقيدة . كالايمان بالله وخلود الروح .

رواد الفضاء ورسالة الأنبياء

إذا أراد انسان . أي انسان أن ينكر مبدأ من المبادىء او يعترف به، فهل يسوغ لهان ينكر عناداً ، ويؤمن تقليداً دون ان يستند إلى منطق يستدعي الايمان ، او الجحود ؟

والجواب :

عن هذا السؤال واضح كل الوضوح . . . ان النضج العقلي يحتم عليه ان يبحث ، ويضاعف الجهود في البحث والتنقيب عن الاسباب الموجبة للاعتراف ، او الانكار ، وفي ضوئها يصدر حكمه سلباً . او ايجاباً . . . ومتى تعذرت عليه معرفة الاسباب وعجز عن اكتشاف معالم الطريق وجب عليه ان يقف موقف المحايد لا ينكر ولا يعترف ، والا كان جاهلاً يؤمن او يجدى من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير : وبديهة ان الجاهل كايمانه لا وزن له من الوجهة العلمية .

سؤال ثانٍ .

من المعقول ان نبحث وننقب عن الاسباب الموجبة في الاشياء المادية التي التي تقع تحت الحس والتجربة ، كما لو اردنا ان نعرف حقيقة الماء : هل هي بسيطة كما قال القدامى او مركبة من الاكسوجين والهدروجين كما يقول الجدد ، اما ما لا يقع تحت الحس والتجربة ، اما الامور الغيبية ، كوجود

الخالق ، واستمرار الحياة بعد الموت ، وان الجنة لا شقاء فيها ولا نصيب . اما هذه وما إليها مما اخبر به الرسول الاعظم محمد بن عبد الله وغيره من الأنبياء الكرام عليه وعليهم افضل الصلاة والسلام فلا يمكن البحث فيها عن طريق الحس والتجربة . وبالتالي . فلا يصح الامر بالرجوع إليها لارتفاع الموضوع .

الجواب :

أولاً : ان اسباب المعرفة لا تنحصر بالحس والتجربة ، فان هناك الفطرة والمقاييس العقلية ، فالحس سبيل إلى معرفة المادة ، وعناصرها وما تحويه من قوى . اما العلم بما وراءها فسبيله الفطرة والعقل .

وقد شرحنا ذلك مفصلاً ومطولاً في اكثر من كتاب من مؤلفاتنا.

ثانياً : ان ما في المادة من ابداع ونظام ليس الا سلسلة للتدليل على ان وراءها قوة مبدعة ومنظمة . تماماً كدلالة الكتابة على الكاتب . والكلام على المتكلم فالقول بأن المادة لا تجدي نفعاً للتدليل على الحقائق الغيبية لا يستند إلى اساس .

ثالثاً : على افتراض ان المادة لا تكون وسيلة للايمان بما وراءها . فيجب ايضاً ان لا تكون وسيلة لانكاره .

رابعاً : ان تقدم العلوم في كل مضمار قد اتاح للانسان ان يستعمل التجربة . ووسائل العلم الحسي ، حتى في حقائق الغيب وإليك الدليل :

وصف الله سبحانه اهل الجنة في كتابه الكريم الذي انزله على نبيه العظيم وصفهم بقوله :

﴿ لا يَحزُنُهمُ الفَزَعُ الأكبَرُ ﴾
الانبياء ١٠٣ .

﴿ لا يَمَسُّهُمْ فيهَا نَصَبٌ ﴾
الحجر ٤٨ .

وقال قائل: محال ان يحيا الانسان مع هذا الجسم بدون فزع ولا نصب .

ويكفي للرد على هذا ان نستمع إلى رواد الفضاء . وهم يصفون احساساتهم حين دخلوا منطقة انعدام الوزن . قال جاجارين رائد الفضاء الروسي :

اني شعرت بحالة تشبه النشوة التي يحسها شارب الخمر . ولكن بلا تعب .

وقال شبرد رائد الفضاء الامريكي : انها حالة تشبه حالة انعدام التعب . تماماً كطفل بلا ذاكرة . ولكنه يشعر بالسعادة .

وقال كوبر الامريكي : كنت في تمام الانتعاش .

وقالت فالنتينا الروسية : كانت اسعد لحظات حياتي . . . لقدشعرت بارتياح لا نظير له ، وتمنيت ان ابقى هكذا إلى الأبد .

اذن التجربة الحسية ساهمت مساهمة فعالة تماماً كما ساهم العقل والفطرة في الشهادة بامكان الحياة بلا خوف ولا تعب التي بشر بها محمد بن عبد الله (ص) وجميع الاديان تقول هذا ، مع العلم بضآلة ما اكتشفته التجربة من حقائق الغيب غير اننا متفائلون بأن العلم الحسي سيكشف في المستقبل القريب او البعيد عن كثير من حقائق الغيب ، ويبرزها للعيان تماماً كالاشياء المحسوسة الملموسة .

وبهذا يتبين معنا ان تقدم العلم في أي مضمار هو انتصار لدين محمد (ص) لانه دين العلم والحق وبديهة ان الحق لا يعاند الحق ، بل يؤازره ويناصره

اذن يتحتم على كل انسان يؤمن بالعلم والحق ان يؤمن بمحمد (ص) لان الايمان به ايمان بهما . وتكريمه تكريم لهما . وجحود رسالته جحود لهما . وللانسانية من الاساس .

وقد يهتدي عالم من العلماء . او فيلسوف من الفلاسفة إلى حقيقة تعجز عن ادراكها . وتصورها العقول الاعتيادية . فتردها عليه . وتسخر منها ومنه ، حتى إذا مرت الايام ، وظهرت هذه الحقيقة للعيان آمنت بها الاجيال واصبح صاحبها الذي كان بالامس موضع السخرية والاستهزاء عنواناً للتقديس والتعظيم .

لقد اعلن الفيلسوف اليوناني « اريستاركوس » القول بدوران الأرض حول الشمس عام ٢٨٠ قبل الميلاد ، فعارضه « بطليموس » مؤكداً ان الشمس هي التي تدور . وان الأرض ثابتة وسط الكون ، وظل مذهبه معتمداً مئات السنين ، حتى اعلن من جديد العالم البولوني « كوبرنيك » حركة الأرض حول الشمس ، فهجر الناس القول الأول . واعتنقوا الرأي الثاني ، لا كرهاً ببطليموس ، ولا حباً بكوبرنيك ، بل لان العلم فرض نفسه على جميع اهل المذاهب والاديان في انحاء المعمورة ، حيث يعلو سلطانه ويسمو على كل سلطان . وبه يخلد الانسان مدى الاجيال والازمان . . . وسيأتي اليوم الذي تدين فيه برسالة محمد (ص) جميع الأمم في الشرق والغرب . لا لشيء الا لأن العاقبة للحق والعلم اللذين تسير معهما هذه الرسالة المقدسة جنباً إلى جنب .

ستدين الأجيال ، كل الاجيال ، برسالة محمد (ص) عن طريق المشاهدة والتجربة اللتين هما اساس المنهج العلمي الحديث . مع العلم بأن محمداً (ص)

لم يستعمل في حياته التجربة والاختبار – إذ – تعين بحكم الواقع ان الصلة الوثيقة بخالق الكون هي السبيل الوحيد إلى معرفته بحقائق الكون وما قبله ، وما بعده . . . لقد سبق محمد (ص) بعلومه ومعارفه التقدم الانساني بألوف السنين . ليكون هذا السبق دليلاً على وجود تلك الصلة بينه وبين العلي الاعلى . . .

ومن هنا افترق عن العلماء والفلاسفة والعباقرة والنابغين وكان فوق الناس اجمعين .

القسم الثاني

مبادىء عامة ومقتطفات من الصحيفة السجادية

مبادىء عامة

طريق المعرفة إلى الآخرة :

ما هو الطريق إلى معرفة الآخرة ، وبأي شيء نثبتها ونستدل عليها ؟.

قال قائل : نثبتها بالمنطق . والاقيسة العقلية . وقال آخر بل بشعور القلب . وكشفه المسمى بالحدس . وقال ثالث : بل بالوحي . وهو الكتب السماوية والاحاديث النبوية .

والوحي ثابت بالوجدان . والعقل يدل . ولكن بضميمة مبدأ واجب الوجود ، والحدس ممكن . ولكنه صعب التحصيل . ومهما يكن ، فان المهم ان تكون مؤمناً ايماناً صحيحاً مطابقاً للواقع ، سواء أحصل هذا الايمان من طريق العقل . او القلب . او التقليد الاعمى ، فالمعتقد يكون صحيحاً وحقاً إذا كان انعكاساً عن الواقع . كما هو في واقعه بصرف النظر عن اسبابه لأن العبرة بالنتيجة ، لا بالمقدمات .

الخلاص من النار :

بعد ان اتفقوا على وجود الجنة والنار . وان لكل منهما اهلاً واصحاباً ، اختلفوا : اهل الخلاص من النار يكون بمجرد الايمان بالله ، واليوم الآخر ،

بصرف النظر عن الاعمال خيراً كانت او شراً . بحيث لا يكون المؤمن مسئولاً عن شيء وان لم يعمل خيراً قط . او لا بد من الإيمان والعمل معاً . فمن آمن ولم يعمل ، او عمل دون ان يؤمن فهو من اهل النار .

وليس من شك ان الايمان اساس ، والعمل بناء . والخلاص من سوء المصير لا يكون الا بالبناء السليم على اساس متين اذن لا بد من الايمان والعمل معاً .

صلاح الآخرة :

ربط الاسلام صلاح الآخرة بصلاح الدنيا : وجعل الثاني وسيلة للأول : فمن جاهد وناضل ، واكل من تعبه وعرقه في حياته هذه كان سعيداً في الآخرة . ومن عمل لاسعاد الناس . وصفاء القلوب : وبث المحبة والإخاء فهو اسعد ، لانه مع الانبياء والصديقين . وكلما عمل على اسعاد عدد اكثر كان حظه عند الله اكبر واوفر .

اما من يعيش على حساب غيره . ويشقى الناس بوجوده : ويخافون منه ومن شره فان عاقبته الحسرة والندامة . والحساب والعقاب : قال تعالى :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ . الاسراء ٧٢

وفي الحديث :

﴿ أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الدّنْيَا أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ ﴾ .

اتسكت أو تتكلم ؟

إذا رأيت انساناً يأكل لحم الخنزير . أو يصلي بالنجس ، وما إلى ذاك فهل يجب عليك ان تتكلم معه وتنبهه إلى ذلك . او يجوز ان تتجاهل وتسكت؟

الجواب :

يختلف الحكم باختلاف الحالات :

١ ــ ان يكون الفاعل عالماً بالموضوع ، جاهلاً بالحكم ، كما لو علم ان هذا لحم خنزير ، ولا يعلم ان لحم الخنزير حرام . فالموضوع الذي يعلمه هو لحم خنزير ، والحكم الذي يجهله هو التحريم ، وفي مثل هذه الحال يجب عليك ان ترشده إلى الحكم الشرعي . وتبين له الحقيقة من باب الارشاد . ووجوب التعليم .

٢ ــ ان يعلم الحكم والموضوع معاً ، مثل ان يعلم ان هذا لحم خنزير ، وانه حرام ، ومع ذلك اقدم ، ولم يكترث ، ويجب هنا ان تذكره بأمر الله ، وتخوفه من عقابه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع احتمال الفائدة ، وعدم الضرر .

٣ ــ ان يعلم الحكم ــ ويجهل الموضوع ، كما لو علم ان لحم الخنزير حرام ، وان الصلاة بالنجاسة لا تصح ولكنه لا يعلم ان هذا لحم خنزير ، وان على ثوبه نجاسة ، وفي مثله لا يجب الكلام والتنبيه ، لان الجاهل لم يرتكب حراماً . . . فإذا رأيت شخصاً يصلي ، وعلى ثوبه نجاسة يجهلها فلا يجب عليك ان تنبهه إليها ، ويجوز لك ان تأتم به جماعة ، وان كان من اهل العدالة ، وكذا لا يجب التنبيه لو اكل لحم الخنزير باعتقاده انه غنم . وعن اهل البيت (ع)

ان رجلاً اغتسل من الجنابة ، ولم يستوعب الماء بدنه . فنبهه آخر إلى ذلك ، فقال الامام (ع) :

﴿ ما كان عليك لو سكت ﴾ .

أجل . لا يجوز ان تكون انت المسبب لذلك . كأن تطعمه لحم الخنزير . والنجس . وهو لا يعلم ، اما لو رأيته يفعل ذلك فلا شيء عليك لو سكت.

هل الجهل عذر ؟

لو جهل انسان انه مقدم على الحساب والعقاب ، او ارتكب الحرام ، وهو لايعلم بأنه حرام ، او ترك واجباً عن جهل بالوجوب . فهل يكون معذوراً للجهل . اولاً ؟ .

الجواب :

ان الجهل باعتبار سببه على نوعين :

١ — ان ينشأ من تربيته وبيئته . كما لو عاش منذ طفولته بين قوم لا يوجبون الصلاة . ولم يلتفت هو او يحتمل انها واجبة بحكم ظروفه وملابساته . . وليس من شك ان هذا الجاهل يثبت التكليف والوجوب في حقه واقعاً . لانه بالغ عاقل قادر بذاته على الفعل . غاية الأمر انه معذور في الترك ما دام في هذه الحال . فاذا ارتفعت وزالت . وعرف الحقيقة وجب عليه الاداء في الوقت . والقضاء في خارجه . تماماً كما هو الشأن في النائم والناسي . فان من نسي الصلاة يعذر في تركها حال النسيان . ولكنها لا تسقط عنه في الواقع . لذا إذا تذكر وجب الفعل اداء في الوقت . وقضاء في خارجه وكذا النائم ومن عاش بين قوم لا يعرفون الصلاة اطلاقاً .

٢ — ان ينشأ الجهل من عدم القابلية والاستعداد للفهم والتفهم . وهذا غير مكلف من الاساس بما لايمكن ان يتفهمه . لانه اشبه بالجماد والحيوان. . . ويعبر عنه بالقاصر .

ومن افراد القاصر . المجتهد الذي يبذل كل جهده في البحث عن الدليل. به . . . فلو افترض ان احد المجتهدين لم يطلع على دليل يدل على ان عرق الجنب من الحرام نجس . وحكم بعد البحث والتنقيب بطهارته للاصل . وكان هذا العرق نجساً في الواقع . لو افترض هذا لكان المجتهد معذوراً في حكمه بالطهارة .

وبكلمة ان الجهل من حيث هو لا يتنافى مع وجود التكليف الا إذا رجع إلى العجز وعدم القدرة . كما هي الحال فيمن لا قابلية له ولا اهلية .

النية :

النية حيث هي ليست سبباً للحساب والعقاب في نظر الإسلام. فمن نوى ان يزني . او يسرق . او يقتل . ولم يباشر شيئاً من ذلك فلا يسأل عن نيته . لان العقاب انما يكون على عمل مادي محسوس . . .

أما إذا نوى الخير . وعجز عن فعله فان الله يكتبه له ويثيبه عليه تكرماً وتفضلاً . وفي الحديث :

﴿ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ ، فَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ، وَلَمْ يَفْعَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ . . .

بل لو قال ، ولم يفعل لا يؤاخذ على مجرد القول إذا لم يكن سبباً في ايذاء الغير .

من لا يرحم :

جاء في الحديث :

﴿ مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ ﴾ .

وهذي هي الرحمة بالذات ، فان التسامح مع الشرير الظالم المفسد هي عين القسوة والظلم . . . تصور رجلاً يقسو ، حتى على المساكين والفقراء ولا يتسامح ، حتى مع الارحام والاصدقاء ويتآمر ، حتى على بلاده ، ويهتف للمجرمين والمخربين . . . او يلقي القنابل المهلكة على النساء والاطفال والآمنين ويحول العمار إلى خراب وبوار ، ثم يطلب الرحمة والمغفرة . . . أليست الرحمة مع هذا المجرم معناها الرضا عنه ، وتشجيعه على اجرامه ؟ . . . ان الرحمة بالناس وبالانسانية جمعاء ان تحطم القنابل المدمرة . . . ومن هنا قيل : ليس من العنف القضاء على العنف .

الثواب :

اتفق العلماء على ان العاصي يعاقب بالاستحقاق ، واختلفوا : هل يثاب المطيع بالاستحقاق ، او بالتفضيل ؟ .

وفي كلام الإمام زين العابدين عليه افضل الصلوات ما يدل على انه بالتفضل ، وان الله سبحانه إذا لم يثبت المطيع فلا يكون له ظلاماً ، قال مناجياً ربه :

﴿ لا يَجِبُ لأحَدٍ أنْ تَغْفِرَ لَهُ بِاسْتِحْقَاقِهِ ، وَلاَ أنْ تَرْضَى عَنْهُ بِاسْتِيجَابِهِ ، فَمَنْ غَفَرْتَ لَهُ فَبِطَولِكَ ، وَمَنْ رَضِيتَ عَنْهُ فَبِفَضْلِكَ ﴾ .

أبواب الرحمة

الآلة الكاشفة :

استطاع علماء اليوم ان يخترعوا آلة تكشف وتصور ما تحدث من خلل ومرض في امعاء الانسان ودماغه وعظامه ، وكل ما في باطن الجسم ، ولكنهم – حتى الآن – لم يهتدوا إلى آلة تعرفهم بنفسه ، وما فيها من خبث وحقد وجهل وغرور .

وايضاً استطاعوا ان يجعلوا عضواً صناعياً مكان آخر طبيعي ، يؤدي وظيفته كاملة ، كيد مكان يد . ورجل مكان رجل ، ولكنهم – حتى الآن – عجزوا عن اختراع آلة تطهر النفوس من الرذائل ، وتغرس فيها بذور الفضائل .

عند الإمام :

وعند الامام زين العابدين (ع) آلة واحدة تكشف للمرء عن جميع ما في نفسه من عيوب . وفي الوقت ذاته تطهرها من جميع الشوائب ، وتغرس مكانها الاخلاق الفضلى ،.والمثل العليا . . . انها آلة ، ولكن ليست من نوع ما تخرجه المصانع ، ولا تحتاج إلى وقود كوقودها . . . انها كلام ، ولكن لا من نوع ما يقال ، انها « الصحيفة السجادية » ، او مزامير الامام زين العابدين (ع) التي فاقت ببهائها وجلالها مزامير داود (ع) .

هل تريد ان تعرف من انت وإلى اين مصيرك ؟ . هل تريد ان تنتصر على شهواتك ، وتتغلب على اهوائك المعربدة ؟ . هل تريد ان تكون إنساناً كاملاً ، بل ملاكاً ؟ ، إذن اقرأ هذه الصحيفة ، اقرأها ، ثم قارن بين حاليك ، قبل القراءة ، وبعدها . فلقد قرأت كثيراً . وسمعت كثيراً ، ولكنك لم تقرأ ولم تسمع ما يرجع بك إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها . . . كل الناس يدعون الله ويناجونه ، ويتضرعون إليه ، ولكن الامام زين العابدين دعا بعد ما شاهد الله ورآه ، وبعد ان عرف ما كان . وما هو عليه الآن . وإلى اين المصير .

قد تمر بأحدنا في وقت لحظة مباركة مشرقة ، اما ان تكون جميع اوقاته نوراً واشراقاً ، اما ان تفتح له ابواب السماء في كل آن وحين فتلك خاصة لأهل بيت الطهر والنبوة ، وهم وحدهم – بعد الانبياء – الذين عرفوا عظمة الخالق وجلاله . وصفاته وكماله ، واوضحوا سبيل الهداية إلى رحمته . وهم وحدهم الذين عرفوا الدنيا بسيئاتها وحسناتها . ووضعوا الدلالات والعلامات على كل واحدة واحدة من هذه الحسنات والسيئات . . . وهم وحدهم الذين أدركوا حقيقة الانسان . وما فيه من اسقام واوهام ، ووصفوا لكل داء دواء . وهم وحدهم الذين يحرصون كل الحرص على ان يعيش الانسان في هذه الحياة شريفاً سليماً ، وفي آخرته سعيداً كريماً . . . كل هذا . وما إليه تجده جلياً واضحاً في ادعية الصحيفة السجادية للامام زين العابدين (ع).

الدعاء عند الإمام :

الدعاء عند الامام واجب لا ندب . وضرورة ملحة لا تسلية واستمتاع ، ولا ادل على ذلك من قوله :

وقلت – الخطاب لله تعالى – :

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ، فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً ، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً ، وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

فلكل شيء دعاء عنده . . للمهات والاستعاذة ، والعافية ، ولمكارم الاخلاق ، والشكر ، والتوبة ، إلى ما لا نهاية . وليس معنى هذا انه يطلب الدنيا والآخرة بالدعاء وحده ، وبدون عمل ، بل يعمل ويبذل كل ما في طاقته وجهده . وهو يلوذ بالله . ويتجه إليه بكلمات هي العمل بالذات ، والنضال المثمر . وهنا سر الاعجاز . كلمات : ولكنها أحلى مذاقاً من الشهد ، واذكى اريجاً من الورود ، واعظم تأثيراً من السحر ، كلمات ولكنها تنير العقول ، وتحيي النفوس ، وتبعث فيها الأمل ، وتطهرها من الرجس والدنس وتغرس فيها الفضيلة والثقة والايمان ، الايمان بشجاعتها على نقد ذاتها بذاتها ، واعلان عيوبها ، ثم بالتوبة والانابة ، وآيات تشع بنور الله وبهائه وجلاله وابتهالات تعبر تعبيراً حياً وصافياً عن شخصية الآل الكرام واخلاقهم وعظمتهم التي لا شيء فوقها الا عظمة الخالق القهار .

الأمل :

وتعال معي الآن لنقرأ هذه المناجات للامام زين العابدين :

﴿ اللّهمّ هذا مقامُ العائذِ بكَ ، ومحلّ المعترفِ لكَ ، فلا يضيقنّ عنّي فضلكَ ، ولا يقصرُ بي دُونكَ ، ولا أكنْ أخيبَ عبادكَ التائبينَ ، ولا أقنطَ وُفودكَ الآملينَ ، فاغفرْ لي . إنّكَ خيرُ الغافرينَ . اللّهمّ إنّكَ أمرتني فتركتُ ، ونهيتني فركبتُ . وسوّلَ لي الخطأ خاطرُ السّوءِ ففرّطتُ ﴾ .

ومن دعاء آخر :

﴿ يا حليمُ أنتَ الذي فتحتَ لعبادكَ باباً إلى عفوكَ ، وسمّيتَه التّوبةَ ، وجعلتَ على ذاكَ البابِ دليلاً مِنْ وحيكَ ، لئلاّ يضلّوا عنْهُ ، فقلتَ تباركَ اسمكَ : توبوا إلى اللهِ توبةً نصُوحةً ، عسَى ربّكمْ أنْ يكفّرَ عنكمْ سيّئاتكمْ ، ويُدخلكمْ جنّاتٍ تجري مِنْ

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ... فَمَا عُذْرُ
مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ المَنْزِلِ
بَعْدَ فَتْحِ البَابِ ، وَإِقَامَةِ
الدَّلِيلِ ﴾ .

يقول الامام :

﴿ إلَهِي ، لَقَدْ أَمَرْتَ وَنَهَيْتَ
وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ ،
وَلَكِنَّ خَاطِرَ السُّوءِ أَمْسَكَ بِي
عَنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَأَوْقَعَنِي
فِيمَا لا تُحِبُّ ، وَلا تَرْضَى ،
وَقَدْ أَمَرْتَنِي فِي حَالِي هَذِهِ أَنْ
أَطْرُقَ بَابَ التَّوْبَةِ آسِفاً نَادِماً ،
وَهَا قَدْ فَعَلْتُ ، وَأَتَيْتُكَ تَائِباً ،
فَافْتَحْ لِي بَابَ رَحْمَتِكَ
وَغُفْرَانِكَ ﴾ .

وإذا كان هذا الخطاب من الامام لله جل وعز ، فانه في الوقت نفسه خطاباً لي ولك — ايها القاريء — ولكل من سولت له نفسه الخطايا والذنوب ، انه خطاب للناس اجمعين ان لا ييأسوا ولا يقنطوا ولا يصروا على معصيته ، فان الله يرحم ولا يعرف الحقد ، لان الحقد شأن الضعفاء والجبناء ، والله قوي عزيز ، وبهذا الامل تنتعش الارواح ، وترجع إلى بارئها ، وتتحرر مما يشين.

وكلنا يعرف قصة المرأة الساقطة التي قبضوا عليها مع عاشقها بالجرم المشهود . واتوا بها إلى السيد المسيح (ع) ، ليقيم عليها الحد . فعنفهم . واطلق سبيلها : فكان رفقه بها سبباً لتوبتها ، وسلوكها سبيل الصون والعفاف : حتى اصبح الحرام ابغض الاشياء إلى نفسها .

ان رحمة الله ومغفرته لا تفتح ابوابها لمن جحد وعاند . واصر على ضلاله وغوايته . اما من تاب واناب فان نصيبه من الله الرضوان والثواب . . . ان الله جل وعز لا يعطي الحجر لمن استجار برحمته . ولاذ بجوده وكرمه .

أيهما نختار ؟

لو افترض ان انساناً قال لك : إذا خيرت بين الفقر والغنى ، فماذا تختار ؟ . او بين الصحة والمرض ، فأيهما تفضل ، لو سئلت مثل هذا لقلت للسائل — انت مجنون . . . لان الناس تسأل عن المتشابهات والمشكلات . وانت تسأل عن الواضحات والبديهات .

ولو غيّر صيغة السؤال ، وابرزه بهذا الاسلوب ، وقال : امامك طريقان : احدهما شاق وعسير ، ولكنه يؤدي بك إلى الغنى والثروة ، والآخر سهل يسير ، ولكنه يؤدي بك إلى العوز والفقر ، فأيهما تسلك ؟ . لو قال هذا لا تقول له : انت مجنون ، بل تقارن وتوازن بين مشقة الطريق واضراره ، وبين ما يترتب على سلوكه من منافع وفوائد ، فان كانت تستأهل تحمل هذي المشاق والاضرار اقدمت ، والا احجمت .

وقد رأينا العقلاء يركبون البحار ، ويقطعون القفار ، ويجازفون من أجل نفع محتمل ، وربح مظنون ، ويسخون بأموال طائلة ، لفائدة قد تحصل ، وقد لا تحصل ، اذن ، فالغاية هي المسوغ والمبرر ، وايثار الآجل الاعلى على العاجل الادنى هو الباعث والمحرك .

وإذا اشتهيت نوعاً خاصاً من الطعام ومالت إليه نفسك فانك تحجم عن

تناوله بطيب نفس إذا نهاك عنه الطبيب ، وعلمت انه مضر بصحتك ، والسر هو الموازنة بين الآجل والعاجل . وترجيح الأول على الثاني . فالانسان بفطرته يوازن ويقارن بين خير حاضر يؤدي إلى الشر ، وبين شر حاضر يؤدي إلى الخير . ويأخذ بالكفة الراجحة ، وقد اعتمدت هذا المبدأ جميع الشرائع السماوية والوضعية . وبنت عليه احكاماً شتى ، وإليه اشار القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ . البقرة ٢١٩

وتقول : إذا كان هذا المبدأ فطرياً ، ومدعماً بالقرآن والشرائع ، فكيف سلك الكثيرون الطريق المؤدية إلى النار . وآثروها على طريق الجنة ؟ . أتقول : انهم غير عقلاء او لا يدينون بدين ؟ . والمفروض انهم عقلاء . وانهم يؤمنون بالله وثوابه وعقابه .

الجواب :

كلا نحن نثق بعقلهم ، لانهم من اهل التميز والادراك ، وايضاً نثق بعقيدتهم ، لانهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولكن لا نثق بارادتهم . . . انهم ضعاف الارادة ، اقوياء العاطفة ، لا يملكون انفسهم إذا مالت ، وشهواتهم إذا طغت ، تماماً كالمريض تغلبه نفسه إلى الطعام المضر ، وكالتلميذ الكسول يؤثر الراحة على الجد ، وهو يعلم ان الكسل يؤدي إلى الفشل . وان النجاح خير الف مرة من الرسوب .

وبالتالي فان العاقل إذا رأى طريقاً جميلاً ومريحاً لا يبادر إلى سلوكه قبل ان يعرف إلى اين ينتهي .

الترغيب في الخير

الامام زين العابدين (ع) هو سيد الواقعيين ، وامام العارفين ، ومع ذلك يطلب من الله اشياء واشياء، ويلح عليه بالسؤال ، ويستعجله بالاجابة ، والاشياء التي يطلبها الامام من الله سبحانه ليست من نوع الصحة ، وطول العمر ، وما إليه مما لا يدخل في مقدور الانسان فحسب ، بل يسأله ايضاً ان يخلصه من الحسد ويبتعد به عن المعاصي والذنوب قال :

﴿ اللّهمَّ صَلِّ عَلَى محمّد وَآلِ محمّد ، وَخلِّصْني مِنَ الحَسَدِ ، وَاحْصُرْني عَنِ الذّنوبِ، وَوَرِّعْني مِنَ المَحَارِمِ ، وَلا تجرّئني عَلَى المَعَاصي ﴾ .

وتقول : ان هذه وما إليها تعود إلى قدرة الانسان واختياره ؛ لذا طلبها الله من عباده ، وكلفهم بها ، فعلينا نحن ان نبتعد عن الذنوب ؛ ونتورع عن المحارم ، ولا نتجرأ على المعاصي باختيارنا ، لا ان نطلب من الله جل وعلا ان يحملنا على ذلك .

وقبل ان نجيب نمهد بهذا المثال : والد طلب من ولده ان ينصرف إلى الدرس ، ويوليه العناية والاهتمام ؛ كي يتجاوز الامتحان بنجاح ، فطلب

الولد بدوره من ابيه ان يهيء له جواً صالحاً للدراسة ، كي لا يعوقه شيء . . . وليس من شك ان الوالد إذا عرف الاخلاص من ولده ، وصدق النية والعزم يخصص له غرفة مستقلة هادئة ، وينفق عليه بسعة ، ويعفيه من جميع الخدمات ويختار له استاذاً خاصاً يعينه على تفهم دروسه إذا اقتضى الامر ، اما إذا كان يائساً منه ، وعلى يقين من عدم رغبته . وكذبه في اقواله فانه يهمل طلبه لعلمه بعدم الفائده والجدوى .

وبهذا يتبين معنا انه حين نطلب من الله سبحانه ان يجعلنا طائعين غير عاصين فإنا نطلب منه ان يمهد لنا الاسباب . ويهيء الجو الصالح للطاعة ، وعدم المعصية ، وبكل تأكيد ان الله متى عرف منا الصدق والنصح فانه يتكرم ويتفضل بالهداية والتوفيق ، والاعراض واهمل ، وبهذا نجد تفسير قول الامام زين العابدين (ع) :

﴿ اللَّهُمَّ وَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ إِلاَّ بِعِصْمَتِكَ ، وَلاَ اسْتِمْسَاكَ بِي عَنِ الخَطَايَا إِلاَّ بِقُوَّتِكَ ، فَقَوِّنِي بِقُوَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَتَوَلَّنِي بِعِصْمَةٍ مَانِعَةٍ ﴾ .

بل ان الإمام طلب من الله سبحانه ان يمنحه الرغبة في العمل له ، ولآخرته ، قال :

﴿ اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي الرَّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ لَكَ وَلآخِرَتِي ﴾ .

وإذا كان الولد لا يطلب من ابيه ان يمنحه الرغبة في الدرس فان على الاب الدرس فان على الاب ان يوجد له اسباب الرغبة ، ويبين له ثمرات الجد والنشاط وعاقبة الاهمال والكسل . ويقدم له الشواهد ويضرب له الامثال ، تماماً كما يفعل التجار حين يبثون الدعايات لـ لمعهم . وكذا تفعل المدارس والجامعات حين تقدم الجوائز والمنح للمتفوقين ؛ وقد رغبنا الله جل وعز في الحق والخير ، وكرهنا في الباطل والشر حين صوّر كلاً على مثاله ؛ وارشد إلى طريقه ، وحين اثنى على المطيع ؛ وقربه منه ، ووعده بأجزل الثواب ؛ وحين ذم العاصي ؛ وابعده عن رحمته ؛ وتوعده بأشد العقاب . . . فان لم نعمل ونمتثل كنا نحن المسئولين دون غيرنا . وصدقت علينا الآية الكريمة :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ .

فصلت ٤٦

وهنا شيء ، وهو انّا قد رأينا الالوف لا تؤثر فيهم الدعايات ؛ حتى الصادقة منها ؛ ولا الوعد والوعيد ؛ فكم من تلميذ كره الدرس ، وانصرف عنه بعد ان اعيت الحيل وغير الحيل اولياؤه واساتذته واطباؤه . . . وكم من انسان يتلو كتاب الله ، ويقرأ الاحاديث ، ويسمع الوعاظ والمرشدين ، ومع ذلك يعرض وينأى بجانبه ، ولا يزيده الوعد والوعيد الا اصرارا وخسارا ؛ ذلك ان المرغبات والمشوقات لم تخلق فيه الميل والارادة لفعل الخير وترك الشر . . . وبديهة ان الارادة ليست امراً اختيارياً ، وانما تنشأ من ظروف وملابسات لا يسيطر الانسان على شيء منها ، وإذا لم تكن الارادة بالقدرة والاختيار يكون الصادر عنها كذلك . . . لا يدخل تحت القدرة ، وعليه يكون الانسان مسيراً غير مخير ، لا حيلة له ولا وسيلة ، فكيف ساغ سؤاله وعقابه ؟

هذا ، من ناحية ، ومن ناحية ثانية ان الله سبحانه قادر على عباده . وافعالهم وتروكهم ، فإذا اراد الخير وكره الشر منهم ، فلماذا لا يحملهم على فعل ذاك . وترك هذا ؟ .

وجوابنا عن الجهة الأولى وهي ان معنى الانسان مسير غير مخير ان الفعل يصدر عنه بارادته واختياره ، وهذا ما حصل بالوجدان ، اما ان الارادة قد صدرت بدون ارادة واختيار فكلام آخر . . . على ان الارادة . وان كانت امراً قهرياً لا تمت هي ولا اسبابها بصلة إلى الاختيار ، فان ترتب الاثر عليها . والاندفاع وراءها امر اختياري لا يخرج من الطاقة والمقدرة . فلقد رأينا المريض يحجم عن الطعام المضر ، وهو مريد له ، ويشرب الدواء المر . وهو كاره لشربه ، ورأينا العقلاء يذمون الطالب الكسول على كسله ، مع علمهم . بأنه مريد للكسل ، وان الارادة قهرية لا ارادية ، ورأيناهم يذمون المجرم ، ويعاقبونه ، وهم يعلمون ان الجريمة صدرت عن ارادته ، بل ان ارادته هذه ادعى واوكد عندهم للعقاب ، بل هي المسوغ والمبرر له فالارادة – اذن – اشبه بالحسد والطيرة والوسوسة التي نهى الرسول الاعظم (ص) عن العمل بموجبها : لانه مقدور . ولم ينه عن هذه الصفات ، لانها قهرية لا اختيارية ، قال (ص) :

﴿ إذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلا تَبْغِ ﴾ . . .

فلم ينه عن الحسد والطيرة بالذات ، بل نهى عن اثرهما بموجبهما .

أما جوابنا عن الجهة الثانية فهو ان الله اراد الفعل والترك من الانسان برضاه واختياره ، بحيث يفعل الخير ، وهو قادر على تركه ، ويترك الشر ،

وهو قادر على فعله ، والا لو الجيء إلى الفعل فقط ، او الترك فقط لانتفت عنه الانسانية ، واصبح آلة صماء لا يستحق مدحاً وثواباً ، ولاذماً وعقاباً .

ثم لن اختيار الانسان في فعل ما امر الله به . وترك ما نهى عنه لا يتنافى ابداً في ان يكون في ظروف خاصة تخرج عن ارادته ، وان يكون لهذه الظروف نوع من التأثير فيما يفعل ، او يترك . وإليك هذا المثال :

رجل جائع دعي إلى شهادة الزور لقاء مبلغ من المال . فهو من جهته هذه يبدو انه مضطر إلى الكذب . ولكنه من جهة ثانية يستطيع أن يضغط على ارادته ، ويصبر يوماً او بعض يوم ، ويجتهد في البحث عن سبيل مشروع ويطرق من اجله كل باب . فإذا تعجل ولم يصبر كان آثماً وان كان جرمه دون جرم المتخمين . اما إذا صبر ولم يشهد فيضاعف له الاجر مرتين ، مرة على الترك . واخرى على الصبر .

وفي هذه الحال تعرف الرجال . وتميز الدين الصحيح من الزائف . والايمان القوي من الضعيف ، فالمؤمن حقاً يطيع الله في العسر واليسر . والصحة والمرض . والرضا والغضب . لا في حال دون حال . قال الامام زين العابدين (ع) :

﴿ اللّهمَّ ارْزُقْنِي التَّحَفّظَ مِنَ الخَطَايَا وَالاحتِرَاسَ مِنَ الزلَلِ في حَالِ الرِّضَا وَالغَضَبِ ، حَتّى أكونَ بِمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْهما بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءَ ، عَامِلاً بِطَاعَتِكَ مؤْثِراً لِرِضَاكَ في الأوْلِيَاءِ وَالأعْدَاءِ ، حتّى يَأمَنَ عَدُوّي مِنْ ظُلْمي وَجَوْرِي ﴾ .

وبيت القصيد في هذه المناجاةهوقوله(ع) : مؤثراً لرضاك في الأولياء والاعداء ، فلا يجحد لعدوه من خلق وفضل ، ولا ينسب إليه ما ليس فيه من سوء وجهل تشفياً وانتقاماً . . . ولا اعرف مختبراً لمن يدعي النيابة عن الامام اصح وادق من هذا المختبر ، ولا ميزاناً لايمانه اعدل واصدق من هذا الميزان ان الذي ينفس عن غضبه بتجريح الأبرياء وايذائهم ليس من الله في شيء ، فكيف بمن يلوّن هذا التجريح والايذاء بلون الدين ، ويزعم انه بوحي من الله ورسوله ؟ . . تعالى الله ورسوله عن ذلك علواً كبيراً .

لا حجة ولا عذر :

واعقب على ما قدمت من ان الإنسان مخير مسير بهذه الحجة البالغة التي اودعها الله عند اوليائه واحبائه ، قال الامام زين العابدين :

﴿ وَضَعَ اللهُ عَنّا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا إلاَّ وسْعاً ، وَلَمْ يُجَشِّمْنَا إلاَّ يسْراً ، وَلَمْ يَدَعْ لِأحَدٍ مِنّا حجّةً وَلا عذْراً ﴾ .

ميتة السوء

قضت الحكمة الالهية ان لا يعلم الانسان ، حتى سيد الانبياء والرسل ، متى يأتيه اجله ، فإذا خرج من بيته لا يضمن ان يعود إليه ، وإذا دخله لا يدري : أيخرج منه واقفاً على قدميه ، او محمولاً على الاعواد . بل في كل ثانية يرتقب ان لا يبلغ التي بعدها ، ويبقى حياً ليأخذ النفس الثاني ، حتى ولو كان في مقتبل العمر سليماً من الاعراض والامراض ... هذه حقيقة واقعة تنبهنا إليها ، او لم نتنبه ، عملنا بموجبها ، او لم نعمل ... انها تلازم طبيعة الحياه بما هي ، ولا تختلف باختلاف الظروف والملابسات .

وقد سأل الامام زين العابدين ربه جل وعز ان لا ينأى به عن هذه الحقيقة ، وان يجعلها نصب عينيه ابداً ودائماً في جميع اعماله وتصرفاته ، قال :

﴿ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَاكْفِنَا طُولَ الأَمَلِ ، وَقَصِّرْ عَنَّا بِصِدْقِ العَمَلِ ، حَتَّى لا نُؤَمِّلَ اسْتِتْمَامَ سَاعَةٍ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَلا اسْتِيفَاءَ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ ، وَلا اتِّصَالَ نَفَسٍ بِنَفَسٍ ، وَلا لُحُوقَ قَدَمٍ بِقَدَمٍ ﴾ .

ومرة ثانية وثالثة اعد معي - ايها القاريء - هذه المناجاة . فانها حتماً ستخفف من غلواء نفسك . وتكبح من جماعها وكبريائها ، ان حاولت ان تشطح وتطفح . وانها ستصبر وتنتظر - لامحالة - إذا بليت بالمصائب والمتاعب كرر هذه المناجاة صباح مساء فانها وسيلة إلى التواضع والخشوع . وإلى الايمان والتقى . والحب والتسامح .

ان العاقل إذا وضع الموت نصب عينيه عمل بوحي منه . تماماً والسيف مسلط على رأسه . وهذا احد الفروق بين من عمل على اساس الشعور بالمسئولية والحساب بعد الموت . وبين من عمل بدون هذا الشعور غير مكترث بشيء .

فالأول لا يخشى الموت ، بل يطلبه ويأنس به . لانه واثق بما اعده الله له من الخيرات والمسرات . تماماً كالبريء ينشد العدالة ويستعجلها . . . حين رأت فاطمة (ع) اباها يجود بنفسه ، صاحت « واباه » فقال لها الرسول الاعظم (ص) :

﴿ لا خَوْفَ عَلَى أبيكَ بَعدَ المَوْتِ ﴾ .

وقال علي امير المؤمنين (ع) حين ضربه ابن ملجم :

﴿ فزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ ﴾ .

وقال :

﴿ إنَّ ابْنَ أبي طَالِبٍ آنَسَ بِالمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِمَحَالِبِ أمّهِ ﴾ .

والسر هو الثقة بالراحة والثواب بعد الموت . على عكس الثاني ، فانه يكره الموت وذكره ، ويستوحش منه ومن تصوره ، لانه يسرع به إلى الحساب ويفتح عليه باب الخزي والعذاب . قال سيد الساجدين وامام العابدين :

﴿ وَانْصِبِ الْمَوْتَ بَيْنَ أَعْيُنِنَا نَصْباً ، وَلا تَجْعَلْ ذِكْرَنَا لَهُ غِبّاً ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ عَمَلاً لا نَسْتَبْطِىءُ مَعَهُ المَصِيرَ إِلَيْكَ ، وَنَحْرِصُ لَهُ عَلَى وَشْكَ اللَّحَاقِ بِكَ ، حَتَّى يَكُونَ المَوْتُ مَأْنَسَنَا الَّذِي نَأْنَسُ بِهِ ، وَمَأْلَفَنَا الَّذِي نَشْتَاقُ إِلَيْهِ ... وَاجْعَلْهُ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ مَغْفِرَتِكَ ، وَمِفْتَاحاً مِنْ مَفَاتِيحِ رَحْمَتِكَ أَمِتْنَا مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ ، طَائِعِينَ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ تَائِبِينَ غَيْرَ عَاصِينَ ، وَلا مُصِرِّينَ ، يَا ضَامِنَ جَزَاءَ المُحْسِنِينَ ، وَمُسْتَصْلِحَ عَمَلَ المُفْسِدِينَ ﴾ .

ليست ميتة السوء ان يموت المرء خنقاً بالغازات السامة ، أو دفناً تحت الركام والحطام . او غرقاً في البحار والأنهار ، او دهساً بالشاحنات والقطارات

او سقوطاً من علو . . . ان ميتة السوء ان يموت المرء ، والله عنه غير راض وان يلاقيه بسواد الوجه ، وبذنوب كبار ثقال .

اما ميتة العز والخير فهي التي طلبها الامام زين العابدين من ربه جل وعز قال : « اللهم صل على محمد وآل محمد ، واقبض على الصدق نفسي ، واقطع من الدنيا حاجتي ، واجعل فيما عندك رغبتي شوقاً إلى لقائك » .

فمن مات على الحق والصدق راغباً بعمله فيما عند الله ، منقطعاً عما سواه مات عزيزاً مكرماً ، وان لم يشيعه المشيعون ، ويمدحه المؤبنون .

إرحم نفسك

لنفترض وجود رجلين : احدهما من اصحاب الملايين ، والجاه الطويل العريض ، والأخير يهيم في الارض، ولا يأتي بخير ، قد اغلقت في وجهه جميع الابواب ، وفشل في كل شيء، حتى تحطمت اعصابه ، وحاول الانتحار لانه السبيل الوحيد لخلاصه فيما يرى .

فقال له صاحب الجاه والمال : مهلاً ، فان عندي جميع ما تبتغيه ، وانا على اتم الاستعداد لامنحك الثراء والكرامة بلا ثمن ولا امتنان ، على شريطة ان تكون طيباً حسن السيرة مع الناس ، ممدوحاً وغير مذموم من معارفك . . . وهذا الشرط — كما ترى — فضل على فضل ، ونور على نور . . . فإذا رفض هذا العطاء المشروع لخيره ومصلحته فهو مجنون ، وان تقبله ولم يعمل به فهو خائن محتال ، او ضعيف لا يستاهل الحياة ، ولا شيء منها في منطق العقلاء .

وقد وهب الله سبحانه الوجود والحياة للانسان ، ولم يكن شيئاً مذكوراً ومنحه السمع والبصر والفؤاد ، واعطاه دنيا تزخر بالخير والهناء، وتفيض بالجمال والبهاء ، اعطاه الكون بأرضه وسمائه ، وجميع كواكبه ، وقال له : تمتع به كمالك اصيل ، لا كضيف خفيف او ثقيل ، ولا ابتغي منك جزاء ولا عوضاً ، وانما الذي اريده شيء واحد ، وهو عليك سهل يسير ،

يس من شأني التكليف بما لا يطاق . . . ولا ضرر عليك فيه ولا حرج ، إذ ضرر ولا حرج في شرعي وشريعتي . ولا يحط شيئاً من كرامتك . فلقد كتبت على نفسي الرحمة والكرامة للبشرية جمعاء ، وهذا الذي ادعوك ليه هو عين ما يأمر به العقل والضمير : لانه يعود عليك وحدك بالنفع الجزيل : ولا ينالني منه كثيراً ولا قليلاً ، فأنا غني عن كل شيء . ولا غنى عني لشيء .

اريد ان تكون صادقاً في اقوالك ، مخلصاً في افعالك ، تنزه نفسك عن الحقد والضغينة ، وعن كل ما يشين ، ان لم تسم بها إلى ذرى الفضائل والمكرمات لقد خلقتك انساناً سوياً ، فلا تنتحل صفات الافاعي والثعالب ، اني اريدك عادلاً لا ظالماً ، وصريحاً لا مراوغاً ، ومحباً للانسان لا عدواً للانسانية . لانك بهذا تعادي نفسك بنفسك ، بل اريدك محباً لكل شيء . لان الانسانية تتسع لكل شيء .

هذا هو عطاء ربك الذي لا تجده عند غيره . . . حياة وكون وعقل . تستغله لهنائك وسعادتك ، وهذا شرطه جل وعز ، وهو ان تحافظ . وتحتفظ بالخير لنفسك ، وتثبت انك جدير به ، واهل له . تماماً كالوارث العاقل الذي يحفظ الثراء الموروث ، ويصونه عن التلف والضياع ليتمتع به وبمنافعه ، قال الامام زين العابدين (ع) :

﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَكَّبَ فِينَا آلاتِ البَسْطِ ، وَجَعَلَ لَنَا أدَوَاتِ القَبْضِ ، وَمَتَّعَنَا بِأَرْوَاحِ الحَيَاةِ ، وَأَثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الأعْمَالِ ، وَغَذَّانَا بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ ، وَأَغْنَانَا بِفَضْلِهِ ، وَأَقْنَانَا بِمَنِّهِ ﴾ .

وليس من شك ان من يخالف عن امر الله – بعد هذه النعم – ولم يؤده على وجهه فان فيه خللاً وشذوذاً . . . وليت شعري بأي شيء يتذرع من لم يسمع ويمتثل ؟ . هل يجحد الخالق من الاساس ؟ . اذن ، فقد نصب نفسه قاضياً يحكم على الله والكون بغير علم ولا هدى ؛ وهذا هو النقص والخلل . وليس من الضرورة إذا كان شاذاً من جهة ان يكون كذلك من كل الجهات . . . فلقد وصف الله سبحانه الجاحدين بالعمى والبكم والصمم ؛ وعدم الادراك مع العلم بأنهم يبصرون ويسمعون ويتكلمون ويعقلون اشياء واشياء ، قال عز من قائل :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ . البقرة ١٧٠

وتقول ما دام الله تبارك اسمه قد امر الانسان بما فيه خيره وصلاحه فلماذا لا يعاجله بالعقوبة في هذه الحياة إذا خالف ولم يطع ، ليتعظ هو وكل من خالف وتمرد ، ويقف الجميع عند حدود الله وتعاليمه ؟ .

الجواب :

أولاً : لو عجل الله العقوبة للعاصي لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ولما كان لفاعل الخير من فضل ، لان من فعل قهراً كمن ترك عجزاً . كلاهما لا يستحق مدحاً ولا ثواباً . . . ان الله سبحانه اراد من الانسان فعل ما امر به ، وترك ما نهى عنه اختياراً لا اكراهاً ، وتخيراً لا اجباراً .

ثانياً : ان قيام الحجة على العاصي لا ينحصر بتعجيل العقوبة له ، فان الحجج التي اقامها الله جل وعز من ارسال الرسل ، وقيام الآيات البالغة لا يحصيها العد .

ثالثاً : ان ارجاء العقوبة انما هو رفق بالعاصي ، ولمصلحته بالخصوص، كي يستدرك ، ويرجع إلى ربه ، ويتوب من ذنوبه . قال الإمام زين العابدين (ع) :

فأما العاصي امرك — الخطاب لله جل وعلى — والمواقع نهيك فلم تعاجله بنقمتك ، لكي يستبدل بحاله في معصيتك حال الانابة إلى طاعتك ، ولقد كان يستحق في اول ما هم بعصيانك كل ما أعددت لجميع خلقك من عقوبتك ، فجميع ما اخرت اه من العذاب ، وابطأت به عليه من سطوات النقمة والعقاب ترك من حقك ، ورضى بدون واجبك ، فمن اكرم منك يا إلهي ». وقال : « ليس في حكمك ظلم ، ولا في نقمتك عجلة وانما يعجل من يخاف الفوت ، وانما يحتاج إلى الظلم الضعيف » .

وبعد ، فان افضل الشكر لله ،وعند الله ان ترحم نفسك : وتحليها بما يزين ، وتبتعد بها عما يشين ، وبهذا وحده يستخلصك الله لنفسه . ويقربك من رحمته .

الحجاج :

نقل عن الحجاج انه قال : امرنا الله بطلب الآخرة وضمن لنا مؤونة الدنيا فيا ليته ضمن لنا الآخرة ، وامرنا بطلب الدنيا . وحين نقل قوله هذا إلى الحسن البصري قال : ضالة مؤمن عند فاسق .

وان دل هذا على شيء فانما يدل على غباوة البصري وغفلته ، وعلى حرص الحجاج على الدنيا ، واهتمامه بها ، واعراضه عن الله والآخرة ، ولو فعل الله ذلك لتكالب الناس على الدنيا وتقاتلوا عليها أضعاف اضعاف ما يفعلونه الآن ، ولما عرف الصالح من الطالح ، والحق من الباطل ، ولما لعن الحجاج واسياده على كل لسان إلى يوم يبعثون ، وهذا ما يهدف إليه الحجاج . . . وإذا كان الله سبحانه لم يضمن الآخرة للحجاج ، ومع ذلك فعل ما فعل ، وملأ الدنيا ظلماً وجوراً ، فكيف لو ضمنها له ولامثاله ؟ ! . . .

السعادة

من هو السعيد ؟

منذ آلاف السنين ، واهل المعرفة يتكلمون فيالسعادة ومعناها ، وكل يحددها بتحديد ، ويعرفها بتعريف . . . فمنهم من يراها في الجاه والمال ، ومنهم من يراها في الانتصار على الخصوم ؛ ومنهم من قال : انها في عمل الخير ، واسعاد الغير ، وقال آخرون : انها معرفةالحقيقة . وذهب كثيرون إلى انها اشباع الغرائز والرغبات . والقول الشائع : ان من توافرت له الصحة والامان ، وسعة الرزق ، والمكانة الاجتماعية والزوجة الصالحة ، والصديق الوفي فهو سعيد .

لا سعادة في هذه الحياة :

وليس من شك ان الدنيا لا تصفو لانسان من جميع الجهات ، فان كان في يسر من العيش شكى الامراض والاسقام ، وان جمع بين الصحة والثراء شكى من بيته او ارحامه اوخصومه، وما إلى ذلك . . . قال الامام امير المؤمنين (ع) :

﴿ وإن جانباً منها اعذوذب واحلولى
أمر منها جانب فأوبى ، لا ينال امرؤ
من غضارتها رغباً إلاّ أرهقته من
نوائبها تعباً ﴾ .

اذن لا سعادة مطلقة في هذه الحياة ، وبالتالي لا شيء تقاس به لعدم الموضوع من اساس ، اجل ، ان من يرى نفسه سعيداً فهو سعيد عند نفسه ، لا في الواقع (1) ولكن اخشى ان يصدق عليه قول القائل : ما لذة العيش الا للمجانين » وبديهة ان كل من لا يفكر بآلام الناس ، ولا يهتم بما يجري حوله فهو مجنون ، او في حكمه .

وإذا افترضنا جدلاً ان الانسان قد يشعر بالغبطة والسعادة في حياته هذه بشتى جهاتها ، ويجمع بين الجاه والمال ، والصحة والامان ، والزوجة التقية النقية ، والابناء المخلصين الابرار ، والاصدقاء الاوفياء الاخيار ، وانه لا يهتم بمن عداه ابداً ، إذا افترضنا ذلك فان فكرة الموت وسكرته ، والقبر ووحشته تهدم جميع ملاذته ، وتعكر عليه صفو حياته .

لما حضرت الوفاة عبد الملك بن مروان قال : ليتني كنت غسالاً ، اعيش بما اكسب يوماً بيوم . . . فقال احد الزهاد : الحمد لله الذي جعل الملوك عند الموت يتمنون ما نحن فيه ، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه .

السعادة الحقة :

ان السعادة الحقة المطلقة الخالصة من كل عسر وشقاء لا توجد ، ولن توجد الا في الآخرة عند الله جل وعلى . . . وان كان لها من اثر صحيح

(1) إن مجرد الشعور بالسعادة لا يجعل الإنسان سعيداً ، فربما كانت عاقبته أشد من عاقبة البؤساء في هذه الحياة . قال الإمام الصادق (ع) : المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، باع الأفضل بالأدنى ، وقال : إن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعلمه منك ، وأضيع عمراً ، فأورثت حسرة يوم القيامة .

في الدنيا فهو الشعور بمرضاة الله ، وراحة الضمير ، والتحرر من المعصية ، والعمل بالطاعة ، والثقة بالله وثوابه ، قال الحكماء : كل مطيع مستانس ، وكل عاص مستوحش .

بلاء الدنيا وبلاء الآخرة :

وقد تحمل العارفون بالله الكثير من بلاء الدنيا بصبر وشجاعة ، وخافوا واضطربوا من اقل القليل من بلاء الآخرة وعذابها ، وآثروا العافية والسلامة في دار البقاء على كل نعيم في دار الفناء ، ولو خيروا بين ان يملكوا الدنيا بكاملها على ان يحاسبوا عليها ويعاتبوا ، وبين ان يتحملوا جميع اتعابها واوصابها على ان يلقوا الله راضين مرضيين لفضلوا الثانية على الأولى .

قال الامام زين العابدين مناجياً ربه :

« لا تجعل حظي من رحمتك ما عجلت لي من عافيتك . . . وان يكن ما ظللت فيه ، او بت فيه من هذه العافية بين يدي بلاء لا ينقطع ، ووزر لا يرتفع فقدم لي ما اخرت ، واخر عني ما قدمت ، فغير كثير ما عاقبته الفناء ، وغير قليل ما عاقبته البقاء » . . . وقال : « سبحانك اخشى خلقك اعلمهم بك ، واخضعهم لك اعلمهم بطاعتك ، واهونهم عليك . من انت ترزقه ، وهو يعبد غيرك » .

لقد رفض الامام العافية العاجلة مع البلاء الآجل ، واختار البلاء العاجل ، وان كثر على البلاء الآجل ، وان قل لأن الأول يزول ، والزائل قليل مهما كثر ، والثاني يدوم ، والدائم كثير مهما قل . . . فضل الآجل صلوات الله وسلامه عليه لانه اعلم الناس بالله ، واخضعهم له ، واعلمهم بطاعته .

الصلاة

الصلة بين الله والعبد :

الصلاة صله بين الله والعبد ، ومن تركها فقد قطع كل صلة بينه وبين خالقه ، ومن هنا كانت عامود الدين ، وركنه الركين ، وقرة عين الانبياء والمرسلين ، يقبل ما عداها تبعاً لها ، ولا يقبل شيء بدونها ، وابرز ما في هذه الصلة هو تطابق او تعلق ارادة الخالق والمخلوق في الطاعة التي ترفع الانسان إلى ربه وتقربه من رحمته ، وتؤكد فيه صفة العبودية ، ومن كان على شيء من معرفة الشريعة الاسلامية واسرارها لا يشك ابداً في ان التسليم لله حقاً ، والانقياد له صدقاً لا يتم ولن يتم الا بهذه الصلاة الخاصة ، وهذا الشكل الذي اشار إليه الامام زين العابدين في هذه المناجاة :

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، وقفنا فيه على مواقيت الصلوات الخمس بحدودها التي حددت ، وفروضها التي فرضت ، ووظائفها التي وظفت ، واوقاتها التي وقت ، وانزلنا فيها منزلة المصيبين لمنازلها الحافظين لاركانها ، المؤدين لها في اوقاتها على سنة عبدك ورسولك ، صلوات الله عليه وآله في ركوعها وسجودها ، وجميع فواضلها على اتم الطهور واسبغه ، وابين الخشوع وابلغه » .

حقيقة الصلاة :

تتقوم الصلاة من الايمان بالله ، ومن الاخلاص له ، ومن الخشوع بالركوع والسجود . ومن الفاظ التهليل والتكبير والتسبيح بشرط الطهارة من الحدث والخبث ، وإذا ترك شيء من هذه اختياراً لم تتحقق الصلاة .

وإذا تسرعت وقلت مع اخوان الشياطين : لماذا تجب الصلاة بهذا الشكل المعين الخاص بلا زيادة ولا نقصان، مع العلم بأن العقل لا يفرضه ويحتمه .

قلت في الجواب :

لا أعلم ، وكل الذي اعرفه ان المسلم إذا اصر على ترك الصلاة عمداً يجب قتله شرعاً ، مع التأكيد بأنه يؤمن بالله والرسل واليوم الآخر . وبهذا يكون في نظر الاسلام أسوأ حالاً من المرتد عن فطرة . او في حكمه من حيث وجوب القتل .

وإذا قلت : ان علمك هذا ليس بالجواب الشافي ، لان السؤال عن السبب لهيئة الصلاة وشكلها ، لا عن حكم تارك الصلاة .

قلت : ان علمي هذا ليس بجواب لان سؤالك لا معنى له ، ولا يتجه من الاساس بعد ان افترضنا ان الله جل وعز امر بها كذلك ، فان العين ترى شيئا . ولا ترى اشياء ، والاذن تسمع اشياء ، ولا تسمع كل شيء ، والحس الصافي النقي يعكس بعض الانفعالات لا كلها ، وكذلك العقل يدرك اشياء واشياء ، ولا يحيط بكل شيء بخاصة العبادات .

الغاية من الصلاة :

الغاية من الصلاة حصول المصلي على مغفرة الله ورحمته ، والبعد عن عذابه ونقمته او الحصول على ثوابه ونعيمه ، او شكره على ما تفضل وانعم ، او طاعة لامره وخروجاً عن عهدته ، او لتذكرنا الصلاة بتقوى الله ، وتحثنا عليها ، أو للتلذذ بالعبادة والمناجاة ، أو للتأمل والتفكر ، او لتعزيز الاسلام وكيانه واعلانه على الملأ ، او لهذه مجتمعة ، وكل منها صحيح ومقبول ، وكاف واف ، ويجمعها كاملة القصد بأن الله سبحانه اهل للعبادة ، وهي للعبادة . وهي عبادة علي امير المؤمنين ، وصفوة الصفوة ، كالأئمة المعصومين ، والأولياء العارفين .

صلاة الإمام زين العابدين :

والآن هل تريد ان تصلي بصلاة الامام زين (ع) ؟ . هل تريد ان تعرف عظمة الله ، او انه اهل للعبادة ، وانك لن تستطيع صبراً على تأدية حقه ، مهما بالغت واجتهدت ؟ . هل تريد ان تصلي أنقى صلاة واخلصها واغزرها ؟. هل تريد صلاة اساسها المعرفة بالله ، وشرطها الايمان بالله ،و جزاؤها الشكر لله ، وهدفها الوصول إلى الله ؟. هل تريد ان تصلي بروحك وعقلك، ولسانك ولحمك ودمك ، وجميع جوارحك ؟ .

إذ اردت شيئاً من هذه فردد من اعماق قلبك مع زين العابدين ، وسيد الساجدين انفاسه هذه الزكية السماوية ، وانواره القدسية الالهية ، وقل معه :

« يا الهي ، لو بكيت إليك ، حتى تسقط اشفار عيني . وانتحبت ، حتى ينخلع صلبي ، وسجدت لك ، حتى تتفقأ حدقتاي . واكلت تراب الارض

طول عمري ؛ وشربت ماء الرماد آخر دهري ، وذكرتك في خلال ذلك ، حتى يكل لساني ؛ ثم لم ارفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت مغفرتك ؛ وتعفو عني حين استحق عفوك فان ذلك غير واجب لي ، ولا أنا اهل له باستيجاب » .

وماذا احسست — ايها القاريء — وانت تتلو هذه المزامير ؟ . هل اعترتك رعشة اهتز لها كيانك من الاعماق ؟ . وهل فاضت عيناك مدراراً بالدموع ؟ وهل خفق قلبك بعنف من خشية الله ورهبته ؟ . إذا كان شيء من هذا فطوبى لك ، حيث اخذت هذه الانفاس الزكية طريقها تواً من قلب امامك الاعظم إلى قلبك وهذا هو مقياس الصلة بينك وبين الله ، ودليل الأرض الطيبة الصالحة للبذر الصالح ، ونموه وحصاد الخير والفلاح .

وقبل ان تترك هذه الصفحة إلى غيرها قف طويلاً ؛ وسرح النظر . واطلق عنان التدبر والتأمل في قول الامام : « ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة » . تدبر وتأمل معناه واسراره ومرماه عسى ان ينقذك من الهلكة ، ويأخذ بيدك إلى التوبة والانابة ، وعلى الأقل يولد فيك الشعور بالخوف من الله جل وعز في لحظة صافية مشوقة ، تعادل عباده سنوات وسنوات . . . وعلي امير المؤمنين عليه افضل التحيات والصلوات الذي قال :

﴿ الاعتبار منذرٌ صالح ﴾ .

وبعد فان الإمام يعلم حق العلم ان عظمة الله لا حدود لها ولا نهاية ؛ وان طاقة الانسان تقف عند حد . ومن هنا يستحيل على أي انسان — وان حرص واجتهد — ان يعبد الله عبادة تتفق مع عظمته جل وعز ، حتى ولو سقطت

اشفار عينيه من البكاء ، وانقطع صوته من الدعاء ، وانتثر لحم قدميه من القيام ، وانخلع صلبه من الركوع ، وتفقأت حدقتاه من السجود ، وحتى لو أكل التراب ، وشرب ماء الرماد كل ذلك وفوق ذلك يصغر عند عظمة الله ، لا كل ما سواه صغير وحقير بالقياس إليه تعالى ، او لا شيء ابداً .

الانسجام :

وآل الرسول الاعظم (ص) يفعلون ما يقولون ، ولا يقولون ما لا يفعلون ، فقد تواتر عند اهل السير والتاريخ ان الامام زين العابدين (ع) كان يصلي في اليوم والليلة الف ركعة ، تماماً كجده امير المؤمنين (ع) ، وكان يصلي صلاة مودع ، أي كما لو علم انه لا يبقى بعدها ، وكان إذا حضرت الصلاة اقشعر جلده ، واصفر لونه ، وارتعد كالسعفة خشية من الله ، وقد انخرم انفه من كثرة السجود ، وشققت جبهته وركبتاه ، ومع هذا كان يكرر في مناجاته ، ويقول :

﴿ سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ﴾

العُجب :

واهدي قول الامام زين العابدين (ع) : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك وقوله : ثم لم ارفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك ما استوجبت محو سيئة واحدة ، اهديه إلى من اعرف من الشيوخ والحجاج ، ومن لا أعرف من هؤلاء وغير هؤلاء المعجبين المدلين بطهارة اثوابهم وابدانهم ، وبصلاتهم وصيامهم . . عسى ان يتعظوا وينتفعوا ، ولا ينسوا ذنوبهم ، ويستكثروا القليل مما يعملون .

ان العجب سيئة تشوه وجه الحسنات ، وتذهب بما فيها من جمال وبهاء

قال امير المؤمنين (ع) : سيئة تسوءك خير من حسنة تعجبك . وقال الامام الصادق (ع) :

﴿ إن الذنب خير من العُجب ﴾ .

ذلك ان المذنب قد يندم ويتوب ، اما المعجب فانه ، تماماً كالمريض يعتقد انه صحيح معافى . . . وقال : يدخل رجلان إلى المسجد : احدهما عابد ، والآخر فاسق ؛ فيخرجان ، والفاسق صديق ، والعابد فاسق ، لان العابد يدخل ، وهو مدّل بعبادته ، ويكون فكره في ذلك ، اما الفاسق فيكون فكره في الندم على فسقه ، فسيتغفر الله من ذنبه . وقال : العجب كل العجب بذره الكفر ، وارضه النفاق ، وماؤه البغي ، واغصانه الجهل ، وورقه الضلالة وثمره اللعنة والخلود في النار .

وبالتالي ، فان الضاحك مع الخوف من الله افضل الف مرة من الباكي المدل المعجب بعمله ، ومثله ما يعرف لاحد فضلاً .

والله سبحانه المسؤول ان يجعلك واياي — ايها القاريء — من المصابين السعداء عند ربهم ، ويثيبك على قراءة كلمتي هذه ، ويثيبني معك اجر من صلى لله ، وقرأ لله ، وكتب لله . . . بحق الرسول وآل الرسول صلوات الله عليه وعليهم . . . انه خير مسئول .

لا إيمان مع كذب

قيل لرسول الله (ص) : أيكون المؤمن جباناً ؟ .

قال : قد يكون .

قيل له : ايكون بخيلاً ؟ .

قال : قد يكون .

قيل : أيكون كذاباً ؟ .

قال : لا .

وفي الآية ١٠٥ من سورة النحل :

﴿ إنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ .

وقال علي امير المؤمنين (ع) : لا يجد العبد حقيقة الايمان ، حتى يدع الكذب في جده وهزله . وقال : الايمان ان تؤثر الصدق ، حيث يضرك على الكذب ، حيث ينفعك ، وان لا يكون في حديثك فضل عن عملك ، وان تتقي الله في حديث غيرك .

وهذا يدل بصراحة على ان الايمان وحدة لا تتجزأ ، وحقيقة لا تتعدد ، تماماً كالشجاعة والكرم ، اجل ، ان للايمان مراتب ، منها الدنيا ، ومنها العليا ، ومنها وسط بينهما ، ولكن ليس معنى هذا ان المرتبة الضعيفة من الايمان لا أثر لها اطلاقاً ، او لها اثر الضد ، فان الايمان مهما ضعف فلا بد ان يتلاءم مع ارادة الله وامره ونهيه ، ويحرس صاحبه من الكذب والرياء ، وما إليه من آثار الهرتقة واللامبالاة .

وتقول : إذا كان المؤمن لا يذنب ابداً ، فأي فرق بينه وبين المعصوم ؟ .

الجواب :

لا فرق بين المعصوم والمؤمن من حيث ترك الذنوب وعدم ارتكابها ، وانما الفرق بينهما من جهات اخرى وهي :

١ — ان الايمان يختلف شدة وضعفاً ، والعصمة لا يتصور فيها ذلك ، فهي في سيد الانبياء ، كما هي تماماً في أي نبي من انبياء بني اسرائيل .

٢ — ان الايمان قد يزول بالمعصية ، ثم يعود ثانية بالتوبة ، ولا يتأتى ذلك في العصمة ، لانها متى ثبتت دامت ، ولا تزول بحال .

٣ — ان المعصوم لا يخطيء بعلمه ومعرفته ابداً. فأقواله وافعاله كلها انعكاس عن الواقع ، اما المؤمن فيخطيء ، ويصيب ، وهو في الحالين مأجور ، على شريطة ان يتحفظ ويحترس ، وبكلمة ان المعصوم منزه عن الخطأ والخطيئة اما المؤمن فمنزه عن الخطيئة دون الخطأ .

٤ — ان العلماء اختلفوا فيما بينهم : هل السلوك والعمل جزء من الايمان او ان الايمان صفة نفسية تستقل عن العمل . . . وبديهة ان هذا النزاع لا يتأتى

في العصمة ؛ لان العمل يرتبط بها اشد الارتباط ، ولا ينفك عنها ؛ ومهما يكن ، فنحن من القائلين بأن السلوك والعمل جزء من الايمان – كما قدمنا – ودليلنا الآيات التي سلبت الايمان عن غير العاملين منها قوله تعالى :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾.
٦٤ النساء

ولو كان الإيمان الشرعي مجرد الاعتقاد المستقل عن العمل لكان مثالياً غيبياً لا يمت إلى الموضوعات الحسية بسبب . . . ولا أستطيع بحال أن أتصور إنساناً يتصف بالإيمان ، وهو يترك شيئاً من دين الله مخافة أحد من خلقه ، أو طمعاً بما في يده من الحطام . . . أجل ، قد يعصي المؤمن ويذنب ، ولكنه يبادر إلى محو الذنب بالتوبة ، تماماً كما يبادر إلى غسل ثوبه وجسمه من القذارات والأوساخ ، اما إذا أصر ، ولم يندم ، وبقي على غفلته ، حتى النفس الأخير فما هو من الإيمان والمؤمنين في شيء .

نحن بشر ، ولسنا ملائكة ولا أنبياء ، وفينا عاطفة وشهوات ، وميول ورغبات ، ولنا قلوب وأعصاب من لحم ودم ، لا نستطيع التحكم بها ، والسيطرة عليها في كل آن وحين – إذن – وقوعنا بالخطيئة ليس بالشيء الغريب ، وإنما الغريب هو الإصرار على الخطيئة .

وبهذا يتبين معنا أن المؤمن إذا ترك واجباً ، أو فعل حراماً انتزع منه وصف الإيمان الشرعي حقيقة وواقعاً ، قال الرسول الأعظم (ص) :

﴿ لا يَزْني الزَّاني حينَ يَزْني ،
وَهُوَ مؤْمِنٌ ﴾ .

وقال :

﴿ لا يُؤْمِنُ مَنْ لا يَأمَنُ
جَارَهُ بَوَائِقَهُ ﴾ .

ولن يعود إليه الإيمان الشرعي أبداً إلا بالتوبة الصادقة النصوحة التي أشار إليها الإمام زين العابدين (ع) بقوله :

« اللهم اني أتوب إليك من كبائر ذنوبي وصغائرها ، وبواطن سيئاتي وظواهرها ، وسوالف زلاتي وحوادثها توبة من لا يحدث نفسه بمعصية ، ولا يضمر أن يعود في خطيئة . . . ولك يا رب شرطي أن لا أعود في مكروهك ، وضماني أن لا أرجو في مذمومك ، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك » .

هذي هي التوبة بمعناها الصحيح ، شرط يقطعه التائب على نفسه ، وضمان الله وعند الله ، وعهد لن يخلفه أبداً ، وإذا وجب الوفاء والضمان لمن هو مثلك أو دونك ، فكيف إذا أعطتيه لله جل وعز ؟ . .

وقبل أن أدع هذا الفصل أشير إلى أمرين :

الأول : ان مفهوم الكذب لا يختص بعدم مطابقة القول للواقع ، وإنما يشمل كل دعوى بغير حق ، فالمرائي والمغرور والمتكبر والمعجب بنفسه ، والجاهل يتسم بسمة العلماء ، ويلبس أثوابهم ، كل هؤلاء ، ومن إليهم من أهل الكذب والدجل والنفاق ، يصدق عليهم قول النبي الكريم :

﴿ المُؤْمِنُ لا يَكُونُ كَذَّاباً ﴾.

الثاني : ان الكذب قبيح بذاته ، يجب تركه ، وان لم تنه عنه الاديان والشرائع : فهو يحمل معه الدليل على قبحه ، ويقبح ذاته بذاته . . . ويكفي انه لا اساس له من الواقع ، وانه سلاح الضعيف الجبان ، وان الكاذب يتبرأ منه لو نسب إليه ، حتى الاطفال يستقبحون الكذب ويعلمون ان صاحبه ممقوت لا يثق به احد ، ولا يركن إليه في شيء ، ولو جاء بالصدق لا يصدق .

ويجوز الكذب في ثلاث : المكيدة في الحرب ، والاصلاح بين الناس ووعد الزوجة ، بخاصة لمن جمع بين اثنتين . ولو كانت مشكلة تعدد الزوجات تنحل بالكذب لطار الرجال فرحاً وسروراً . . .

وبعد ، فان الكذب يقف حاجزاً بين الانسان ورحمة الله ورضوانه ، ويسد جميع الطرق والنوافذ المؤدية إلى الله جل وعز ، رغم انها بعدد انفاس الخلائق ، او اكثر . . . وكما ان الكذب يقفل النوافذ إليه سبحانه فان الصدق مفتاح لعفوه وكرمه ، والرجل كل الرجل من يستعمله ، بل ان الصدق مفتاح النجاح في هذه الحياة ، وبه تفتح الابواب التي تقفل في وجه الكاذب المحتال .

الثقة بالله

معنى الثقة بالله :

معنى الثقة بالله ان تعتقد بأن النفع كله ، والضر كله بيد الله وحده ، وان اهل السماء والأرض لو اجتمعوا وتكاتفوا على ان يقفلوا في وجهك النوافذ كلها ، ويسدوا عليك الطرق بأجمعها لجعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، من حيث لا تحتسب الفرج والمخرج الا منه ، وان تعتقد ايضاً ان ذنبك مهما عظم فعفو الله يتسع له ، وانك لو وقعت في اعظم الشدائد فان الله قادر على خلاصك حتى في اللحظة التي تهوي فيها بين السماء والأرض ، او كنت في قاع البحر تلفظ انفاس الموت ، فترجو وتأمل ان ينقذك الله ، ويضعك على اليابسة صحيحاً معافى ، وانت مع النفس الذي يتصل بالاخير بلا فاصل[1] .

(١) تقع بلدة حبوش في جنوب لبنان جبل عامل قرب النبطية ، ويوجد فيها الآن رجل ، اسمه حسن طالب نعمة ، تشاجر مع آخر ، فطعنه هذا بسكين ، غاصت بكاملها في أمعائه ، ومزقتها تمزيقاً ، وخرج ما فيها ، وأشرف حسن على الهلاك ، فعرضه أهله على عدد من الأطباء ، منهم الجراح المعروف نبيه الشاب الموجود حالياً في صيدا ، فأجمع الأطباء كلمة واحدة على أنه ميت بعد لحظات لا محالة ، وان التطبيب لا يجدي شيئاً ، وقبل أن يلفظ النفس الأخير أصابته غفوة رأى فيها الحسين بن علي سيد الشهداء (فاستغاث به) ع ، فوضع الحسين يده الشريفة على مكان الجرح ، فعاد كل شيء صحيحاً كما كان ، وقام الرجل من ساعته معافى كأن لم يكن شيء ، وهو الآن حي يرزق ، ويعرف ذلك جميع أهل حبوش البالغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف نسمة ، ومنهم صديقاي العلامتان الشيخ عبد الله نعمة صاحب فلاسفة الشيعة ، وأخوه الشيخ عبد الحسين ، وهما اللذان أخبراني بذلك ، ومن شاء أن يسمع ويرى فليذهب إلى حبوش ، ويسأل عن حسن نعمة .

وان تخاف الله وتهابه . ولو اتيته بحسنات اهل الأرض ، وان تخشى العاقبة وسوء المصير ، وانت في تمام الصحة والامان ، وفي أوج العز والمجد ، تعتقد كل ذلك ، وتلتزم به ، وتعمل بما تليه هذه العقيدة في سيرتك ومعاملاتك وجميع حركاتك وسكناتك . . . وبكلمة ان تجعل نصب عينيك . هذا الشعار الذي خاطب به الامام زين العابدين خالق السموات والارضين :

« إلهي ، لم أصب خيراً قط الا منك ، ولم يصرف عني سوء قط أحد غيرك ، ولا أرجو لامر آخرتي ودنياي سواك » .

وينبغي ان نكون على علم بأنه ليس من الثقة بالله في شيء ان نتكل عليه بلا عمل ، ونطلب الحظ منه ، ونحن من البطالين الكسالى ، والا فلماذا وهبنا هذه الاعضاء والحواس ، ونظّم أجسامنا بأدق تنظيم ، وقومها بأحسن تقويم ، واودع فينا من الملكات والغرائز ما نسخر به الكون بما فيه ، حتى الزهرة والمريخ . . . ان الثقة بالله ان نعمل ونجاهد ، ثم نترك الباقي لله ، وعلى الله .

وايضاً ليس من الثقة بالله ان نرضى عن انفسنا بل من الثقة به والتوكل عليه سبحانه ان نعترف بعيوننا ، ونقربها ، ونتوب منها ، ونطلب الغفران لها ، قال الامام زين العابدين (ع) :

« إلهي ، لم آتك بعمل صالح قدمته ... اتيتك ارجو عظيم عفوك الذي عفوت به من الخاطئين ، ثم لم يمنعك طول عكوفهم على عظيم الجرم ان عدت عليهم بالرحمة والمغفرة » .

علي والثقة بالله :

ولا أعرف احداً اقوى وأشجع واجرأ ممن يثق بالله ثقة المؤمن العارف اكثر من الامام علي (ع) فانه ينطق بالصدق ، ولو على نفسه ، ويفعل الحق ، وان اغضب الناس اجمعين ، ويحارب الباطل ، ولا يخشى لومة لائم .

ولا أعرف تفسير لشجاعة امير المؤمنين عليه السلام ، وبطولته وتضحيته موافقة الا بهذه الثقة الصادقة المطلقة ، بل ان كرمه وزهده ، وصبره وتواضعه ، وجميع مناقبه تنبع منها ، وتصدر عنها ، وهل من تفسير لقوله : « والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ؟ » . هل من تفسير الا عمله ويقينه بأن الله معه في كل حال ، وان من تسلح بسلاح الله ، وقوة الله لا يخشى العرب والعجم ، ولا الانس والجن مجتمعين ؟ . . . ان من ايقن بالله حقاً لا يبالي اقبلت الدنيا أو ادبرت ، وقع على الموت ، او وقع الموت عليه . . . وقد جاء زهد علي وشجاعته : تماماً على قدر ثقته ويقينه بخالقه جل وعز .

وكلنا يعلم ان من ايقن بعطف ابيه وغناه انفق عن سعة ، وان من وثق بقومه وعدته وعدده جابه العظماء ، ونازل الاقوياء .

أبناء علي :

وقد ورث ابناء ابي الحسن واحفاده المعصومون هذا الايمان ، وهذه الثقة التي تتحدى الدهر ، ولا تعبأ بتضاهر العرب والعجم ؛ ورثوا هذه الثقة عنه ومنه ، وتجاوبت ارواحهم الزكية مع روحه الطاهر ، والتقت جميعاً في ذرى خالقها وباريها . . . وتعال معي ندخل هذا الجو الندي العاطر ، ونستقي من هذا المنهل النقي الطاهر ، منهل ابي محمد الباقر :

« إلهي ان رفعتني فمن ذا الذي يضعني ؟ . وان وضعتني فمن ذا الذي يرفعني ؟ . وان اكرمتني فمن ذا الذي يهينني ؟ . وان اهنتني فمن ذا الذي يكرمني ؟ . وان عذبتني فمن الذي يرحمني ؟ . وان اهلكتني فمن ذا الذي يعرض لك في عبدك ، او يسألك عن أمره ؟ . » .

كلنا يقول : اللهم لا نملك لانفسنا نفعاً ولا ضراً الا بك ، ولكن في الوقت نفسه نرجو ونخاف غير الله ، ونتملق لصاحب الجاه طمعاً في جاهه ، ولرب المال رغبة في ماله ، ونرائي ونظهر خلاف ما نضمر طلباً لمديح الناس وثنائهم ونحط من كرامة الغير ، وننصب له المكائد والمصائد ، وننشر عيوبه ، او نكبر الصغيرة منها ، او نفتريها افتراء ، ونتجاهل عمل المخلصين ، ونحسد الناجحين ، ونقلل من قيمتهم ، ونستخف بأعمالهم تبريراً لما فينا من نقص ، او تشفياً من غيض ، وتلبية لهوى . . . اذن ، اين الثقة بالله ، والتوكل عليه ، والتسليم له ؟ . اين العلم بأنه وحده تبارك وتعالى الخافض الرافع ، والضار النافع ؟ .

ان العلم بقدرة الخالق يستتبع حتماً العلم بعجز المخلوق ، وهذا العلم بدوره يلازم الثقة بالله ، والاعراض عمن سواه ، ولا ينفك عنها بحال ، وعلى ذلك فمن اهتم برضا المخلوق ، وتهاون برضا الخالق فقد اساء الظن بالله ، واعتبر قدرته جل وعلا دون قدرة عبيده ومخلوقاته ، تبارك الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

الثقة بالله لا تتجزأ :

والثقة بالله سبحانه لا تتجزأ ، فمن وثق به في شيء وثق به في كل شيء ، ومن هنا كانت هذه الثقة ام الفضائل بكاملها ، وإليها ترجع كل فضيلة ومنقبة

فمن كان واثقاً به جل وعز صبر وثابر ، وضحى وآثر ، وصدق واخلص ، وصفح وتسامح ، واحسن الظن بالقريب والبعيد ، وزهد في الدنيا وما فيها .

اما سوء الظن به تبارك وتعالى فاصل الرذائل ومعدنها ، فمن لم يثق بخالقه ورازقه شح وجبن ، ويأس وقنط ، وضجر وتململ ، ونافق ودجل ، وطمع وتذلل ، وخان وتآمر ، وسرق وتجسس ، ورأى وتملق ، وحسد وحقد ، واساء الظن بالانبياء والصلحاء ، إلى غير ذلك من القبائح والرذائل .

وبعد ، فما انحنى مخلوق لمثاه الا من اعرض عن خالقه ، وما تملق احد لذي جاه او مال الا اساء الظن برازقه . . . وإذا انشرح صدرك لفضل الله وكرمه فردد مع امامك الاعظم زين العابدين (ع) هذا الدعاء ، واعمل بما يوحي به إليك :

« اللهم يا منتهى مطلب الحاجات ، ويا من عنده نيل الطلبات ومن لا يبيع نعمه بالأثمان ، ويا من يستغنى به ولا يستغنى عنه ، ويا من يرغب إليه ولا يرغب عنه . . . انت اهل الغنى عن خلقك ، وهم اهل الفقر إليك ، فمن حاول سد خلته من عندك ، ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانها ، واتى طلبته من وجهها ، ومن توجه بحاجته إلى احد من خلقك ، او جعله سبب نجحها دونك فقد تعرض للحرمان . واستحق من عندك فوت الاحسان » .

أجل ، ان الله لا يبيع فضله وجوده وكرمه بالأثمان والاموال ، لانه كريم ، والكريم يعطي ، ولا يأخذ ، ولانه ليس بتاجر ، فالتاجر يطلب الغنى والربح . والله غني عن العالمين ، ومع ذلك فقد دعاك الله سبحانه للتجارة معه ، وضمن لك الفوز والارباح ، وزاد هو بنفسه على نفسه اضعافاً واضعافاً

دون ان يزاحمه ند ، او يزيد عليه ضد . . . ومعنى التجارة مع الله ان تأخذ بيد الضعيف ، وتناصر المحق ، وتجابه المبطل ، وتحول بكاء البؤساء إلى الفرح والسرور ، وذل الضعفاء إلى العزة والكرامة ، وجهل الجهلاء إلى العلم والمعرفة وادواء المرضى إلى الصحة والعافية ، هذي هي التجارة مع الله ، والعمل لله الذي يتقبله ، ويحمده ويشكره ، ويثيب عليه اضعافاً كثيرة ، وهذا معنى قول الامام زين العابدين :

« إلهي . . . انت الذي زدت في السوم على نفسك لعبادك تريد ربحهم في متاجرتهم لك ، وفوزهم بالوفادة عليك ، والزيادة منك ، فقلت تبارك اسمك وتعاليت : من جاء بالحسنة له عشر امثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها . وقلت : مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، وقلت : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعف له اضعافاً كثيرة ، وما انزلت من نظائرهن في القرآن من تضاعيف الحسنات » .

وقف قليلاً عند قوله : « زدت في السوم على نفسك لعبادك تريد ربحهم وفوزهم بالوفادة عليك ، والزيادة منك » .

ان المعروف عند الناس ــ بعد ان يتم السوم بين البائع والمشتري ــ ان يأخذ المشتري بمقدار ما يدفع من الثمن ، وان يحصد الزارع حسبما يزرع . . . اما عند الله سبحانه فالأمر على العكس ، فان من يعمل لوجهه حسنة واحدة اعطاه بدلاً عنها اضعافاً كثيرة ، ومن زرع في حقله حبة واحدة عادت عليه

بسبعمئة او اكثر . . . ذلك ان المشتري لو دفع اكثر مما يأخذ لكان مغبوناً ، والغبن ضرر ، وهو محال في حقه تعالى ، وإذا زرع الانسان في حقله فغاية امله ان يعود عليه بعشرة اضعاف . لان خصب الأرض محدود ، اما الخصب في حقل الله فلا يحد بحد ، وسلام الله على امير المؤمنين ، وامام المتقين الذي قال : « لا تجارة كالعمل الصالح ، ولا ربح كالثواب » :

نار جهنم

ما هي حقيقة العذاب الذي اشار إليه بقوله جل وعز :

﴿ وفي الآخرةِ عَذابٌ شَديدٌ ﴾ .

وإلى أي حد بلغ من الشدة والقسوة ؟ . وهل هو اشدوطأ من آلام هذه الحياة ، وآلم وقعاً من غمرات الموت وسكراته ؟ .

أجل ، ان اقل القليل منه اشد واقسى من آلام الدنيا مجتمعة ، ومعها اضعاف امثالها ، وقد خاف ، واستعاذ منها المعصومون عن الخطأ والخطيئة . فكيف بنا نحن ؟ . خافوا من عذاب الله لانهم اعلم الناس به ، واعلنوا هذا الخوف ووصفوا هوله ، ثم بينوا سبيل النجاة منه ، كي لا نحتج ونعتذر ، قال الامام زين العابدين :

« مولاي ، ارحمني إذا انقطع من الدنيا اثري ، وامّحى من المخلوقين ذكري ، وكنت في المنسيين كمن قد نسي مولاي وارحمني عند تغير صورتي ، وحالي إذا بلي جسدي ، وتفرقت اعضائي ، وانقطعت اوصالي ، يا غفلتي عما يراد بي » .

« واعوذ بك اللهم من نار تغلظت بها على من عصاك ، وتوعدت بها عمن صدف عن رضاك ، ومن نار نورها ظلمة ، وهينها أليم وبعيدها قريب ، ومن نار يأكل بعضها بعضاً ، ويصول بعضها على بعض ، ومن نار تذر العظام رميماً ، وتسقي اهلها حميماً ، ومن نار لا تبقي على من تضرع إليها ،

ولا ترحم من استعطفها ، ولا تقدر على التخفيف عمن خشع لها ، واستسلم إليها ، تلقي سكانها بأحر ما لديها من أليم النكال ، وشديد الوبال ، واعوذ بك من عقاربها الفاغرة افواهها ، وحياتها الصالقة بأنيابها وشرابها الذي يقطع امعاء وافئدة سكانها ، وينزع قلوبهم ، واستهديك لما باعد منها ، واخر عنها » .

نار الدنيا ترسل النور ، وتبدد الظلام ، ويهتدي بها التائه والضال ، ونار جهنم تحيل النهار المضيء إلى ليل بهيم ، نار الدنيا تخمد بالماء والتراب ، ونار جهنم وقودها الاحجار والجبال ، والشراب والرمال ، والنساء والرجال ، وإذا صبت مياه البحار والأنهار على جمرة منها استحالت إلى دخان ولهيب ، « نار شديد كلها ، ساطع لهبها ، متغيز زفيرها ، متاجج سعيرها ، حامية قدورها ، فظيعة امورها . . . لا يظعن مقيمها ، ولا يفادي اسيرها » كما قال امير المؤمنين علي (ع) .

وايسر مكان في جهنم يزدحم بالافاعي والعقارب ، لو نفثت قطرة سم من فيها على الأرض لساخت بأهلها ، واهون شرابها يقطع الامعاء والاعضاء وينزع القلوب والافئدة ، يسقيه إلى عطاشى جهنم زبانية غلاظ شداد، مع مقارع من حديد بأكواب من وباء وبلاء ، لو وقعت قطرة منه في مياه الدنيا استحالت إلى حنظل وعلقم .

واشد من ذلك كله ان لا يجد المبتلى منفذ للخروج ، ولا مسلكاً للهروب ، ولا صديقاً يشكو إليه ، ولا والداً يصغي له ، ولا والدة تحنو عليه ، ولا جاه يجديه ، ولامال ينفعه ، ولا نسب يشفع به ، ولا توبة تلطف وتخفف ، ولا شيء ابداً إلا الحسرة والندامة على ما فرط في جنب الله ، وما فعل من معصيته ،

وترك من طاعته ، لا شيء الا النار التي لا تبقي على متضرع ، ولا ترحم لمستعطف ، ولا تخفف عن خاشع ومستسلم .

أجل لا شيء اشد واعظم من نار جهنم ، ولكن الخلاص منها سهل يسير وقد حدد الامام امير المؤمنين (ع) طريقه بهذه البساطة ، وهذه الحكمة : « من اشفق من النار اجتنب المحرمات » . اذن ، فلتكن نار جهنم من الشدة ما تكون ، واضعاف اضعاف ما هي عليه ، فأنت عنها في منأى ، وعنها في أمن وأمان ، ما دمت في منأى عن الحرام ، وماذا يهمك من قوانين اللصوصية ، وتشددها في العقوبة إذا لم تكن لصاً ؟ . وهل يسوءك حساب المجرمين وعقابهم إذا كنت بريئاً ؟ . بل العكس هو الصحيح . . .

ثم هل من شيء ايسر من ان لا تظلم ولا تكذب ، ولا تحقد وتراوغ ؟ . وأي شيء أخف من تجنب الشر والاذى ؟ وإذا لم تعمل لخير الناس واسعادهم فلا تضع الأشواك وتحفر الحفر في طريقهم ، ولا ترشقهم بالطوب والحجارة . . . ان الله رؤوف رحيم بعباده ، ولا يظلم احداً ، ولكن نحن نظلم انفسنا ، ونلقي بها في الهلكات .

تذكرت الآن اني قرأت فيما قرأت ان واعظاً لما اطال وافاض في وصف جهنم وهولها قال له احد المستمعين : لقد عرفنا جهنم وآفاتها ، فمتعنا بذكر الجنة ونعيمها . وعلى ذلك فان الجنة لا هموم فيها واسقام ، ولا انداد واخصام ولا تفكير في مستقبل او مصير ، لا شيء سوى السرور والافراح ، والصحة والامان ، اللذة والنعيم ، اشجار تجري من تحتها انهار من لبن وخمر وعسل ،

واكواب من لؤلؤ وزبرجد ، واثواب من حرير واستبرق ، وحور [1] وولدان ، وحدائق واطيار تلذ العين ، وفواكه واطعمة تشتهيها الانفس . وما إلى ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت . . . والطريق إلى الجنة هو طريق النجاة من النار بالذات ، قال امير المؤمنين (ع) :

﴿ من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات ﴾.

أي ترك المحرمات

وبعد ، فنحن نخاف الله وعذابه ، ونستجير به منه ولكن نرجو عفوه وكرمه . وليس من شك ان كفة الرجاء هي الارجح لانها على كرم المرجو أدل . وان للراجين شأناً عند الله كشأن التائبين . خاصة إذا رددوا مخلصين مع امامهم الاعظم زين العابدين :

« اللهم لا تعرض عني اعراض من لا ترضى عنه ، ولا ترسلني من يدك ارسال من لا خير فيه ، ولا حاجة بك إليه ، ولا انابة له ، ولا ترم بي رمي من سقط من عين رعايتك ، ومن اشتمل عليه الخزي من عندك ، وبلغني مبالغ من عنيت به ، وانعمت عليه ، ورضيت عنه ، فاعشته حميداً ، وتوفيته سعيداً »

آمين . آمين . رب العالمين . بمحمد وآله الاكرمين صلوات الله عليهم اجمعين .

(١) جاء في وصف الحور أن الواحدة منهن لو اطلت على الأرض لأضاءتها جميعاً ، ولقهر نورها نور الشمس والقمر معاً . وفي فصل سابق ذكرنا وصف الجنة والنار ملخصاً من كتاب « الإنسان روح لا جسد » .

ولست اجد شيئاً ابلغ في الموعظة اختم به هذا الفصل الرهيب المهيب من من قول امير المؤمنين علي لولده الحسن عليهما السلام ، وهو يوصيه :

« وإذا وجدت من اهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة ، فيوافيك به غداً ، حيث تحتاج إليه ، فاغتنمه وحمله إياه .

واكتفي بالتعليق على هذه الحماة البالغة بهذه الآية الكريمة :

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

الحب في الله

محبة الله :

ليس معنى حبك لله ان تجتر كلمات الحب ، وترددها بين شفتيك ، بل ان تحب الله في عباده ؛ في تخفيف آلامهم ، وتضميد جراحهم ، وان تطلب الهداية والرشاد للاشرار والمذنبين ، وان لا تعصي الله في قول او فعل ، وان تفوض الامر إليه ، فلا ترضى ان اعط ، وتحتج ان منع ، بل تذكره وتشكره في الحالين على السواء ، ولا تهتم الا بطاعته ، وتأدية ما عليك من واجب .

قال الامام زين العابدين (ع) :

« اللهم صل على محمد وآله ، وطيب بقضائك نفسي ووسع بمواقع حكمك صدري ، وهب لي الثقة لاقر معها بأن قضائك لم يجر الا بالخير ، واجعل شكري على ما زويت عني أوفر من شكري اياك على ما خولتني » .

ان المحب حقاً لا يحب في حال دون حال ، بل في جميع الاحوال ، وينزه نفسه عن الاطماع والاغراض ، اما من يشكر ان أعطى ، ويثور ان منع فهو محب لنفسه وانانه ، ومن اجلها يرضى ويغضب ، ومن هنا قالت رابعة العدوية :

« إلهي إذا كنت اعبدك رهبة من النار فاحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت اعبدك رغبة في الجنة فاحرمني منها » .

بل قال الحلاج في بعض شطحاته ما معناه : اني استمتع بعذاب الله ؛ لانه ينسب إليه ، تماماً كما يستمتع العاشق بعذاب المعشوق .

الحب في الله :

الحب في الله علاقة نشأت بين اثنين او اكثر في كنف الطاعة والاخلاص لله ، وكل صلة دونها هي صلة شخصية ، اما صلة الحب فيه تعالى فانها مبدأية لا شائبة فيها للذات والانانية . انها انجذاب ايمان إلى إيمان ، واخلاص إلى اخلاص، لا انجذاب تاجر إلى تاجر، وبائع إلى مستهلك . . . ولانها تستمد وجودها وقوتها من الله كانت اثبت الصلاة وارساها اطلاقاً، لا يزيلها شيء، ولا يزعزها شيء الا إذا زال الايمان .

قال امير المؤمنين علي (ع) :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على ان يبغضني ما بغضني ، ولو صببت الدنيا بجماتها – اي بكاملها – على المنافق على ان يحبني ما احبني » .

وقال حفيده الامام زين العابدين :

« اللهم إلبس قلبي الوحشة من شرار خلقك ، وهب لي الانس بك ، وبأوليائك واهل طاعتك » .

وقال الامام محمد الباقر ابن الامام السجاد :

« إذا اردت ان تعلم ان فيك خيراً ، فانظر إلى قلبك ، فان كان يحب اهل طاعة الله ، ويبغض أهل معصيته ففيك خير ، والله يحبك وإذا كان يبغض اهل طاعة الله ، ويحب اهل معصيته فلا خير فيك ؛ والله يبغضك ، والمرء مع من احب » .

وبهذا يتبين ان من يكرم اهل الدنيا ، ويتجاهل اهل الايمان فليس من الله في شيء ؛ ولا أحد اجرأ عليه منه .

وقال من شايع وتابع : نحن نتألف ابناء الدنيا لنرفع عن طريقهم مظلمة عن مظلوم ، ونحقق مصلحة للعموم .

وجوابنا على ذلك :

أولاً : إنّا نعرف اكثر من واحدمن المتزلمين للظالم بدون قيد أو شرط ،ومع ذلك لم يجلب خير الانسان ، او يدفع ضراً عن انسان ، ولم يصلح شيئاً فاسداً من مفسد ، او يقوم اعوجاجاً من منحرف ، بل ازداد سيده الطاغية فساداً يوماً بعد يوم من صحبته ، بل نعرف رجلاً بشخصه واسمه يتخذ من صحبة الزعماء وسيلة للدس عن الابرياء ، ويحرض الاشرار على التنكيل بالاخيار ، ويوغر عليهم الصدور بالكذب والافتراء ، لا لشيء الا لأنهم ارادوه للدين لا للدنيا ، وللخير لا للشهوات ، ارادوه عنواناً صالحاً للسلف الصالح ، وابى الا ان يكون للطمع والجشع .

ثانياً : ان صاحب الدنيا لا يحتفل بصاحب دين الا إذا اتخذ منه ومن دينه وسيلة لدعم كيانه ، ومحال ان يتقبل النصح ، حتى من الأنبياء إذا صادم هواه . . . وقد دلتنا التجارب ان المخلصين من أهل العلم والدين لا وقع لهم في هذا الزمان عند السياسيين والمتزعمين ، وانهم لا يقربون أي معمم الا إذا انسلخ عن دينه وصار من شرطتهم وجنودهم . . . وقديماً قيل : « من داخل اهل الدنيا دخل معهم » . هذا إذا داخلهم بقصد الصلاح والاصلاح . فكيف بمن تابعهم طمعاً في الحطام ، ورغبة في المديح والثناء من العوام .

ان من يؤمن بالله ، ويتوكل عليه حقاً لا يسأل احداً غيره ؛ ولا يقبل على مخلوق مثله . قال الامام زين العابدين (ع) :

« اللهم ولي إليك حاجة قد قصر عنها جهدي ، وتقطعت دونها حيلي ، وسوّلت لي نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه إليك ؛ ولا يستغني في طلباته عنك ، وهي زلة من الخاطئين وعثرة من عثرات المذنبين ، ثم انتبهت بتذكيرك لي من غفلتي . . . وقلت : سبحان ربي كيف يسأل محتاج محتاجاً ؟ . وأنى يرغب معدم إلى معدم ؟ . فقصدتك يا إلهي بالرغبة ، وافدت عليك رجائي بالثقة بك ، وعلمت ان كثير ما اسألك يسير في وجدك . . . وان كرمك لا يضيق عن سؤال احد ، وان يدك بالعطايا اعلى من كل يد » .

يقول الامام : كيف تخضع وتستعطف من هو مثلك في العدم والاحتياج إلى الله سبحانه ؟ . كيف تقف على باب من إذا نزلت به نازلة التجأ إلى باب الله ؟ . . . ألا تنزه وجهك عن عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ وتلوذ بخالق الأرض والسموات ؛ وقاضي الحاجات ، وكافي المهمات ؟ .

أما قول الامام :

« وقد سولت لي نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجه إليك »

فقد اراد به ان يكشف عن اخطائنا ؛ كي لا تكرر . ولا نرجو احداً الا من يقدر على كل شيء ، ولا يفوته شيء ؛ ولا يعوزه شيء . . . وكي يؤكد هذه الحقيقة سلك نفس الطريق الذي سلكه ابراهيم الخليل (ع) مع قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب ، حيث ألزمهم الحجة حين أفل معبودهم وقال :

﴿ لا أحِبُّ الآفِلِينَ . . . يَا قَوْمِ إنّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ إنّي وَجّهْتُ وَجْهِي لِلّذي فَطَرَ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ حَنيفاً وَمَا أنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ . الانعام ٨٠

وبعد ، فان للناس كل الناس هموماً وحاجات ، تختلف مظهراً ، وتتحد جوهراً . . . لذا قال قائل : ابي اخلصك من جميع همومك ، على شريطة ان تأخذ بدلاً عنها هموم شخص آخر . . . قال هذا ليقينه بأنه لا يوجد انسان بلا هموم .

واحفظ هذا الحديث الشريف ، لعل الله تعالى ينفعك به :

﴿ إذَا سَألْتَ فَاسْألِ اللهَ ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَعْمَلَ للهِ بِالصّدْقِ في اليَقِينِ فَافْعَلْ ، وَإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ذَلِكَ فَإنّ في الصّبْرِ عَلى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً ، وَاعْلَمْ أنّ النّصْرَ مَعَ الصّبْرِ ، وَأنّ الفَرَجَ بَعْدَ الكَرْبِ ، وَأنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾ .

إخواني في الله

ما شرعت بالكتابة في موضوع ما الا تولد في خاطري موضوع آخر قبل ان انتهي من الأول . . . وقد اسجله ، وكثيراً ما اهمله وقبل ان انهي الفصل السابق — الحب في الله — اوحى إليّ بهذا الفصل ، فسجلته بعنوان « اخواني في الله » للصلة العميقة بين الفصلين ، اذن ، من الخير ان تقرأ ذلك اولا ، وتثني بهذا .

لا شيء يعمر القلوب بالسعادة والهناء ، ويضاعف من افراحها ، ان كانت مسرورة مبتهجة ، ويبدد من احزانها ، ان كانت بائسة يائسة . . . مثل الصداقة والاصدقاء .

لا شيء اجمل وأثمن من الصداقة ، لانها اعظم نعم الحياة عند من يفهم الحياة .

لا شيء اقوى وامتن من الصداقة ، لانها ارواح متآلفة متكاتفة بالذات ، لا بتوسط المشاركة في الدماء والانساب .

لا شيء يغني عن الاصدقاء ابداً ، حتى الجاه والمال ، وحتى النساء والعيال ، بل وحتى الصحه والامان .

لا شيء يوازي الصداقة ، لانها حب وولاء ، وتضامن واصطفاء ،

وصدق وصفاء ، وتفاعل الروح مع الروح ، وانجذاب القلب للقلب ، واستجابة العقل للعقل .

ومن عاش بدون اصدقاء فقد عاش في مفازة موحشة مظلمة، وان كان في جنة تجري من تحتها الانهار ومن عاش بهم فهو في نعيم الله والانسانية ، وان كان في قفر مخيف ، لا سبيل فيه ولا دليل .

فالانسان بمعناه الانساني، وان كثر ماله ، وامتد جاهه يظل يحس ويشعر ان في حياته فراغاً ونقصاً إذا فقد الاصفياء والأوفياء ... لانهم يمنحون الحياة البهجة والمسرة .

وقد منّ الله علي بالكثير مما استحق ، وما لا استحق ، ويكفي انه جل وعلى حبّب إليّ الكتاب والقلم ، والبحث والدرس ، ومنحني صبراً دائماً ، وعقلاً فاهماً لكثير مما اقرأ واسمع ، وقلما ينتزع الوقت من القارىء ، ويؤثر فيه من حيث يريد ، او لا يريد .

وإذا فتح الله عقلي بعد الصبر والعناء فلقد أنعم علي بخير الاصدقاء — بعد الغربلة والتصفية — وجعلني اشعر بالسعادة من اجلهم ، ولولاهم لما كان لي شيء آسف عليه في هذه الحياة ، أنعم عليّ بهم عفواً ، وبدون جهد وثمن ، وكلما طالت الايام كلما ازدادت هذه الصداقة قوة ومتانة ، وسمت إلى اعلى فالاعلى ، وهذا هو المقياس الوحيد لتمييز الصداقة المستقرة من المستودعة ، وللصحيحة من الزائفة التي يظن ، ويتراءى انها صداقة ، وما هي في واقعها الا سراب .

صادقت فيما مضى — اكثر من واحد ، ولما طال الزمن ، وتكررت التجربة تبين بوضوح وجلاء انهم يفقدون عناصر الصداقة بطبيعتهم وفطرتهم ،

وبديهة ان هذه العناصر نعمة من الله سبحانه يمنحها لمن يشاء ، ويمنعها عمن يشاء ، تماماً كنعمة السمع والبصر ، والعقل والذكاء . لذا عذرتهم ، وخطأت نفسي ، عذرتهم على الرغم انهم لا يعذرون احداً ، ولا يؤمنون ابداً بأن خير الناس من يعذر الناس . . . وايضاً اعذرهم في ذلك ، لأنهم يفقدون هذا الحس .

واصدقائي ، ولله الحمد ، تتوافر فيهم هذه العناصر بكاملها . . . انهم ناجحون في اخلاقهم ومقاصدهم . . . فأحب ما يحبون الصدق والاخلاص والوفاء ، وابغض ما يبغضون الكذب والنفاق والرياء . . . يحبون الخير لوجه الله والخير . . . لا يلتمسون لفاعله العثرات ، ولا يقللون من قيمته بالتأويلات ولا يثبطون من عزيمته بالافتراءات . . . بل يشجعونه على المضي في سبيله ، ويغرونه بالمزيد . . . لا مكان ابداً في قلوبهم للغرور ، ولا للحقد ، ولا للحسد واسأل الله سبحانه ان يكثر من حسادهم .

يستمتع بعض بصحبة بعض ، ويشعر نحوه بالتعاطف ، ويتمنى ان يكون اخوه خير الناس ، وارفع درجة واسعد حظاً .

لم يخط احدهم خطوة الا التقى مع اخيه ، وما نطق بكلمة الا عبر عن رأيه . . . اتحدوا فكراً وهدفاً وسبيلاً . . . وما اجتمعوا الا استفاد كل من كل علماً وخلقاً .

وليست الحياة عندهم قيلاً وقالاً ، ولا كسلاً واهمالاً ، ولا جلوساً إلى جاهل من غير طائل . . . وانما هي الجهد والصبر ، والقلم والكتاب ، والتذاكر والتدارس ، ثم الانتاج النافع الخالد الذي تعدوا به حدود زمانهم ومكانهم .

ان العالم في مفهومهم هو الذي لا ينقطع عن الكتاب ، يثقف نفسه باستمرار ويعرف كيف يستفيد علماً ، ويفيد ، ويسألون الله سبحانه أن ينشر العلم ، ويكثر من العلماء ، لانهم لا يستطيعون الحياة مع الجهلاء والسفهاء . . . ولانهم من رجال مبادىء الذين يقدرون العلم للعلم ، لا من اصحاب الاهواء والاغراض الذين يتخذون عن علمهم اداة لغرض دنيء ، وينبشون الحفر في طريق السالكين ويموهون افواهها بالتراب والحجاب .

ان اصدقائي لا يتصورون ابداً ان يرتفعوا ان سقط غيرهم ، او يسقطوا ان ارتفع . . .

لقد تصادقنا ، لاننا نحب الصدق ، وتصافينا ، لاننا نحب الصفاء ، وهذا هو الحب في الله ولله ، وتحدثت عن اصدقائي ، لاني احبهم ، واحب كل من يفي لصديقه ، ويتحدث عنه ، لان الوفاء ام الفضائل .

وبعد ، فان لدي الكثير من الكلام عن اصدقائي ، ادعه إلى فرصة اخرى . ولكن شيئاً واحداً يهمني ان اقوله ، ولا بد لي ان اقوله ، كي لا يخدع القارىء بقولي :

ويظن اننا ننظر جميعاً إلى الناس بمنظار واحد . بل ان لكل منا منظاره وحجته .

فصديقي الأول يرى أن سوء الظن بكل انسان هو الاصل ، حتى يثبت العكس ، وحجته ان الزمان فاسد ، وهو لا يريد ان يتزلق ويتورط ، على انه لا يرتب أي أثر في الخارج على سوء ظنه سلباً وايجاباً الا مع الدليل القاطع .

والاصل عندي انا هو حسن الظن ، حتى يستبين لي غير هذا ، او تقوم

به البينة ، ودليلي ان ظاهر الافعال حجة كظاهر الاقوال ، وان افتراض حسن النية بالناس حسن عند الله والناس .

أما صديقي الثاني فيتوقف لا يسيء الظن ولا يحسنه ، ومستنده أن الوقوف عند الشبهات خير من الوقوع في المهلكات .

ويقول صديقي الثالث : ان التوقف في الشبهات الموضوعية لا مصدر له ، حتى عند الاخباريين ، وسوء الظن اطلاقاً ، تماماً كحسنه اطلاقاً ، كل منهما ينافي الاحتياط ، إذ قد نسيء الظن بالمحسن ، او نحسن الظن بالمسيء ، والاجدر الافضل هو الاعتدال . . .

وسر هذا الاختلاف ان الاول قد مر بأكثر من تجربة ، واحسن الظن بأكثر من واحد ، ثم خاب فأله ، والثاني على طبعه لا يستأنس ، ولا يستوحش للوهلة الاولى ، بل يصبر وينتظر ، اما الثالث فقد دأب منذ الصغر على البحث والجدل ، وتقويم الآراء والافكار بمنطق العقل والعلم (١) .

ومهما كان السر ويكون فاني افضل ألف مرة ان احسن الظن بمن لا يستحق على ان اسيء الظن بمن يستحق ، افضل خطأي في ذلك على صوابي ، مع العلم بأني وقعت اكثر من مرة في هذا الخطأ ، وانتقدني من انتقد ، واتهمني من اتهم سامحه الله . . . واقسم بما ادين واعتقد اني لست نادماً ما دمت صادقاً في نيتي ، مخلصاً في مقصدي .

والله سبحانه المسئول ان يعطي الاصدقاء مني اكثر مما اعطاني منهم ، وان يسعدهم بي كما اسعدني بهم ، انه خير مسئول .

---

(١) اعطيت الأرقام للاخلاء على أساس السبق في الزمان . وذكرت الثلاثة على سبيل المثال دون الحصر ، لأن لي باقة أخرى من الأصدقاء ، ولكل نظرته إلى الناس ، وفي الحياة تختلف حسب بيئته وثقافته .

حقوق الجيران

تنقسم احكام الشريعة الاسلامية إلى نوعين :

علاجية ، ووقائية ، ومن العلاجية وجوب التوبة على المذنبين ، وكفارة العهد والنذر اليمين ، وكفارة القتل والافطار في شهر الصيام ، ومنها ايضاً الحدود والقصاص والديات .

ومن الاحكام الوقائية ترك المحرمات ، والابتعاد عن الشبهات ، بل وفعل الواجبات ، يتقي بها المطيع عذاب الآخرة .

وهناك احكام فيها شيء من النوعين ، كحقوق الجار او التأكيد على هذه الحقوق على الاصح . . . فانها وقائية من حيث انها تقي الجار ، وتبتعد له عن المشاحنات والمنازعات التي تحدث — في الغالب — بين المتجاورين لاسباب افهة ، او غير تافهة يستدعيها قرب الدار ونوافذه واطفاله ، وهي علاجيه من حيث انها توجب الصبر وضبط العاطفة والاعصاب لو حصل شيء من ذلك ومن اطلع على هذه الحقوق رأى انها لا تختلف عن الحقوق العامة للانسان على اخيه الانسان الا بالتشدد والتأكيد ، ويدل على ذلك قول الرسول الاعظم (ص) :

﴿ مَنْ آذَى جَارَهُ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ رِيحَ الجَنَّةِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصِيرِ ﴾ .

وبديهة ان الاذى محرم من حيث هو ، ويستدعي العذاب ، سواء أحصل على الجار ام غير الجار ، ولكن الحكمة في هذا التخصيص وهذه المبالغة هو التحفظ من حدوث ما يعكر الصفو ، ويؤدي بالجيران إلى الاحقاد والاضغان .

وقد جمع الامام زين العابدين (ع) هذه الحقوق بدعائه لجيرانه في الصحيفة السجادية ، وهذا ملخصها :

١ — الرفق .

٢ — قضاء الحاجة . . .

٣ — عيادة المريض .

٤ — هداية طالب الرشد .

٥ — مناصحة طالب المشورة .

٦ — زيارة الغائب إذا حضر .

٧ — كتمان السر ، وعدم اشاعة ما يراه من عيوب .

٨ — نصرة المظلوم .

٩ — اعارة ما يحتاج إليه الجار من الادوات .

١٠ — غض الطرف عن العورات .

١١ — التواضع .

١٢ — ترك الحسد .

١٣ — الحب للجار ما تحب لنفسك .

وهذه الصفات — كما ترى — لا يختص حسنها ورجحانها مع الجيران

فقط ، بل تعم الجميع ، ولكنها تتأكد مع الجار دفعاً لما يستدعيه الجوار من النزاع ، والشجار ، ولا شيء أدل على ذلك مما ختم به الامام دعاؤه ، حيث قال :

واجعل لي أوفى الحظوظ فيما عندهم ، وزدهم بصيرة في حقي ، ومعرفة بفضلي ، حتى يسعدوا بي ، واسعد بهم » .

وبعيد ان يعترف الجار بفضل جاره كائناً من كان الا إذا راعى هذه الحقوق ، أو الصفات التي اشرنا إليها .

وبعد ، فان هذه الصفات ، وما إليها ليست الا مظهراً للوحدة بين ابناء البشرية جمعاء ، والا اعترافاً بقيمة الانسان بما هو انسان قريباً كان أو بعيداً عالماً كان أو جاهلاً . وانما تتأكد في الجار لاسباب طارئة ، تماماً كالأمر بدفع السيئة بالحسنة... فان الحسنة راجحة بذاتها ، سواء أكان هناك سيئة تدفع بها ، أم لم يكن ، ولكنها تكون افضل وارجح إذا ترتب عليها دفع السيئات قبل ان تحدث ، او رفعها واستئصالها بعد الوقوع والحدوث .

المحسن والمسيء

المسيء :

قد يكون الانسان مسيئاً من جهة ، ومحسناً من جهة أخرى . وقد تتضاعف الإساءة باعتبار ثالث : يكون مسيئاً حيث يترتب على فعله نتائج سيئة ، ويكون محسناً إذا رأى نفسه انه مسيء فلقد جاء في الحديث الشريف :

﴿ مَنْ رَأى أنّهُ مُسِيء فَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ .

وفيه ايضاً :

﴿ النّدَمُ تَوْبَةٌ ﴾ .

وتتضاعف الاساءة إذا استهان بها صاحبها ، ولم يكترث ، قال امير المؤمنين (ع) :

﴿ أشد الذنوب ما استهان به صاحبه ﴾.

وفي الحديث :

﴿ لا صَغِيرَةَ مَعَ إصْرَارٍ ، وَلا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ ﴾ .

وليس معنى تقسيم المسيء إلى هذه الجهات ان الاساءة تحدد على اساس الشعور ، وانه مقياس الحسن والقبح ، كلا فان الحسن حسن بذاته . او بنتائجه

والقبح كذلك : وانما الشعور يوجب التخفيف من عقوبة المسيء إذا راجع نفسه وانتقدها : كما يوجب التشدد إذا أصر : ورأى انه قد احسن صنعاً .

وشر الناس ، واكثرهم اساءة من يهتم بعيوب الناس ، فيتتبعها : ويضيف إليها ، ويلفق معها ، ثم يشيع ويذيع ، ويتفنن في الشرح والتفصيل ، والتفسير والتأويل ، ولا يحفل اطلاقاً بما يترتب على ذلك من شر وفساد . . . وهو في ذات الوقت يذهل عن عيوبه ، ولو كانت مثل زبد البحر ، ولا دواء لهذا الفاجر الشرير ، بعد ان مات قلبه ، وتمكن الشيطان منه . ويئس اهل السماء والأرض من توبته وهدايته ، ولا دواء له الا ان ترفع شكواك عليه إلى محكمة الحق والعدل التي لا تخفي عليها خافية في الأرض ولا في السماء ، ولا تسألك عن حجج الاقتناع ، ولاتطلب منك البينة : او اليمين : ولا تقبل الشفاعات والوساطات : ولا تميل مع كبير أو صغير ، ولا غني او فقير : ارفع دعواك إلى محكمة الله العلي الأعلى ، وسترى رأي العين ماذا يحل غداً بهذا المستهتر المتمرد وغد آت لا محالة ، تماماً كما يأتي موعد المحاكمة الذي يعينه القاضي في الوقت المناسب ، ارفع دعواك إليها بهذا الاستدعاء وقل كما قال الامام زين العابدين (ع) :

﴿ اللّهمَّ ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَمَنْ أرَادَني بِسُوءٍ فَاصْرِفْهُ عَنّي ، وَادْحَرْ عَنّي مَكْرَهُ ، وَادْرَأ عَنّي شَرَّهُ ، وَرُدَّ كَيْدَهُ في نَحْرِهِ ، وَاجْعَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ سَدّاً ، حَتّى تُعْمي عَنّي بَصَرَهُ ، وَتُصِمَّ ، عَنْ

ذِكْرِي سَمْعَهُ ، وَتَقْفِلَ دُون
إخْطَارِي قَلْبَهُ ، وَتخرِسَ عَنّي
لِسَانَهُ ، وَتَقْمَعَ رَأسَهُ ، وَتذِلَّ
عِزَّهُ ، وَتَكْسِرَ جَبَرُوتَهُ ،
وَتذِلَّ رَقَبتَهُ ، وَتَفْسَخَ كِبْرَهُ ،
وَتؤمِنّي مِنْ جَمِيعِ ضَرِّهِ وَشَرِّهِ ،
وَغَمْزِهِ وَهَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَحَسَدِهِ
وَعَدَاوَتِهِ وَحَبَائِلِهِ وَمَصَائِدِهِ
وَرَجِلِهِ وَخَيْلِهِ . إنَّكَ عَزِيزٌ
قَدِيرٌ ﴾ .

ارفع هذا الدعاء ، او الاستدعاء إلى الله جل وعز ، وانتظر مصير الحقود والحسود على شريطة ان تكافئه بالصبر والتوكل على الله وطاعة الله فيه وفي سواه . . . وحسبك إن يكون عدوك عدواً لله لعدوانه ومعصيته ، وان تكون حبيب الله لطاعتك وتقواك ، وعلى ابي الحسنين الذي قال :

« فما همك وشغلك بأعداء الله ؟ »

فضل التحيات والصلوات .

المحسن :

وقد يكون المحسن مسيئاً من جهة ، كما لو اعجب وتباهى بعمله واحسانه ، قال تعالى :

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ خَيْرٌ مِنْ
صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذًى ﴾ .

وقد يزداد الاحسان احساناً ، كما لو تواضع فاعله ، ولم ير انه المحسن « الكبير » او الصغير ، قال امير المؤمنين (ع) :

« لا تستقيم قضاء الحوائج الا بثلاث : باستصغارها لتعظم ، وباستكتامها لتظهر ، وبتعجيلها لتهنؤ » .

وخير الناس واحسنهم عند الله سبحانه من عمل بوصية امير المؤمنين لولده الامام الحسن (ع) :

﴿ يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، واحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم ، وان قل ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك ﴾ .

والكلمة الجامعة لذلك وغير ذلك هي قوله : فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك فانها وصية الانبياء المرسلين ، والأئمة المعصومين ، وقد اطال فلاسفة الشرق والغرب الكلام حول هذه الوصية الذهبية ، مع علم الجميع بأنه ليس في مقدور أي انسان أن يهب حب نفسه لغيره ، أو يجعل حبه للغير معادلاً لحبه لنفسه ، بخاصة إذا كان المطلوب حبه اجنبياً عن المحب . . .

وقال الفيلسوف الألماني هيجل :

« القصد من هذه الوصية انينسب المرء إلى اخيه قدراً مساوياً من الاحساس بالحياة ، لان كلاً منهما يستمد الحياة من مصدر واحد » .

وهذا المعنى وان كان اقرب من المعنى الذي ذكره شوبنهور وهارتمان وغيرهما الا انه بعيد عن دلالة اللفظ ، لان الحب شيء ، والاحساس شيء آخر

والصحيح ان :

« ان احبب لغيرك ما تحب لنفسك »

تعبير ثان عن قولك :

« يجب عليك ان ترى لغيرك من الحقوق مثل التي تراها لنفسك ، وترى عليك من الواجبات مثل التي تراها على غيرك .
وابلغ من هذا واعمق قول الإمام :

« اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك » .

وليس من شك ان هذا سهل يسير ، لا ضرر فيه ولا حرج ، وأي بأس في ان يقال لك: لا تسيء إلى احد، كما لا تريد ان يسيء احد إليك وعامل الناس كما تحب ان يعاملوك ، والتمس الاعذار لعيوبهم كما تلتمس لعيوبك ولا تقس في حكمك على احد كما تريد ان لا يقسوا احد في حكمه عليك .

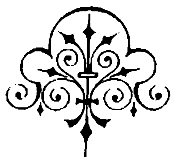
أما سر هذه الوصية فيكمن في عظمة الانسانية التي تتمثل وتتجسم في كل فرد من افرادها ، قال بعض العارفين : « ان الكون كله لا يساوي شيئاً

بجانب حياة انسان واحد » اي ان الانسان اشرف من الكون بأرضه وسمائه بشمسه وقمره ؛ وجميع كواكبه ، وما فيها ، وكأن هذا القول مأخوذ من الحديث الشريف :

﴿ المُؤْمِنُ أعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الكَعْبَةِ وَمِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ﴾ .

إذن ، من اعتدى على انسان يؤمن بالله ، واضمر له السوء فقد اعتدى على الكعبة ، بل على الكون بكامله . . . هذا إلى ان مبدأ « احبب لغيرك » لو طبق لضمن للناس ، كل الناس الأمن والعدل والرفاهية .

القسم الثالث
من المناجاة





المناجاة

لقد بذل الأئمة الهداة (ع) أقصى ما لديهم من جهد ليخلقوا شيعتهم باخلاقهم ويقصدوا بهم قصدهم ، وسلكوا لذلك كل سبيل ، ولم يختصروا على القاء الخطب والمواعظ ، والدروس والمحاضرات ، وضرب الامثال والحكم وايراد القصص والحكايات ، بل اوجدوا لهم آثاراً أخر من غير هذا النوع ، وغير الأساليب المألوفة في فن التربية الحديثة ودور المعلمين والمعلمات وعنوا بها عناية خاصة ، لأنها أجدى وأبلغ في التأثير والتهذيب .

وقد اصطلح الشيعة على تسمية تلك الآثار التي لا يقدر قدرها إلا من فتح الله عليه باب علمه وهدايته ، اصطلحوا على تسميتها بالأدعية والزيارات ، ولكنها في واقع الامر إشراق إلهي يكمل ما في النفس البشرية من نقص ، ويطهر ما فيها من رجس ، ويصلح ما فيها من فساد ، هي وحي ما في ذلك شك . ولكنها وحي المحبة والاخلاص . وفيض الضمير والوجدان الحي أراد أئمة الشيعة ان يجردوا من كل نفس رقيباً ملازماً لها في السر والعلانية مسيطراً عليها سيطرة السيد على عبده والقائد على جنده يقربها من الطاعة ويبعدها عن المعصية ، فسنوا لأتباعهم أدعية ومناجاة رتبوها على الأيام والأوقات ، وأمروهم بتكرارها ومعاودتها حتى تصبح لهم طبيعة ثانية : فدعاء للصباح ، وآخر للمساء ، وفي كل يوم من ايام الشهر ، وفي كل ليلة من ليالي

الجمعة دعاء خاص ، ولكل من رجب وشعبان ورمضان ولياليه عشية وسحراً وأيامه ظهراً وعصراً أدعيه معينة . وأودعوا هذه الاوراد مكارم الاخلاق بكاملها ، وعلى الأصح أودعوها أخلاقهم الكريمة بالذات ، وهي لا تعد ولا تحصى . وقد جمعها علماء الامامية في كتب خاصة . منها الصحيفة السجادية . والاقبال لابن طاووس . ومصباح الكفعمي . وجامع الادعية والزيارات نذكر منها في مقامنا هذا بعض الفقرات على سبيل الشاهد والمثال :

« ما لي كلما قد قلت صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزالت قدمي ، إلاهي لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني ، أو لعلك رأيتني معرضاً عنك فقليتني . أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني ، او رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني ، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني . أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني ، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني ، أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني ... اللهم ألبسني زينة المتقين في بسط العدل وكظم الغيظ وحسن السيرة ، والسبق إلى الفضيلة ، والقول بالحق وإن عز . والصمت عن الباطل وإن نفع ، واستقلال الخير ، ان كثر من قولي وفعلي ، واستكثار الشر وان قل من قولي وفعلي . . . اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك ، وتفكيراً في قدرتك ، وما جرى على لساني من لفظة فحش او هجر او شتم عرض او شهادة باطل او اغتياب غائب او سب حاضر نطقاً بالحمد لك . وأغراقاً في الثناء عليك... اللهم الحقني بصالح من مضى واجعلني من صالح من بقي ، وخذ بي سبيل الصالحين .. اللهم اني اعوذ بك من الكسل والفشل والهم والحزن والجبن والبخل والغفلة والقسوة والذلة والمسكنة والفقر والفاقه ، واعوذ بك من نفس لا تقنع ، وبطن لا يشبع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء

لا يسمع ، وعمل لا ينفع وصلاة لا ترفع » .

فهل ترى وسيلة أيسر من هذه الوسيلة ، وأبعدها أثراً واعمها نفعاً! وهل ترى شيئاً أقرب إلى النفس، وادنى من القلب والعقل من هذه الخشية والسكينة ؟ وهل ادعى إلى التفكير والتأمل والرجوع بالنفس ، إلى بارئها من هذا الشعور الديني الذي يبعث في القلب رغبة ورهبة وحناناً ورحمة .

ان هذا النحو من التأديب لم يكتشفه احد في التربية الحديثة بعد ولم تهتد إليه رجاله الاخصائيون ، فلم يكتف الامام بتعداد المساوي ، واضافة كل سيئة إلى نتيجتها الحتمية التي لا تنفك عنها بحال ، وانما علم الانسان كيف يتصل بخالقه رأساً ومن غير واسطة ، وكيف يخلد إلى ضميره ووجدانه ، ويعكف على نفسه فيهذبها ويجرد منها وازعاً يقف سداً بينها وبين شهواتها واندفاعاتها ، متجهاً بها إلى الخير والكمال ناهجاً منهج السعادة والفضيلة .

على هذا الأساس ، أساس الشعور بالله وبالخير والتجرد من الشهوات والأهواء وتهذيب الأخلاق والطباع ، وتثقيف العقول والمواهب . على هذا الاساس أراد أئمة الشيعة ان يقيموا بنيان الانسانية لتسيطر المحبة والعدالة، ويعم الأمن والسلام .

وقعت البشرية في أشد مما هي فيه اليوم من الجهل والعدوان وافشاء الرذيلة والفحشاء . ولم ينشلها من تلك الهوة السحيقة العميقة القنابل والطائرات ، ان هذه تزيد المشاكل تعقيداً وتقف حجر عثرة في سبيل الصلاح والاصلاح لأن الأدواء والأوباء لا تعالج بإيجاد اسبابها الباعثة على نموها وانتشارها . لقد وقع العالم في شر مما هو فيه الآن ، فكان خلاصه على يد الرسل والأنبياء ، رسل الرحمة والسلام ، وانبياء الانسانية والعدالة ، ان احياء

روح الفضيلة في النفوس هي السبيل الوحيدة الموصلة إلى الراحة وحسن العاقبة والسعادة في الدنيا والآخرة .

ليس الغرض من هذه الاوراد التقرب إلى الله سبحانه بتلاوتها وترديد ألفاظها ، وانما القصد ان نتفهم معانيها ومغازيها ، فتغمر بها نفوسنا ، ويستغرق بها تفكيرنا ، لنعمل جاهدين معتقدين أن من ورائنا قوة خفية تراقب وتحاسب ، فتعين المخلص في جهاده ، وتمهد له سبيل النجاح ، وتشجعه على المضي والنشاط .

« ربي قوّ على خدمتك جوارحي ، واشدد على العزيمة جوانحي وهب لي الجد في خشيتك ، والدوام في الاتصال بخدمتك ، حتى اسرع إليك في ميادين السابقين ، واشتاق إلى قربك في المشتاقين ، وادنو منك دنو المخلصين ، واخافك مخافة الموقنين » .

وهل القرب من الله غير الجهاد في سبيل الصالح العام ؟

وهل السباق في ميادين الله غير المسارعة إلى الفضائل والخيرات ؟

وهل الاتصال بخدمة الله غير المثابرة على العمل الذي يعود بالنفع عليك وعلى أهلك واطفالك ؟

« اللهم اعطني السعة في الرزق ، والأمن في الوطن ، وقرة العين في الأهل والمال والولد والصحة في الجسم والقوة في البدن والسلامة في الدين » .

ان هذه ثمرات ينتجها السعي مع التوكل على الواحد الأحد ، وهل تجد شيئاً امس بالعاطفة ، واسرع تأثيراً وانفعالاً من قول الامام زين العابدين (ع) .

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، واجعل اوسع رزقك علي إذا كبرت واحسن ايامي يوم القاك » .

وأي حرمة او هيبة للمرء عند زوجه واولاده إذا شاب رأسه وقل ماله ولا يوم كيومه الاخير الذي عليه مدار سعادته اوشقائه الابديين .

وبعد ، فان هذه الكنوز ليست بأدعية ولا اوراد فحسب وانما هي كتاب الدهر ومدرسة الحياة . وثروة القلب والعقل فيجب ان يقرأها المؤمن والملحد. لأنها الوازع الوجداني في هذه الحياة ، فضلاً عما فيها من اللذة ومتعة وجمال .

كان الشيعة الامامية منذ عهد ائمتهم إلى زمن قريب يحفظون هذه الآثار ذكوراً واناثاً كباراً وصغاراً ، يجتمعون في المساجد وفي البيوت يكررونها خاشعين متضرعين ، فيشعر كل واحد أنه خلق لعمل الخير لا للشر ، ووجد للطاعة لا للمعصية ، ثم اهملوها كما اهملوا غيرها من الشعائر والعادات المقدسة التي كانوا بها مثلاً أعلى لصدق الايمان ورسوخ العقيدة .

من تسبيحات الامام زين العابدين

قارن بعض الأفاضل بين الأديان ، وانتهت بهالمقارنة إلى أن تعاليم موسى تهدف إلى السعادة الدنيوية المادية ، قال : وإلى هذا أشار القرآن الكريم .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ
إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ ﴾ .
الآية ٤٤ القصص

وتهدف تعاليم السيد المسيح إلى السعادة الروحية الأخروية ، وإليه اشارة الآية ١٥ من سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ
انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾

وتعاليم محمد تجمع بين السعادتين .

وأظن أن صاحب هذا الرأي أراد أن يثبت فضل الاسلام فسلك هذه السبيل ، مع أن الشواهد على فضل الاسلام أكثر من أن تحصى ، وهذا الرأي يستتبع نفي النبوة عن موسى وعيسى ويتنافى مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي اعترف صراحة بما أنزل عليهما من التوراة والانجيل :

﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ
قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَأَنْزَلَ
الفُرْقَانَ ﴾ . الآية ٣ آل عمران

ووجه المنافاة أن الأديان كلها تهدف إلى صلاح الانسان ، والانسان مادة وروح ، كان كذلك وما يزال ولن يزال ، ولم يكن مادة فقط في عهد موسى ، وروحاً فقط في عهد عيسى ، وجامعاً لهما في عهد محمد .

إن رسالة الدين أي دين ترتكز على الجانب المادي والجانب الروحي في الانسان ، ولا تفصل بينهما بحال . خذ أي تعليم من تعاليم الدين فانك تجدها مرتبطة بالمادة ارتباطاً وثيقاً حتى الصلاة فانها اعتراف من المصلي بوجود قوة داعية إلى عمل الخير في دنيانا هذه .

هذا علي بن الحسين بن علي كان يلقب لكثرة عبادته وزهده بالسجاد ، وبزين العابدين ، ناجى ربه بأدعية جمعت في الصحيفة السجادية ، وأسلوبها أشبه باسلوب نهج البلاغة لجده الامام علي بن أبي طالب ، وتبدو هذه الأدعية للوهلة الأولى روحية محضة لا تمت إلى المادة بسبب ، ولكن بالتأمل تظهر صلتها الوثيقة بالعيش وبالاسرة وبالمجتمع ، وإليك الأمثلة :

كل يوم حادث جديد :

من دعاء له كان يردده في الصباح والمساء :

« وهذا يوم حادث جديد وهو علينا شاهد عتيد ، إن احسنا ودعنا بحمد ، وإن اسأنا فارقنا بذم » .

إن كل يوم من حياة الانسان هو صفحة جديدة تنشر في الصباح ، وتطوى في المساء لتنشر الصفحة التالية . وهكذا إلى اليوم الأخير من حياته حيث تنتهي آخر صفحة من الكتاب ، توضع الأرقام لكل صفحة بالتسلسل ، وتسجل فيها الأعمال اليومية بالترتيب . ويقرأ الناس هذه الصفحات ، فان وجدوا

في صفحة أثراً لاعزاز الحق واذلال الباطل قالوا هذا يوم أغر ينطق بالشكر والثناء على صاحبه ، لأنه احسن صحبته فاستقبله بعمل الخير والاحسان . وفارقه بترك الشر والطغيان .

إن الوقت أثمن ما في الحياة . بل هو نفس الحياة فمن استخف بوقته فقد استخف بحياته . والكسالى الذين تتاح لهم فرصة العمل ، ولا يعملون يجب عدهم مع الأموات . بل الأموات خير وأفضل . لأنهم يزاحمون الأحياء على عيشهم ولقمة أطفالهم . ومن قضى حياته بالكذب والرياء والخيانة . فقد انحرف بالحياة عن طريقها القويم إلى سبيل المهالك والمفاسد . ومن استعان بوقته في عمل الخير فأرشد الضال ، وأعان الضعيف ، وأدرك اللهيف فقد أدى أمانة الدين والإنسانية حق الإداء . واستحق المدح والثناء .

التوبة :

قال الإمام من دعائه لطلب التوبة : « اللهم انه يحجبني عن مسألتك خلال ثلاث ، وتحدوني عليها خلة واحدة . يحجبني أمر أمرت به فأبطأت عنه . ونهي نهيتني عنه فأسرعت إليه . ونعمة أنعمت بها علي فقصرت في شكرها . ويحدوني على مسألتك تفضلك على من أقبل بوجهه عليك . ووفد بحسن ظنه إليك ، إذ جميع إحسانك تفضل . وإذ كل نعمك ابتداء » .

من الناس من يفعل الواجب ويترك المحرمات ، وعمل هذا خير محض. ومنهم من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . ومنهم من يترك الواجب . ويفعل المحرم . ولا يشكر النعمة . وعمل هذا شر محض ، وهو الذي تصدى الإمام . وأخذ بيده إلى طريق التوبة والهداية . وعرفه أن ذنبه مهما عظم فان عفو الله أعظم ، وأن الله يقبل التائب ويثيبه ، لأنه لا يعطي الناس استحقاقاً . بل

تفضلاً ، وأن رحمته أقرب من نقمته ؛ ورضاه أقرب من غضبه ؛ يعطي الكثير ويتجاوز عن الاثم الكبير ؛ ولو عامل الناس بما يستحقون ما ترك على ظهرها من دابة .

الوالدان :

وقال من دعائه لابويه :

« يا الهي أين طول شغلهما بتربيتي ! وأين شدة تعبهما في حراستي ! وأين اقتارهما على أنفسهما للتوسعة علي ! هيهات ما يستوفيان مني حقهما ، ولا أدرك ما يجب علي لهما ، ولا أنا بقاض وظيفة خدمتهما » .

يضحي كل من الأب والأم بالنفس والنفيس في سبيل الولد ؛ فيقدم صحته على صحته ، وحياته على حياته ، ثم لا يبتغي منه جزاء ولا شكورا ، وكل رغبته أن يكون شيئاً مذكوراً ، فيزين محضره ، ويحيي ذكره ، ويسد مسده في غيابه ، ان الولد البار يقابل هذه التضحية بالطاعة والشكر فيؤثر — كما قال الإمام — رضاهما على رضاه ، ويقدم هواهما على هواه ، ويهابهما مهابة السلطان العسوف ، ويبرهما بر الأم الرؤوف ، ويستكثر برهما به وان قل ، ويستقل بره بهما وان كثر .

المال :

ومن دعائه :

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، وهب لي العافية من دين تُخلق به وجهي ، ويحار فيه ذهني ، ويتشعب له فكري ، ويطول بممارسته شغلي .

وأعوذ بك يا رب من هم الدين وفكره ، وشغل الدين وسهره ، فصل على محمد وآل محمد ، واعذني منه . واستجير بك يا رب من ذلته في الحياة ، ومن تبعته بعد الوفاة ، فصل على محمد وآل محمد . واجرني منه بوسع فاضل أو كفاف واصل ، اللهم صل على محمد وآل محمد . واحجبني عن السرف والازدياد ، وقومني بالبذل والاقتصاد ، وعلمني حسن التقدير ، واقبضني بلطفك عن التبذير ، واجر من أسباب الحلال أرزاقي ، ووجه في أبواب البر انفاقي ، وأوزعني من المال ما يحدث لي مخيلة أو تأدياً إلى بغي أو ما أعقب منه طغياناً ، اللهم حبب إلي صحبة الفقراء واعنّي على صحبتهم بحسن الصبر » .

تعوذ الإمام من الدين ، لأنه هم وذل وقلق واضطراب ، حيرة في النهار وسهر في الليل ، تعوذ من الدين . وسأل الله الغنى عنه برزق واسع فاضل ، أو كفاف واصل ، ولكن المال وحده لا يغني عن الدين إذا لم يكن معه تدبير وحسن تقدير . فقد يكون للمرء أملاك طائلة ، ولكنه يبذرها في غير وجهها ، فيضطر إلى الدين ، والرهونات ودفع الربا ، لذا سأل الإمام ربه أن يقومه بالبذل والاقتصاد . أي بالاعتدال في البذل والانفاق ، فيأتيه المال من الحلال . ويصرفه في الحلال ، فلا يأخذ درهماً من غير حق ، ولا يضع درهماً في غير موضعه ، كما سأله أن يزوي عنه من المال ما يحدث الخيلاء والكبرياء ، ويؤدي إلى البغي والطغيان ، وما رأيت كلاماً أجمع وأوجز في المال من هذا الكلام ، كسب من عمل حلال ، وانفاق في سد حاجة ، حياة لا لك ولا عليك ، ولا شائبة فيها من حرام ، ولا غطرسة واستعلاء ، ولا ذل واستجداء .

وقد يتساءل : ان الإمام سأل ربه في دعائه أن يرزقه صحبة الفقراء مع أنه تعوذ من الفقر والدين ، ومن أقواله في غير هذا الدعاء :

« ولا تجعل عيشي كداً كداً ... وصن وجهي باليسار ، ولا تبتذل جاهي بالاقتار ، فاسترزق أهل رزقك ، واستعطي شرار خلقك ، فافتن بحمد من أعطاني ، وابتلي بذم من منعني ... واعصمني من أن أظن بذي عدم خساسة ، أو أظن بصاحب ثروة فضلاً » .

الجواب :

ان الفقر كما قال الإمام كد ونكد وذل . وهو فوق ذلك يحمل صاحبه على أن يظن الشر بأهل الخير . والخير بأهل الشر . فيذم من يستحق المدح . ويمدح من يستحق الذم ، لذا تعوذ منه الإمام ، فاما صحبة الفقراء فانها السبيل إلى معرفة المجتمع وأدوائه . والباعث على الجهاد والعمل لتغيير الأوضاع الفاسدة ، على العكس من مجالسة الأغنياء فانها تبعث على الكسل والخمول ، وسوء الظن بالله والصالحين من عباده. قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لا تجالسوا الموتى ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : كل غني مترف ، وقال الإمام علي (ع) : مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالاخيار ، وقال الإمام محمد الباقر :

« إياكم ومجالسة الأغنياء ، فان الإنسان يجالسهم ، وهو يرى أن لله عليه نعمة ، فما يقوم حتى يرى أن ليس لله عليه نعمة » .

الشعور بالمسؤولية :

ومن دعائه :

« اللهم اني اعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره ، ومن معروف أسدى إلي فلم أشكره . ومن مسيء اعتذر الي فلم اعذره . ومن ذي فاقة

سألني فلم أوثره ، ومن حق ذي حق لزمني فلم أوفره ، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره ، ومن كل إثم عرض علي فلم أهجره » .

إن معنى الدين أن يشعر الانسان بالمسؤولية امام الله وامام نفسه . وامام الناس وفي هذه الكلمات القصار نجد التفسير الكافي الوافي للشعور بالمسؤولية .

فإذا رأيت قوياً يتحكم بضعيف لا يجد عليه ناصراً إلا الله وأهل الدين والضمير ، ولم تكترث ، ولم تشعر بوجود رقيب خفي فاعلم بأنه لا دين لك ولا ضمير .

وأي انسان اسدى إليك معروفاً مادياً أو ادبياً ، ولم تشعر بوجوب شكره ومبادلته ، بل كان عندك ومن يجهلك سواء فأنت ملعون بكل دين .

وإذا اساء إليك شخص ، ثم اعتذر ولم تشعر بأن عليك ان تقبل وتسامح فأنت لئيم تبرأ منك الانسانية والاديان السماوية .

وإذا سألك سائل وأنت تعلم بفقره وفاقته . ولم تشعر بأنك أصبحت مديوناً له ، او استدنت ديناً ، ولم تشعر بوجوب الوفاء فانت فاقد الاحساس لا تبالي أأحسنت أم أسأت .

وإذا رأيت عيباً من أخيك فطرت به فرحاً تعلنه على الناس ، ولم تشعر بأن ما أخفيت من عيوبك أضخم وأعظم كنت من دعاة الفاحشة والضلالة .

وإذا قادك الهوى لارتكاب إثم ، ولم تشعر من نفسك برادع يردعك عنه فأنت لا تؤمن بالله ولا بالضمير . حتى ولو حلفت بالله ألف مرة في اليوم وصليت له في الصباح والمساء .

وبالتالي فكل ما يخلق الشعور بالمسؤولية ، والخوف من عمل الشر ، والاطمئنان لعمل الخير فهو من الدين في الصميم ، وإلا فتخريف وأوهام .

العز الظاهر والذل الباطن

« اللهم لا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها ».

الإمام زين العابدين

كان الذين يبحثون عن السلوك يصفون نفسية الفرد على اساس انها تصدر عن ذاته وطبيعته منفصلة عن كل ما يحيط به من المؤثرات الخارجية ، ثم يقسمون هذه الظواهر إلى نوعين فضائل ورذائل ، ويعدون من النوع الأول : الصدق والتواضع والاخلاص والكرامة والشجاعة ، وما إلى ذلك ، ومن النوع الثاني : الكذب والرياء والعجب والبخل والجبن وما اشبه .

واننا نعرض انفسنا للسخرية إذا وثقنا بهذا القول واخذناه على اطلاقه وعلاته . ان الانسان يخضع في سلوكه لطبيعته ومزاجه في كثير من الاعمال ، مافي ذلك ريب ، ولكنه يخضع ايضاً للعوامل المحيطة به ، فيتأثر بتقاليد الاسرة ، وعادات المجتمع ، ونظام المدرسة ، والحركات الاقتصادية من حيث يشعر او لا يشعر ، فهو مضطر بحكم هذه المؤثرات ان يضغط اعصابه ، ويقدر المسؤولية ، ويسير بأناة وتعقل مهما تكن طبيعته ومزاجه ، والا كان مقره في المارستان . لذا يبحث علماء النفس في هذا العصر الصفات النفسية للفرد في ضوء هذه الحقيقة ، فيقولون : هذا يكره الظلم ، لأنه ظلم ، او لانه ينتمي إلى فئة تستغلها فئة أعلى ، وذاك يضحي بأعز ما لديه في سبيل وطنه

واستقلاله ، لأنه يؤمن بالحرية ، او باليوم الآخر ويرجو ان يعوض الله عليه اضعافاً ، او يؤمن بهما معاً ، ويقولون : فلان عف اليد واللسان لأن تربيته اتجهت به إلى هذا التهذيب .

ولكن هناك بعض الظواهر لم يتعرض لها علماء النفس والاخلاق ولا غيرهم من القدامى والجدد ، لانهم لم يشاهدوها ويعثروا عليها ، ولا على نظائرها وهم يستقرئون ويحصون الصفات النفسية الفطرية والمكتسبة ، ولم تخطر لهم على بال ، لأنها اسمى من ان تكتشفها عقولهم او هي بعيدة كل البعد عن حياتهم وامزجتهم ، هي منحة يخص الله بها صفوة الصفوة من عباده الاطهار امثال الامام زين العابدين الذي خاطب ربه مناجياً :

« ولا ترفعني في الناس درجة الا حططني عند نفسي مثلها ، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً الا احدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها » .

أرأيت إلى نور الله يملأ السماوات والأرض ؟ ! أرأيت إلى جلال الله وعليائه وإلى رحمته وآلائه ، وإلى عظمته وحكمته ؟ ! انها جميعاً تتجسم في هذا الخلق ، وفي هذه النفس .

لقد ألفنا ان نسر ونغتبط إذا ارتفعنا درجة ، ولو وهمية ، وان ننتقل التهاني وتقام لنا حفلات التكريم ، فتتلى الخطب ، وتنشد القصائد ، وتدبج المقالات ، بل لقد ألفنا ان نطالب ونعاتب من لا يقدم التهنئة على هذه الدرجة الزائفة التي نالها بالوساطة والشفاعة ، او على حساب اهل العلم والعدل ، او لإعانة الرئيس الخائن على الاثم والعدوان ، نهنيء امثال هذا ، وكان الاولى ان نعزيه على شقائه ومحنته . اجل ، لقد اعتدنا على ذلك ، اما العكس ، اما ان نطلب ذلاً باطناً اذ حدث عزة ظاهر . اما ان نسأل درجة منخفضة

عند انفسنا إذا ارتفعنا درجة عند الناس ، فهذا شيء لم نره ، ولم نسمع به ، ولم يخطر لنا على بال .

لقد دلتنا التجارب على ان ذات الشخص تتغير وتتبدل إذا تغيرت ظروفه واحواله ، فنحن نعرف رجالاً كانوا مثال التواضع ودماثة الخلق عندما كانوا فقراء معوزين ، ثم اصبحوا اخبث من الافاعي ، وأضر من الحشرات السامة حين صاروا من ذوي الثراء واليسار . كان اللؤم كميناً في انفسهم يغطيه الضعف ويخفيه العجز . ولما أحسوا القوة من انفسهم رجعوا إلى حقيقتهم وظهر ذنسهم بأوضح معانيه ، تماماً كالذين يظهرون الولاء للشعب ، وهم بعيدون عن الكراسي ، حتى إذا اخذوا منها بنصيب تحالفوا مع ألد أعدائه ، وساوموا للاحتفاظ بها على ارضه وسمائه .

هذا هو شأن اللئيم الخبيث يتعاظم ويطغى ان رآه استغنى ، اما الطيبون الذين يشعرون بالمجتمع ويهتمون بشؤونه ، ويتوجعون لاوجاعه ، فلا تبدل او تغير الاوضاع من طبيعتهم شيئاً سواء أرفعتهم الظروف إلى الاعلى ، ام انحطت بهم إلى الاسفل ، فحقيقتهم في الحالين واحدة : آمنوا بالعدالة والمساواة ، وهم ضعفاء لا يقدرون على شيء ، وبقوا على ايمانهم بعد ان صاروا اقوياء قادرين على كل شيء ، فالقدرة لم تحولهم عن دينهم ومبدئهم ، والعلو لم ينحرف بهم عن سبيل الرشد ، ولم تحدث لهم كبراً ولا عجباً ولا فخراً ، ولو حدثت ذرة من هذه في قلوبهم لقضت على كل ما فيها من ايمان وتقدير للمسؤولية ، لذا طلب الامام ، وهو العليم الحكيم ، ان لا يرفع في الناس درجة الا حط عند نفسه مثلها ، هذا هو العز بمعناه الصحيح . وهذي هي العظمة عند الله والناس . انك عظيم إذا تجردت عن انانيتك . ودنت بدين الحب والانسانية ، ورأيت لنفسك عين ما تراه لأضعف مخلوق بدون

تفاوت ، اما الذي عليك فيختلف باختلاف مقدرتك واجوائك ، فالمساواة انما تكون في الحقوق التي يلزم الانسان حفظها والمطالبة بها . اما الواجبات فهي على كل بحسبه ، والسبيل الوحيد لتأدية الواجب على وجهه الأكمل ان لا يغتر الانسان بارتفاع شأنه عند الناس، وان يكون معهم حيث كانوا، ومتى تخيل انه فوقهم ، وانهم دونه حال هذا بينه وبين قيامه بالواجب المقدس .
ومن هنا قال الرسول الاعظم :

﴿ أللّهُمَّ أحيني مِسْكِيناً ، وأمِتْني مِسْكِيناً ، وَابْعَثْني مَعَ المَسَاكِينِ ﴾ .

لقد اعتدنا ان نقول : فلان متواضع إذا تلقى الناس بالبشر والترحاب واتسع صدره لجليسه ، واصغى للسخف من حديثه ، نقول : انه متواضع ولو كان قلبه لا يعرف الا اللؤم والحقد ، ونفسه الا الكذب والرياء . ان المتواضع حقاً من اتعظ بقول الامام ، وعمل به ، ولا يغتر بمال او جاه ، من شكر نعمة المال بالبذل والانفاق ، ونعمة الجاه باستخدامه في طاعة الله وصالح الجماعة ، ان الله سبحانه يمتحن عبده بشتى الوسائل ، ليظهره للناس على حقيقته ، كي لا يتهموا اميناً ، ولا يأتمنوا خائناً ، ومن اظهر دلائل الخيانة وسوء النية الاستعلاء والتعاظم .

وبالتالي فان الانسانية في كل زمان ومكان بحاجة ماسة لقائد في اخلاق الامام زين العابدين .

التصوف وأهل البيت

أهتم أهل البيت (ع) اهتماماً بالغاً بالأدعية ، والأوراد ووضعوا لها صيغاً خاصة ، حفظها عنهم شيعتهم وأتباعهم ، وألفوا فيها الكتب والمجلدات قال زكي مبارك في المجلد الثاني من كتاب « التصوف الاسلامي » :

« كانت ادعية زين العابدين مما اهتم به الشيعة اهتماماً شديداً ، فصححوا رواياتها ، ونقدوها ، وكتبوها بالذهب في كثير من البلدان . . . والصوفية يعتقدون ان زين العابدين كان من اهل الاسرار » .

وتكلمت عن هذه الأدعية والاوراد فيماسبق . والآن اقتطف جملاً من دعاء كان يدعو به الامام الشهيد الحسين بن علي في يوم عرفة :

القضاء والقدر :

« منه » :

﴿ الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع ،
ولا لعطائه مانع ، ولا لصنعه صانع ﴾ .

ينسب القضاء إلى الله سبحانه ، وإلى غيره ، ونسبته إليه عز وجل تأتي على معنين : الأول على معنى الخلق والتكوين ، كقوله تعالى :

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾.
غافر ١٢

أي اوجدهن وكونهن . الثاني على معنى الامر والحكم التشريعي ، كقوله سبحانه في الآية ٢٣ من الاسراء :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ .

أي أمر بذلك ، وقال عز من قائل :

﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ . ٤٠ يوسف

وإذا نسب القضاء إلى الانسان يكون على معنى الحكم ، كقوله في الآية ٦٥ من النساء :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ .

أي مما حكمت وأمرت .

و « منه » :

﴿ اللّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ كَأَنِّي أَرَاكَ ، وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ ،

وَلا تَشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ ...
وَبَارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ حتى لا أتَعَجَّلُ
مَا أخَّرْتَ، وَلاأسْتَأخِرُ مَا عَجَّلْتَ ﴾

كنت ، وما زلت أتساءل : هل الذين يعصون الله ، ويتجاوزون حدوده يؤمنون بالله واليوم الآخر ، او انهم يتظاهرون بالايمان رياء ونفاقاً ؟ . . وبكلمة هل يجتمع الايمان مع العصيان ؟

تساءلت عن ذلك ، ولم اجد الجواب المقنع لا عند نفسي ولا فيما سمعت وقرأت ، وربما يجاب عن هذا التساؤل :

أولاً : بان العاصين يؤمنون بالله ، ولكنهم يرجون عفوه ومغفرته ويعتمدون على قوله سبحانه :

﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ إنْ يُشْرَكَ
بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ﴾ . النساء ١١٦

وبديهة أن الغفران لا يأتي جزافاً ، بل لا بد له من سبب تقتضيه الحكمة الالهية ، والا لم يكن للتكيف وتشريع القوانين من فائدة ، وكان الطائع والعاصي والمحسن والمسيء سواء في نفي المسئولية وعدم العقاب ، وكلنا يعلم أن سبب الغفران هو التوبة والانابة والرجوع إلى طاعة الله مع الندم والعزم على عدم العودة إلى العصيان ، أما من اصر على الذنوب ، وبخاصة الكبائر منها فأمره صعب عسير .

ثانياً : انهم مؤمنون ، ولكن ايماناً ضعيفاً لا يقوى على مقاومة العاطفة والمغريات ، فإذا اصطدم معها كان مغلوباً لا غالباً ، فكما ان ضعيف الجسم

يتغلب عليه من هو أشد واقوى كذلك ضعيف الايمان تصرعه الاهواء والشهوات .

ومهما يكن ، فان الايمان لا يتجزأ ، فإذا صلى الانسان وصام ، وهلل وكبر بدافع الدين ، فينبغي له أيضاً أن يمتنع عن الكذب والرياء والدس والخيانة ، وما إلى ذلك من المحرمات والموبقات ؛ يمتنع عنها بهذا الدافع ، والا كان ايمانه تصوراً وتخيلاً . اشبه بأريحية البخيل واهتزازه حين يستمع إلى حديث الشجاعة . ان المؤمن حقاً هو الذي يعمل ، وكأنه في يوم الحساب ينظر إلى الخلائق ، وهم أمام الله سبحانه يجازي كلاً بأعماله ، تماماً كما قال الحسين :

﴿ اللهم اجعلني أخشاك كأنّي أراك ﴾.

وكما قال ابوه امير المؤمنين :

﴿ اعبد الله كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ﴾ .

و « منه » :

﴿ اللهمَّ اجعل غناي في نفسي ،
واليقين في قلبي ، والإخلاص في عملي ،
والنور في بصري ، والبصيرة في ديني ﴾

ان كل واحد من الناس كائناً من كان يحتاج إلى الناس ومحال ان يتم المجتمع ويكتمل بدون التعاون ، فأنت متمم ما في غيرك من نقص . وغيرك متمم ما فيك من نقص . والكل يسيرون في طريق الاكتمال الاجتماعي . وإذا لم يكن الانسان كائناً مستقلاً عن غيره ؛ فكيف سأل الحسين ربه سبحانه أن يجعله غنياً في نفسه ؟ !

الجواب :

ان التعاون على الخير فضيلة من غير شك ، لانه ضرورة اجتماعية ؛ اما العيش على حساب الآخرين ، وبيع الدين والكرامة بالدنيا وحطامها فرذيلة ممقوته يتعوذ بها كل مخلص ، كما يتعوذ من الشيطان ؛ والحسين (ع) سأل ربه الغني عن كل موقف مشين يمس من دينه وكرامته ، سأله ان يكون غنياً في عمله وجده واجتهاده ، واثقاً بالله دون غيره ، مفتقراً إليه دون سواه .

قال الامام الصادق (ع) :

« اتقوا الله وصونوا أنفسكم بالورع ... والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان واعلموا ان من خضع لصاحب سلطان ، او لمن يخالفه على دينه طلباً لما في يده من دنياه اخمله الله ومقته عليه ؛ ووكله إليه ، فان هو غلب على شيء من دنياه فصار إليه منه شيء نزع الله البركة منه . ولم يوجره على شيء ينفقه في حج ، ولا عتق ، ولا بر » .

ونقل عن الشيخ البهائي انه عقب على هذا الحديث بقوله :

« صدق الامام ، فقد جربنا ذلك ، وجربه المجربون قبلنا ، واتفقت الكلمة منا ومنهم على عدم البركة في تلك الاموال ، وسرعة نفادها واضمحلالها ؛ وهو أمر ظاهر محسوس يعرفه كل من حصل على شيء من تلك الأموال الملعونة » .

وجاء في الحديث الشريف عن الرسول الاعظم :

﴿ اللّهُـمَّ ارْزِقْ مُـحَمَّداً وَآلَ مُـحَمَّدٍ ،وَمَنْ أَحَبَّ مُـحَمَّداً وَآلَ مُـحَمَّدٍ الكَفَافَ وَالعَفَافَ ﴾ .

وقال الحسين :

« اللهم حاجتي التي ان اعطيتنيها لم يضرني ما منعتني ، وان منعتنيها لم ينفعني ما اعطيتني ، اسألك فكاك رقبتي من النار » .

هذه هي امنية الابرار « النجاة من النار » ولا شيء سواها ، فان حصلوا عليها ، ثم فقدوا كل شيء حتى الماء والهواء ، وحتى لو قطعوا اربا اربا فهم الرابحون المنتصرون ؛ وان فقدوها ، ثم ملكوا الكون بما فيه من أرضه إلى سمائه فهم الخاسرون المغبونون ، وهذا معنى قول الحسين (ع) في هذا الدعاء الذي نحن بصدده مخاطباً ربه :

﴿ ماذا وجد من فقدك ؟ ! وما الذي فقد من وجدك ؟ ! ﴾

ولم تكن أقوال الحسين الا نبضاً من اعماق قلبه يتمرس بها ويحياها ؛ ولو جرت عليه الكوارث والخطوب ، فلقد قال ، والسيوف تنهال عليه من كل جانب :

﴿ هون علي ما نزل بي انه بعين الله ﴾.

فالحسين يسر بالألم والمصاب ما دام لله فيه رضى ، فالحكمة والصلاح والخير هو ما يختاره الله ، وان كان فيه ذهاب النفس والأهل والمال ؛ فان حصل شيء من هذا في سبيل الله ، او حصلت مجتمعة لم تضطرب النفس ، ويتزعزع الايمان ؛ لان رضى الله هو المطلب والهدف .

هذا مبلغ أهل البيت من الدين واليقين بالله ، وهذه منزلتهم من العلم به سبحانه ، والتوجه إليه بالفعل قبل القول ، وهذا هو التجرد عن الدنيا وغاياتها والفناء في جنب الله عز وجل ، والالتجاء إليه ، وهذا هو التجلي والاشراق والنور والكشف ، وبلوغ الكمال ، وماذا بقي لأهل التصوف بعد قول الحسين :

﴿ ماذا وجد من فقدك ؟ ! وما الذي فقد من وجدك ! ﴾ .

وقال :

﴿ إلهي إن اختلاف تدبيرك ، وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء ، واليأس منك في بلاء ﴾ .

ليس للعارفين واهل اليقين حالات ، ولا شخصيات تتحول وتتبدل تبعاً للظروف والملابسات ، فايمانهم بالله اقوى من ان تزعزه الحوادث ؛ وثقتهم به في السراء تماماً كثقتهم في الضراء ، لا يبطرون عند الصحة والغنى ولا ييأسون عند المرض والفقر ، لأن الحائن في طريق الزوال . قيل لبعض الحكماء : ما لنا لا نراك فرحاً ولا حزيناً ؟ . فقال : لان الغائب لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحبرة . وقال عز من قائل :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ١٧ الانعام

وما دام الأمر إلى مقادير الله سبحانه ترفع الوضيع ، وتغني الفقير ، وتمرض السليم . وتشفي السقيم فعلام السكون إلى العطاء ، واليأس في البلاء ؟ !

وقال :

« إلهي امرت بالرجوع إلى الآثار . فارجعني إليك بكسوة الانوار ، وهداية الاستبصار ، حتى ارجع إليك منها ، مصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، انك على كل شيء قدير » .

يقول : إلهي انك خلقت الكائنات . وهي تدل عليك من كبيرها إلى صغيرها . وأمرتنا بالنظر فيما أودعته فيها من الحكمة وبدائع الصنع والتكوين لتحصل لنا المعرفة من طريقها بقدرتك وعظمتك . ولكنا نسألك أن تهبنا نوراً واستبصاراً من عندك . لنؤمن بك مباشرة دون أن نرجع إلى الآثار من خلق السموات والأرض ، حتى إذا رأيناها لم نزدد معرفة ويقيناً بك ، بل يكون رجوعنا إليها كخروجنا منها ، لانها لم تفتح لنا ابواباً جديدة للايمان بك بعد أن زودت قلوبنا بالنور والسكينة .

وهذا هو سبيل الصوفية الذي ينتهي بالانسان إلى الايمان بالله عن طريق القلب لا عن طريق العقل واقيسته المنطقية .

الله كريم

إن مبدأ النقص في الانسان – أي انسان غير معصوم – وعلى الأصح مبدأ اهلية الانسان وقابليته للنقص ، ان هذا المبدأ لا ينقص بحال ، فالانسان ابداً ودائماً عرضة للخطأ في القول والعمل ما دام لا يعلم الغيب ، وما دامت افكاره وبواعثه تتجمع من هنا وهناك ، وهو دائماً وابداً عرضة للوقوع في الخطيئة ما دامت فيه غريزة الرضى والغضب وعاطفة الحب والبغض ، وشهوة الطعام والجنس .

ومن هنا كان كمال الانسان نسبياً . فمن يشعر بأن افكاره وآراءه تصورات يحسبها انعكاساً عن الواقع ، وانها تخطيء وتصيب فهو كامل بالقياس إلى من يراها عين الواقع .

ان العاقل اللبيب يبحث عن الحقيقة ، ويبذل قصارى جهده للوصول إليها ، فان رأى انه قد بلغها مضى على رأيه ، وعمل به حتى يتبين له خير منه ، ومن قال : هذا رأيي وكفى ، وهو الحق ولا شيء سواه فهو ابعد الناس عن المعرفة ، لأن اساس العلم ان يتهم الانسان نفسه ، ويحتمل الخطأ في افكاره كما يحتمل فيها الصواب .

وكذلك المؤمنون بالدار الآخرة يفعلون ما يؤمرون وهم يرجون رضى الله وثوابه ، لأنهم عملوا له بإخلاص وفي نفس الوقت يخافون من غضبه وعقابه

خشية التقصير والتفريط ، وهم الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، كما وصفهم الامام علي بن أبي طالب.

وترى هذا الوصف مجسماً في اقوالهم وشعورهم ، وهم يناجون خالق الكائنات ، ويتضرعون إليه طلباً للعفو والمغفرة ، وانك لتحس ، وأنت تقرأ تلك المناجاة ، انهم قد تجردوا عن الشهوات ، ومحوا من انفسهم جميع الأهواء والغايات ، وقد تراني ايها القاريء مغالياً في قولي هذا ، لانك قد ترى مع من يرى ان الانسان مهما سمى بأخلاقه فانه لا يرتقي إلى ما فوق الظروف والبيئات . ولكن بماذا تفسر هذه الذروة في كلام الامام زين العابدين ، وهو يناجي ربه الكريم بقوله :

« إلهي لم أعصك حين عصيتك ، وانا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخف ولا لعقوبتك متعرض ، ولا بوعيدك متهاون ، ولكن خطيئة عرضت ، وسولت لي نفسي ، وغلبني هواي ، واعانني عليها شقوتي . . . فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ ! وبحبل من اتصل ، ان انت قطعت حبلك عني ؟ ! ولولا ما ارجو من كرمك وسعة رحمتك اياي عن القنوط لقنطت . . . فهب لي من لدنك رحمة . انك انت الوهاب ، فبعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ، ولا كففت عن تملقك . . . إلى من يذهب العبد الا إلى مولاه ؟! وإلى من يلتجيء المخلوق الا على خالقه ؟ ! » .

ونتساءل : هل انتقل هذا الشعور إلى الامام بالعدوى ، او اكتسبه من البيئة ، وقد عاش في عصر الامويين ، عصر الظلم والفساد ، وقديماً قيل : الناس على دين ملوكهم ؟ ! كلا ، لا سبب لهذا اليقين الا المعرفة بقدرة الله وعظمته ، والا النظر العميق يخترق الحجب والظواهر ، ويدرك الحقائق التي تطمئن إليها النفس ، ويقرها العقل .

لقد تاقت نفس الامام إلى الخير ، لأنها جبلت من الخير ، واتاه اليقين ، لانه جرى مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وتمرد على كل ما اعترضه من عوامل البيئة والظروف التي تعمي البصائر ، وتفسد الضمائر .

وقال :

« اللهم اني استوهبك مالا ينقصك بذله ، واستحملك مالا يبهظك حمله استوهبك يا الهي نفسي التي لم تخلقها ، لتمتنع بها من سوء ، او لتتطرق بها إلى نفع . . . ان تفعل ذلك تفعله بمن خوفه منك اكثر من طمعه فيك ، وبمن يأسه من النجاة اوكد من رجائه للخلاص ، لا أن يكون يأسه قنوطاً ، او يكون طمعه اغتراراً ، بل لقلة حسناته بين سيئاته وضعف حجته في جميع تبعاته » .

وليس هذا اعترافاً بالذنب ، وانما هو ضرب من عبادة العارفين ، ونوع من انكار الذات ، ومظهر من مظاهر السيطرة على الاهواء والشهوات ، واسلوب فريد في الارشاد والرجوع إلى الله سبحانه ، والخوف من حسابه وعقابه ، وحجة بالغة على من يصر على الخطيئة والجهل والضلالة . فمن الناس من يسهل عليه كل شيء الا الاعتراف بالخطيئة ، فشجعه الامام على الاقرار بالذنب وطلب التوبة ، وضرب له مثلاً من نفسه ، ليفهمه بان الاعتراف بالذنب والاقلاع عنه كفارة له ، والإصرار عليه جرم لا يغتفر .

أما قول الإمام استوهبك يا إلهي نفسي التي لم تخلقها لتدفع عنها ضراً ، او تجلب لها نفعاً ، أما هذا النوع من المنطق فسنعلق عليه بعد ان ننقل الكلمات التالية :

« إلهي وسيدي » ، وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك ،

ولئن طالبتني بلؤمي لأطالبنك بكرمك ولئن ادخلتني النار لاخبرن أهلها بحبي لك . . . إلهي وسيدي ان كنت لا تغفر الا لاوليائك واهل طاعتك ، فإلى من يفزع المذنبون ، وان كنت لا تكرم الا أهل الوفاء بك ، فبمن يستغيث المسيئون . . . اللهم انك انزلت في كتابك العفو ، وامرتنا ان نعفو عمن ظلمنا ، وقد ظلمنا انفسنا ، فاعف عنا ، فانك أولى بذلك منا ، وامرتنا ان لا نرد سائلاً عن ابوابنا وقد جئتك سائلاً فلا تردني الا بقضاء حاجتي ، وامرتنا بالاحسان إلى من ملكت ايماننا ونحن ارقاؤك ، فاعتق رقابنا من النار » .

قد يرى البعض هذه الأقوال شكراً أو استعطافاً ، او تنبيهاً للغافلين ، أما أنا فأراها احتجاجاً بكل ما فيه من معنى ، ودفاعاً « حسب الأصول المرعية » وليس في قولي هذا جرأة على الله سبحانه ، وتهجم على عظمته ، فقد جاء في الذكر الحكيم :

﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ ﴾ . النساء ١٦٥

وبديهة ان نفي الحجة يستلزم امكان ثبوتها ، فإذا قلت : لم أسافر فمعناه أن السفر مقدور لك ، ولكنك لم تفعله .

هذا ، وان الله عادل حكيم ، والعادل لا يعاقب حتى يحاكم ، ولايحاكم حتى يؤمن المتهم ، ويزيل من نفسه الخوف على حقه في الدفاع ، ومهما كان يوم القيامة رهيباً وعجيباً ، وكان الحساب دقيقاً وعسيراً فكل نفس تطمئن إلى حكم الله وعدله ، وتعلم علم اليقين انها لا تظلم شيئاً ، فإذا جزعت وخافت فانما تخاف من ذنوبها وسيئاتها .

ولكن هذه السيئات لا تسلب صاحبها حق الدفاع عن النفس ، فان المذنب

والبريء فيه سواء ، وعلى الحاكم ان يفسح المجال للاثنين دون تفاضل ، حتى ولو ظهرت قرائن الاقتناع ودلائل الادانة ، بل ان المذنب اولى من البريء في هذا الحق . فان له بعد ثبوت الجرم عليه أن يدلي بأسباب العفو عنه ، او التخفيف من العقوبة . بخاصة إذا وجد السبيل إلى ذالك ، ولا شيء اكثر من السبل إلى مغفرة الله ورحمته . ومنها الاعتراف بالتقصير وطلب العفو والرضوان .

لقد كتب الله على نفسه الرحمة . وخاطب عباده بقوله :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . الزمر ٥٣

اذن يحق لكل من يحاكم بين يديه أن يطلب العفو والرحمة ، ويحتج بتفضله واحسانه . وعدم افتقاره إلى شيء . واستمع إلى منطق الامام الصارم الحازم .

« اللهم اني امرؤ حقير . وخطري يسير . وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة . ولو ان عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه ، واحببت ان يكون ذلك لك . ولكن سلطانك اعظم . وملكك ادوم من ان تزيده طاعة المطيعين . او تنقص منه معصية المذنبين » .

وهذه حقيقة صافية نقية . ودستور إلهي لا تحول دون تطبيقه القوى مجتمعة . وبواقع الحال لا يطبق هذا الدستور الا على من دان به وآمن بالله

وثوابه وعقابه ، أما الجاحد فقد قطع الطريق على نفسه ، واختار لها سوء المصير بالتكذيب واعلان الحرب على الله ، ولم يدع لها حجة تستند إليها وعذراً تعتذر به .

أجل ان الله كتب الرحمة على نفسه ، ولكن لمن آمن بها وايقن ، وهو يغفر الذنوب ، ولكن للمؤمن ، لان ذنوبه لا تخرجه عن الايمان ، فله ان يتذرع بايمانه ، وان يسأل الله العفو ، ولا يقطع الرجاء حتى ولو رأى العذاب وجهاً لوجه ، كما اسلفنا من قول الامام : « لئن ادخلتني النار لأخبرن اهلها بحبي لك » . وبماذا يتذرع الجاحد بعد يأسه وقوله : لا رب ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار . ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ؟ !

قد يكون الذي يسمع إلى مناجاة الامام عالماً او فيلسوفاً او اديباً او مؤرخاً ، وقد يكون جاهلاً ، وقد لا يؤمن بشيء ، ومهما يكن فانه يشعر في قرارة نفسه بالرهبة والجلال ، لهذا المنطق ، لانه يعبر عن واقع لا ريب فيه ، ويفرض نفسه على كل انسان من حيث يشعر او لا يشعر .

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾

وهذا ما أراده الامام من مناجاته ، أراد أن يعود بالنفوس إلى فطرتها ويحييها بالأمل والشجاعة ، ويحملها على اليقين بان سبيل الامان والنجاة هو الايمان بالله ، وان أبواب الرجاء والخلاص مفتوحة امام المؤمن ، وان كثرت ذنوبه وتنوعت ، وانه لا نجاة ولا أمان لجاحد في كل حال ، لان الله يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قرر الإمام هذه الحقيقة بكل هدوء ، وباسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويزيل منها الشكوك ، وبمنطق تدهش العقول لبساطته ، ولكنه اقوى تأثيراً

من جميع الوسائل والأقيسة التي يتذرع بها العلماء والفلاسفة . وهنا سر الاعجاز .

ومن الخير ان ننقل بهذه المناسبة الحديث التالي :

لما نزلت هذه الآية :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ . النمل ٨٩

قال رسول الله : ربي زدني . فنزل من جاء بالحسنة فله عشرة امثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الا مثلها . فقال الرسول: زدني . فنزل يضاعف له اضعافاً كثيرة . والكثير عند الله لا يدخل في حساب .

ومن احكام الفطرة انه إذا كان لك دين على غيرك فانت مخير بين ان تعفو عنه ، أو تأخذه دون زيادة ، اما إذا كان الدين عليك فان شئت رددته كما هو عدلاً وانصافاً ، او زدت تفضلاً واحساناً . جاء في الحديث ان اعرابياً سأل النبي : من يتولى حساب الخلق غداً ؟ قال : الله . فقال الاعرابي هو بنفسه ؟ قال : نعم . فضحك الاعرابي . فسأله النبي عن السبب . فقال : ان الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح في الحساب ولا يناقش .

ولسائل ان يسأل : لو ان انساناً عمل للصالح العام ، فشق طريقاً ، او بنى مدرسة ، او مستشفى ، وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فهل يثاب على عمله هذا ، ويعد عند الله من الطيبين الأخيار ؟

والجواب :

ان الفعل حسن ومطلوب لذاته لا يغيره القصد عن حقيقته . ولا لون الفاعل عما هو عليه . فانتشار العلم وتطبيب المرضى . وتيسير المواصلات كل ذلك وما إليه محبوب عند الله سبحانه سواء أحصل من متدين أو جاحد . ولكن الذي لا يعترف بوجود الله . ولا يعمل انقياداً لدعوته ليس له ان يطلب منه الاجر والجزاء ما دام لم يقصد وجهه الكريم . كما انه لا يجب عليه سبحانه ان يثيب من لا يشعر بقوته وجلاله . وهل تقدر أنت من لا يراك شيئاً كائناً من كان ؟ !

ان هذا الرجل الذي فعل الخير لوجه الخير لا لشهرة ولا للدعاية إلى نفسأ لا شك انه انساني يستأهل الحمد والثناء من الناس على مقاصده النبيلة ، وعمله من أجل الانسان . ولكن الفرق بعيد جداً بين من يعمل الخير ، وهو مؤمن بأنه فرض اوجبه عليه مبدأ اسمى . وانه مسؤول عن العمل لا يجوز له تركه بحال ، وهو لا يرى نفسه ملزماً بشيء او مسؤولاً عن شيء .

ان الثواب من الله لا يجب الا مع قصد الطاعة له المقارن للتعظيم والاجلال . هذا . إلى ان الله سبحانه لا يقبل الا من المتقين الذين يؤمنون به وبلقائه في يوم الدين وبهذا نطق القرآن الكريم :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾
الزمر ٦٥ .

﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ أُولَئِكَ

حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالآخِرَةِ ﴾ . البقرة ٢١٧

﴿ أولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ
فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً ﴾
الكهف ١٠٥

أي لا قيمة لهم عندنا ولا كرامة ، ولا نعتد بهم ولا بأعمالهم ، لأنهم اوقعوها على غير الوجه الذي يستحقون عليه الأجر والثواب .

ومهما يكن ، فان كلاً من الايمان وعمل الخير جزء متمم للثاني لا يغني احدهما عن الآخر ، وبهذا صرحت الآية ٩٧ من سورة النحل :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ
أوْ أنْثَى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأولَئِكَ
يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . غافر ٤٠

اذن الايمان بالله شرط أساسي لجزائه وثوابه ان من يؤمن بالله واليوم الآخر يقابل غداً بين حسناته وسيئاته ، وينظر ايتها اكثر ، فان كانت الاساءة كان كمن لم يحسن ، وان كان الاحسان كان كمن لم يسيء ، إذ الأكثر ينفي الأقل ، وان تساويتا كان كمن لم يصدر عنه شيء . هذا فيما يعود إلى حق الله فقط ، أما حق الناس كالزنى والسرقة والعدوان فالعقاب مستحق

على كل حال ، ولا تقارن وتوازن بين ما قل وكثر . أما الجاحد ، أما من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فلا يعد مطيعاً وعاصياً في آن واحد ، بل هو عاص فحسب ، لان الجحود سيئة لا تقبل معها حسنة ، وليس بعد الشرك الا العذاب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة على سيدنا محمد وآله الأطهار .

موضوعات الكتاب

موضوعات الكتاب	رقم الصفحة

٤ ـ الآخرة والعقل

٥ ـ إمامة علي (ع) بين العقل والقران

موضوعات الكتاب	رقم الصفحة

٧ ـ الحسين والقرآن

٨ ـ الاثنا عشرية وأهل البيت

٩ ـ مفاهيم إنسانية في كلمات الإمام جعفر الصادق (ع)

موضوعات الكتاب	رقم الصفحة

١٠ – بين الله والإنسان

القسم الأول

موضوعات الكتاب	رقم الصفحة

القسم الثاني

القسم الثالث

وقع بعض الأغلاط لا تخفى على القارىء الكريم .